قلوب مضادة للرصاص

رواية

محمد مجدي



دار دوّن

قُلوبٌ مُضَادَّةٌ للرَّصاص

الطبعة الأولى : يناير 2016
رقم الإيداع : 23086/ 2015
الترقيم الدولي : 978-977-6426-88-3
تصحيح لغوي : حسام حسين
تصميم الغلاف : كريم أدم

تليفون : 01020220053
E_mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

قُلوبٌ مُضادَّةٌ للرَّصاص

رواية

محمد مجدي



دار دوِّن للنشر والتوزيع

«عندما تعيش الأسطورة لسنوات.... فإنها تعيش لسبب ما»

دان براون

الفصل الأول

يوسف، العلمين

رغم كل ما حدث، لم يندم يوسف على قراره. فمنذ عامين، في أحد أيام صيف يوليو، وبعد الكثير من الوجع النفسي، قرر ترك عائلته والذهاب للعيش في العلمين. ترك عمله في شركة المقاولات التابعة للعائلة، قام ببيع سيارته، وقطع علاقته مع جميع أصدقائه وأقاربه، ما عدا والدته التي تهاتفه مرة أو مرتين شهرياً، وذهب إلى العلمين.

عند وصوله قام بإستئجار غرفة صغيرة تابعة لأحد الفنادق الشهيرة. كان الفندق عملاقاً، يحتوي على ألف غرفة فندقية، ثلاثة مسابح، والكثير من ملاعب كرة القدم والسلة والتنس، هذا غير قاعات الحفلات والمنتجعات الصحية وصالات الجيم.

بعد أن استقر يوسف.. وقد ساعده أحد أصدقاء الدراسة القدماء، بدأ إجراءات إنشاء شركة صغيرة لرحلات السافاري، وبعد شهر من العمل والدعاية أصبح للشركة اسم معقول، وساعده في العمل معدل

السياح المرتفع لدى الفندق. تكونت الشركة من مقر صغير لا يتعدى عشرون متراً مربعاً، يستخدمه في مقابلة السياح وتسجيل الحجوزات، وثلاثة عمال يساعدونه في تنظيم الرحلات ومرافقة المشتركين، وعشرون دراجة بخارية من نوع بيتش بجي.

يستيقظ يوسف في الثامنة صباحاً، تبدأ الرحلة الأولى في التاسعة، وتستمر لثلاثة ساعات، ثم الرحلة الثانية وتستمر لثلاثة ساعات أخرى، بعدها يظل جالساً في مقر الشركة لساعتين لتلقي حجوزات اليوم التالي. في السادسة، يكون يومه قد انتهى، يذهب إلى غرفته التي تقع ضمن مجمع تابع للفندق يضم غرف الموظفين، يقوم بتغيير ملابسه، وقبل أن ينصرف يلقي نظرة على مقتنياته القديمة، التي تحمل ذكريات سنوات الصبا والمراهقة.. كاسيت قديم، شرائط بلاستيكية، رسائل مهترئة قرأت مئات المرات، علبة خشبية ذات نقوش على أطرافها، زجاجة من العطر الفرنسي، قلادة فضية، دلاية نقش عليها وجه امرأة، قصاصة جريدة. جميعها أشياء ليس لها قيمة لأي شخص آخر، ولكنها لا تقدر بمال بالنسبة إليه.

يذهب للجلوس في إحدى شرفات مبنى النادي الإجتماعي (Club House)، بحيث يستطيع مراقبة المسبح من دون أن يراه أحد. ولمدة نصف ساعة، لا تغادر عيناه.. داليدا، الفتاة التونسية التي تعمل كأحد فتيات الأنيميشن، وهن المسئولات عن تنظيم برامج للترفيه عن السائحين، كمباريات الكرة الطائرة على الشاطىء وكرة القدم ودروس اليوجا والأيروبكس.

ضئيلة الجسد هي، قصيرة نسبة إلى الكثير من الفتيات، جسدها ممشوق وجذاب من كثرة ممارسة الرياضة، تمتلك وجهاً جميلاً خالياً من المكياج ومستحضرات التجميل.. ذو بشرة برونزية لوحتها الشمس من كثرة وقوفها على البحر والمسبح للترفيه عن السائحين، حتى شعرها الأسود متوسط الطول تتركه هائشاً على طبيعته. ملابسها بسيطة، في الصباح ترتدي تي شيرت أبيض بدون أكمام على شورت أحمر قصير، وفي المساء وقت السهر، ترتدي جينز ضيق فاتح اللون على بلوزة واسعة. منذ عامٍ مضى، عندما كانت تسهر مع يوسف وحدهم، كانت ترتدي تنورة قصيرة تكشف عن ساقيها المتناسقتين وسمانتيها القويتان، ولكن الآن، لا يوجد يوسف ولا يوجد سهر.

ظل نصف ساعة ينظر إليها وهي تعمل، يقف أمامها مجموعة من السائحين يقلدون حركاتها الرياضية. رشيقة كعادتها، تحرك جسدها بسرعة وسلاسة. أخذ يوسف بالتفكير في ذكرياتهما معاً، كل يومٍ يفكر في شيء مختلف، اليوم تطرق عينيها شديدتا السواد على ذاكرته، كيف اعتاد أن يطيل النظر إليهما ويشعر أنهما عميقتان من دون قاع.

بعد أن تنتهي فقرتها، يغادر يوسف ويعود إلى غرفته، يغير ملابسه ويذهب لينام لبضع ساعات، ثم يستيقظ بعد منتصف الليل، ويذهب إلى المكان الذي يسهر فيه يومياً بعد أن يغلق أبوابه، بار ومطعم لاروزا التابع للفندق والقابع على البحر مباشرة.

في طريقه للبار يلتقي بمستر آدم، يلقي عليه التحية بحرارة. مستر آدم هو مدير الفندق، وأحد أعضاء مجلس الإدارة، يمتلك ما يمثل ثلاثون بالمائة من أسهم الشركة المالكة للفندق، وتقول الشائعات أن هذه الشركة تمتلك أكثر من عشرين فندقاً في أنحاء الجمهورية، جميعهم من نوعية فنادق الخمس نجوم.

لمستر آدم لحية خفيفة، تزيد من وقاره وأرستقراطيته، عجوز تخطى السبعين منذ بضعة أعوام، ولكنه لا يزال محتفظاً بصحته، لا يدخن ولا يشرب الكحوليات ويلعب الإسكواش ثلاثة مرات أسبوعياً. بخلاف جميع ما سبق، فأهم ما يميزه هو شعبيته الطاغية، جميع العاملين من مصريين وأجانب يلجؤون إليه عندما تواجههم أي مشكلة، يبذل وقتها ما في وسعه لإرضاء جميع الأطراف. يسهر ليلاً على أنغام أم كلثوم وعبد الحليم حافظ، يعيدونه إلى الزمن الجميل على حد قوله. هو المصري الوحيد في الإدارة العليا للفندق، جميع أعضاء مجلس الإدارة الآخرين ورؤساء الأقسام أجانب.. حتى مساعده الشخصي ومدير الأمن.

يعتبر بار ومطعم لاروزا أحد أهم الأماكن في الفندق، نظراً لموقعه على البحر مباشرة. يفتح المكان أبوابه في السادسة صباحاً، ويغلق في الواحدة بعد منتصف الليل. بعد أن يتم إغلاق المكان، يجتمع يوسف مع عائلته الجديدة، أصدقاؤه الجدد، عاطف ونادر، تعرف عليهم بعد انتقاله إلى العلمين، ووجد كل منهم في الإثنين الآخرين ملاذاً من الوحدة، ثلاثتهم قادمين من أماكن مختلفة، تاركين عائلاتهم خلفهم، فوجدوا في هذه الصحبة بعضاً من العزاء.

عاطف هو البارتندر أو البارمان في لاروزا، ترك قريته منذ بضعة سنوات وجاء للعمل في هذا المكان بحثاً عما يغطي احتياجات أسرته المادية. في معظم الأيام المزدحمة ونهاية كل أسبوع، تقام حفلات الرقص التي تستمر حتى منتصف الليل، تباع الخمور بأنواعها ويعلو صوت الموسيقى ويرقص الشباب والفتيات بكل طاقاتهم وكأن حياتهم متوقفة على هذا الرقص، الأجساد تبدو لامعة في الليل بعدما لوحتها شمس النهار، جميع الملابس قصيرة تظهر أكثر مما تخفي. وفي خضم كل هذا.. يعمل عاطف بأقصى طاقته حتى يلبي احتياجات جميع الزبائن، يعمل بيديه ولكن عقله دائم الإنشغال بعائلته التي تعيش في قرية تبعد عنه مئات من الكيلومترات، عليه تدبير ما يلزم لوالدته وأخته الصغرى وزوجته وأطفالهما، من كثرة المشاغل لا يهتم بأجساد النساء التي تهتز عارية أمامه يومياً، كل ما يهمه هو توفير المبالغ المطلوبة حتى يسدد ديونه ولا تتم مضايقة نساء أسرته في غيابه، هذه الديون هي الشيء الوحيد الذي تركه لهم والده المتوفي.

يظل جسده وعقله منهكين إلى أن ينتهي العمل ويغلق البار، وقتها يسترخي ويقوم بتجهيز الكراسي والطاولة والشاي والقهوة لسهرته مع يوسف ونادر.

لم يكن عاطف متديناً، ولكنه يحافظ على صلاة الجمعة، يصلي ويقرأ القرآن في رمضان، ولا يعتبر عمله كساقٍ للخمر محرماً، هو لا يشربها وهذا يكفيه ويرضي ضميره. الشيء الذي استباحه لنفسه مؤخراً..

هو سرقة بعض الخمور من البار. الخمر محرمة، لذلك لا ضير من العمل على تقليل حصة الزبائن.. وإضافة القليل من ماء الصودا ليستطيع توفير زجاجة أو زجاجة ونصف يقوم ببيعها بثمن بخس لحسابه الخاص، وعندما تشتد ضائقته المالية.. يقوم بشراء زجاجات مياه غازية وعصير ويضعها في ثلاجة البار، ويبيعها لحسابه الخاص دون طبع فاتورة وبالتأكيد من دون إخطار الفندق بها. هو يعمل في خمارة، كل أموالها حرام، فلا ضير من الإستفادة منهم لحسابه الشخصي خصوصاً أنه يعول ستة أشخاص.

دخل يوسف إلى البار، وجد عاطف ونادر يجلسون في أماكنهم المعتادة، أمامهم كوبين من الشاي وزجاجة مياه غازية فارغة. ألقى عليهم التحية وجلس. بدأ عاطف في توزيع أوراق اللعب، بعدما أمسك كلٌ منهم بورقه، قال نادر موجهاً حديثه إلى يوسف دون أن ينظر إليه:

«فقط أخبرني متى.. متى ستضع حداً لهذه الحالة، المنتظر لحكم الإعدام لا يبدو بمثل كآبتك، قال أحد الفلاسفة القدماء، أنه من الأفضل أن تواجه تبعات قرارك على أن تمر بمعاناة التفكير في أخذ القرار وإضاعة الوقت، إلى متى ستظل تحيا في هذا البرزخ»

نادر هو الشخصية الثائرة في الروايات والأفلام التي تتحدث عن الإشتراكيون الثوريون، أسمر البشرة، نحيف تبرز العروق من سواعده، تتميز عيناه بنظرة الثائر المستعد للوثب في أي مظاهرة ولا يخشى الإعتقال، مثقف من الدرجة الأولى وقارىء نهم، يقرأ كل

ما تقع عليه يداه، بداية من رأس المال لكارل ماركس مروراً بأدباء نوبل كجابرييل جارسيا ماركيز وألبير كامي إلى روايات جي كي رولينج الأكثر مبيعاً في العقد الأخير. قام بتغيير ميوله والصفوف التي يحارب بجانبها بضع مرات، ظل مذبذباً إلى أن اعتزل كل شيء بعد متتالية إحباطات استمرت لعشر سنوات، وآمن أن الجميع خائنون، كل خائن بطريقته.

الآن هو يعمل كمدرس دراسات اجتماعية في مدرسة خاصة، يمضي صباحه في المدرسة، وبعد الظهر يتفرغ لكتابة مقالات وأخبار لإحدى الجرائد الإلكترونية بأجر زهيد، يبذل الكثير من الجهد حتى يكتب مقالات متميزة ومختلفة عسى أن تحقق نسب مشاهدة عالية، يتمنى أن تصبح الكتابة هي دخله الرئيسي في أحد الأيام. كان لديه أحلام أدبية وكتب رواية منذ بضع سنوات، ولكن هذه الأحلام تم تأجيلها إلى أجل غير مسمى. ما جعل نادر قريباً من يوسف، ظروفه المشابهه له، فهو أيضاً لا يزور قريته حتى في العطلات، هناك ما يمنعه، على عكس عاطف الذي ينتظر إجازته بفارغ الصبر حتى يهرع إلى بلدته.

بعد فترة من الصمت، قال له يوسف بحدة وكأنه يريد أن يسكته:

«ما رأيك بإلى الأبد؟»

الفصل الثاني

زينة، القاهرة

بعض الأشخاص يعتبرون المستشفيات أماكن ذات سحر خاص، فوسط حالات الموت وصراخ المرضى المتألمين ليلاً والأخبار الكارثية التي تتلقاها أسرة المريض.. هناك بريق خفيف يشع، عندما تجد عائلة المريض ملتفين حوله والقلق بادٍ على وجوههم، عندما تسهر المرأة بجانب والدها أو والدتها طوال الليل، عندما يسهر الرجل بجانب زوجته المريضة، في المستشفيات يتم تجديد العواطف والمشاعر التي تكون غطتها أتربة المشاغل والأعمال اليومية، وتتجدد وعود الحب القديمة، وتتأكد أن هناك من على استعداد لأن يقف بجانبك وأنت في أضعف حالاتك.

اليوم، اجتمعت عائلة زينة في المستشفى، كانت المشاعر متضاربة، لا يعلمون هل يجب أن يفرحوا أم لا. فمنذ أربع سنوات، تزوجت زينة من الرجل الذي أحبته، وسافرت إلى شرم الشيخ لقضاء شهر عسلها كما كانت تحلم دائماً، وفي طريقها إلى المطار.. حدثت الكارثة،

حادث سيارة راح ضحيته زوجها، ودخلت زينة في غيبوبة لم يظن أي طبيب أنها ستستيقظ منها يوماً ما، أخبرهم الطبيب أن فرص الإفاقة من غيبوبة تزيد مدتها عن الثلاث سنوات أمر نادر الحدوث إن لم يكن مستحيل. ولكن عائلتها التي لديها ما يكفي ويزيد من المال.. أصرت أن تبقي أجهزة التنفس الصناعي تعمل ولا تتوقف. والآن، بعد أربع سنوات، ومن دون أن يتوقع أحد، تحدث المعجزة وتستيقظ زينة، ويتم إعلام عائلتها بالخبر.

تجلس العائلة في بهو المستشفى الأنيق، والد ووالدة زينة، أخواتها الإثنين وزوجيهما وأبنائهما الخمسة، خالتها وابنة خالتها وابنتيها الصغيرتين. بعد ساعة من الإنتظار يأتي طبيب شاب، يسأل والد ووالدة زينة أن يتبعوه، فيذهبون برفقته.

وكأنهم يشاهدون شخص يتم إحياؤه من الموت بعد أن تم نسيانه، يرون ابنتهم شاحبة الوجه، تنظر إلى ما حولها في دهشة، تحاول فتح فمها والتحدث ولكن لا يصدر عنها أي صوت.

«لن تستعيد قدرتها على التحدث قبل ستة أشهر على الأقل، أمامها الكثير من العلاج الطبيعي والتمارين لإستعادة حياتها، ستتعاملون معها كأن الله رزقكم بمولود صغير»

هكذا قال الطبيب وقتها. وبعد مرور شهر على وجودها في المستشفى، تم نقلها إلى بيت العائلة القابع في أحد المدن الجديدة.

بعد أن كانت زينة طي النسيان.. عادت عائلتها للإهتمام بها من جديد، فالعائد من الغيبوبة يحتاج إلى الكثير من الرعاية كما قال الطبيب.

بدؤوا في تعليمها المشي وحدها، أصبحت تمشي خطوة ثم تسقط، ولكن بعكس سقوط الأطفال، كان سقوط امرأة في الثلاثين من عمرها مؤلماً. كانت تستيقظ في منتصف الليل وتضع ما تقع عليه يدها في فمها كالأطفال الصغار، ولا تعرف متى يجب عليها الذهاب إلى دورة المياه فتتبول على ملابسها، حتى عندما أصبحت تدرك أن مثانتها منتفخة ويجب إفراغها كانت تحتاج إلى من يساعدها في الجلوس والتوازن.

ما كان مثيراً للضحك في البداية ثم أصبح بكاءً، هو تعليمها أن تمسك الملعقة أو الشوكة وتأكل وحدها، بعد أن كانت من أوائل دفعتها في الجامعة.. أصبح وجهها مليئاً بالطعام في محاولات فاشلة لإدخال الملعقة إلى فمها.

بعد مرور أربعة أشهر، بدأت تنطق بضع كلمات. وعندما أصبح لديها القدرة على تكوين جمل كاملة، قالت ما لم يتوقعه أهلها تماماً، كانت أول جملة تقولها زينة هي:

«م م من.. الذي.. ققتل وائل؟»

أجابتها أمها بدهشة:

«زوجك لم يقتل حبيبتي، توفي في حادث، كنتِ معه في السيارة.. وهذا هو سبب دخولك في الغيبوبة»

أجابت بتصميم ودون تفكير:

«ك كلا.. هناك م من أراد قتل وائل، زوجي ق ق قتل.. أنا واثقة من هذا»

الفصل الثالث

يوسف، العلمين

كعادة الكثير من العشاق السابقون، أو العشاق الذين أجبرتهم ظروف الحياة على حمل لقب «عاشق سابق»، استيقظ يوسف في هذا اليوم وهو يشعر أنه يحمل ثقلاً لا قبل له به فوق كتفيه، يشعر أن جميع أعضاؤه متيبسة لا تطاوعه على الحركة بسلاسة.

كما قال له نادر، يجب أن يأخذ قراراً، إما بالتوقف عن الذهاب للفرجة على داليدا.. ويبدأ خطوات نسيانها، أو التقرب منها ومحاولة إصلاح ما تم كسره وتفتيته.

قرار صعب، ظل يؤجله عاماً كاملاً. ولكن اليوم، سينهي هذا العذاب، وسيختار أحد الطريقين من دون رجعة.

استيقظ كعادته في الثامنة، قام بغسل وجهه وأسنانه، وبدأ يمشط شعره الطويل نسبياً.. الذي يغطي عينيه عندما ينحني. بعد أن ترك عائلته حافظ يوسف على شعره البني متوسط الطول ووجهه الحليق،

ليس رغبةً في أن يبدو وسيماً أو جذاباً، ولكن لأنه يذكره بأمه القديمة، عندما اعتادت أن تطيل له شعره، وتذهب إلى مدرسته للتوسل أحياناً والعراك أحياناً أخرى عندما يطلبون منها أن تقص له هذا الشعر الطويل.

ذهب إلى مقر الشركة وبدأ بالإستعداد للرحلة الأولى. بينما يتأكد من اكتمال جميع المعدات كالخيام والدراجات البخارية والطعام الذي سيقومون بشوائه والشاي والعصير.. سمع من يصيح من بعيد «أوركاا.. أوركا»، نظر إلى مكان الصوت فوجد سعيد، أحد العاملين عنده في الشركة، يخبره أن هناك خمسة سائحين قاموا بإلغاء حجزهم، أومأ يوسف في ضيق، وهو يعلم أن اليوم لن يكون يومه المفضل، اكتئاب حاد سيطر عليه منذ أن استيقظ، والآن أصبح لديه سبب مادي لمزيد من الغوص في الحزن.

أصبح «أوركا» اسم شهرة يوسف بعد أن انتقل إلى العلمين بثلاثة أشهر، والأوركا هو الحوت القاتل، لونه أسود مع بعض الدوائر البيضاء في جسده. معظم الناس تحب هذا الحوت وتعتبره جميلاً ذو جاذبية خاصة، وزادت شعبيته بعد سلسلة أفلام التسعينات الشهيرة Free Willy، ولكن ما لا يعرفه الكثير من هؤلاء المعجبين.. أن هذا الحوت هو أحد أشرس الحيوانات في المحيط، لدرجة أنه في بعض الأحيان يهاجم ويقتل أسماك القرش.

ولهذا أُطلقوا على يوسف «أوركا»، لأنه وسيم الملامح، بل يمكن القول أنه جميل، ولكن في نفس الوقت شديد الشراسة وقت المواجهة.

موقفين أظهر فيهم يوسف أنيابه، وأثبت أنه ليس هذا الفتى المدلل القادم من القاهرة بحثاً عن مغامرة يحكيها لرفاقه.

المرة الأولى كانت عندما سب سائح أمريكي سعيد؛ أحد العاملين في شركته الصغيرة وأكثرهم ولاءً وتفانياً في العمل، سبه بأمه، قال له Son of a Bitch، والسبب هو سوء تفاهم حدث بسبب إنجليزية سعيد الركيكة وعدم فهمه لطلب السائح. فما كان من يوسف إلا أن طلب من السائح الإعتذار، فرفض وأخذ يسب ويلعن اختياره قضاء عطلته في هذا البلد.. الذي لا يعرف أهله كيفية التعامل مع البشر ولا يهتمون غير بالبقشيش الذي ستعطيه لهم، لم يعلق يوسف، ولكن في نهاية الرحلة، قام بتركه في منتصف الصحراء، ثم قام بإبلاغ الفندق أن هناك سائحاً مفقوداً عند الهضبة التي يخيمون عندها.

في اليوم التالي، أخبرت إدارة الفندق يوسف أنها أغلقت شركته، لأن السائح الأمريكي هدد بتقديم شكوى لسفارة بلده إن لم يتم إتخاذ إجراء مع هذه الشركة. ما حدث بعد ذلك كان جديداً ومذهلاً لجميع العاملين في الفندق، فقد وعدهم يوسف بإسترداد الشركة، وبدأ بإرسال الكثير من الرسائل والإيميلات إلى جمعيات حقوق الإنسان وجمعيات السلام الدولي التي تعني بالشرق الأوسط، كان مضمون رسائله أنه وجميع موظفي الشركة قد فقدوا عملهم، وأصبحت أسرهم من دون عائل، والسبب هو أن سائح أمريكي تركهم في منتصف أحد الرحلات وفقدوا أثره.. وقد تم العثور عليه في نهاية اليوم سليماً معافاً، فلا يلومهم

أحد عندما يزيد انتشار الإرهاب. كان يوسف يعلم أن أي رسالة تحتوي على لفظ «إرهاب» ومشتقاته.. سيقوم جهاز البحث التابع لهذه المنظمات بعرضها على الفور كأهمية قصوى، ويضمن بذلك أن تقرأ من دون تأخير وبإهتمام.

بعد أسبوع، تلقت إدارة الفندق أكثر من مكالمة هاتفية تطلب منهم إعادة شركة السافاري إلى العمل، وأصبحت صورة السائح الأمريكي تتصدر بعض الصحف والمواقع الإلكترونية فوق مقالات تتحدث عن أهمية إعادة تأهيل الشرق الأوسط حتى لا ينتج المزيد من الإرهابيين، ويجب تشجيعهم على العمل الشريف وليس العكس، بعدها مباشرة أعادت الإدارة شركة السافاري إلى العمل، خوفاً من الحديث عن الفندق في وسائل الإعلام بطريقة سلبية. بعد هذه الواقعة، طلب مستر آدم مقابلة يوسف، كانت المرة الأولى التي يراه فيها، أخبره أنه فخور بتصرفه، ويجب تشجيع أي مصري على التمسك بحقه.

موقف آخر حدث عندما وجد وسط السائحين سائحة إسرائيلية، فشعر بغيظ شديد من طريقة تمضيتها لعطلتها في مصر وصوت ضحكها العالي ومزاحها الذي لا يتوقف.. ولأنه مضطر أن يتعامل معها كأي سائح آخر. في وسط اليوم بعد أن بدؤوا الأكل، لاحظ يوسف وجود وشم لدلفين على كتف السائحة، فوقف أمام الفوج السياحي وبدأ يقول:

«اعتدنا دائماً أن نلقي خطبة صغيرة في منتصف اليوم لإلقاء الضوء على بعض المعلومات التي تخص العلمين، واليوم سنتحدث عن الدلافين»

قاطعه سعيد بعد أن فهم إنجليزيته بصعوبة:

«أي معلومات وأي خطب اعتدنا إلقائها؟؟»

زجره يوسف بالعربية أن يصمت. وأكمل قائلاً:

«اليوم سنتحدث عن الدلافين. هي أكثر كائنات نشيطة جنسياً على وجه الأرض، تقوم مجموعة من الذكور بممارسة الجنس مع أنثى واحدة، ويقوم الذكور بممارسة الجنس مع ذكور آخرين، ولا تقتصر ممارسة الجنس عندهم من المكان المتعارف عليه.. بل أحياناً يقومون بممارسته من فتحة التنفس. ويذكر أن بعض القبائل الهندية اعتادت ممارسة الجنس مع الدلافين.. وكانت الدلافين لا تمانع»

عندما أنهى يوسف حديثه كان وجه السائحة ممتقعاً، وأخذت تغطي وشمها بيدها، وحتى نهاية اليوم ظلت صامتة وكأن عطلتها انتهت فجأة. بعد عودتهم قال سعيد ليوسف:

«هل ما ذكرته عن الدلافين صحيح؟»

أجابه دون اكتراث:

«يقال أنها معلومات صحيحة»

«أنت رهيب، دائماً تستطيع التصرف»

أخذ يوسف في التفكير، هل دائماً يستطيع التصرف حقاً.. لماذا إذن ترك عائلته ولم يستطع التحمل.. ولماذا فقد داليدا أحب الناس إلى قلبه.. ولماذا أصبحت التعاسة جزءًا لا يتجزأ من حياته.

أحياناً يشعر أن لديه الإجابة، فهو مقاتل، ولتحقيق ما يريد يجب أن يكون لديه هدف محدد، أو عدو واحد، أما عندما تتداخل الأهداف، ويختلط الأعداء مع الأصدقاء.. يتشتت ولا يعرف ما يجب عليه فعله، فينزوي ويتخذ من الوحدة رفيقاً، هي الوحيدة التي لن تضعه في مفترق طرق.. ولن تجبره على فعل ما لا يريد.. ولن يصبح أمام خيارين يحب كلاهما.

* * *

بعدما انتهى اليوم وأغلق يوسف المكتب، ذهب إلى شرفة مبنى النادي الإجتماعي، وبدأ بمراقبة داليدا. تشرف اليوم على مباراة كرة طائرة، لا تلعب معهم، تقف بجانب الملعب وتمسك في يدها صفارة صغيرة، رغم أنها تبتسم وتضحك وتصفر بعد كل هدف يحرزه أي من الفريقين.. يستطيع رؤية حزنها الدفين، بسمتها وضحكها غير مكتملين، وحركاتها اختلفت عن العام الماضي. هذه الأشياء الصغيرة التي لا ولن يراها إلا من اقترب منك في يوم من الأيام، وشاهد روحك عارية من كل ما يلوثها في ظل الحياة.. من اجتماعيات فرضت علينا، وخبرات سابقة ذات ذكريات سيئة، والأقنعة والدروع التي تضطر أي فتاة تعيش في الوطن العربي أن ترتديها حتى تتعامل مع من حولها.

انتهت المباراة وبدأت داليدا تلملم أغراضها، فغادر يوسف وذهب إلى غرفته. قام بالإستحمام، ثم حاول أن ينام، ولكن من كثرة ما يعتمل في نفسه جافاه النوم، فأخذ يبحث عن أي كتاب بجانب السرير، وجد واحداً، أمسكه وبدأ القراءة، لا يتذكر ما هو الكتاب، ولكن بعد عشر دقائق من انغماسه في القراءة استطاع نسيان كل شيء وغلبه النعاس.

استيقظ في ميعاده المعتاد، بعد منتصف الليل بقليل. غادر السرير، وقام بتغيير ملابسه واتجه كعادته إلى بار لاروزا لملاقاة عاطف ونادر. في طريقه للبار شاهد بيتر، مدير الأمن الأجنبي، كان كعادته يؤنب أحد مرؤوسيه، وعادة عندما يُسأل بيتر عما اقترفه الموظف سيكون شيئاً سخيفاً لا يستحق، ولكن بيتر يستخدم أسلوب لفت النظر إلى أصغر الأمور حتى تصبح الأخطاء الكبيرة كارثية ومستحيلة الحدوث.

يمتلك بيتر جسد ضخم ولكنه رياضي، ذا شعر أشقر وعينان زرقاوان، أجنبي مثل ما يقول الكتاب، يستيقظ مع الفجر للجري على البحر، ثم يذهب إلى الجيم. تساءل الكثير من العاملين عن سبب استخدام الفندق لمدير أمن أجنبي، إذ عادة يشغل هذه المناصب مصريين يكونون على دراية بالمنطقة والأخطار المحيطة بها، ولكن مستر آدم يثق به تماماً، وكان هذا كافياً لأن لايتحدث أي شخص عن هذه النقطة مرة أخرى.

وصل يوسف إلى البار ووجد صديقيه منغميسن في مناقشة حادة، عندما دخل توقفوا عن النقاش. لم يسألهم عما كانوا يتحدثون عنه، فهو يعلم أنهم يتعاركون كثيراً، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالسياسة. بدأ عاطف بتوزيع أوراق الكوتشينة، أمسك يوسف بالورق وشعر بعدم رغبته في اللعب، نظر إلى صديقيه وقال بصوت خافت يبدو عليه الضيق:

«لا أستطيع التحمل أكثر من هذا، عام مضى وأنا وداليدا لا نتحدث، ظننت أنني سأنسى، وظننت أنها ستجد شاباً آخر تخرج برفقته، ولكنني لم أنسها وهي لم تلتفت إلى أي من الأشخاص الذين يطلبون ودها، وكأنها تصعب الأمور علي»

أجابه نادر على الفور:

«عليك إذن أن تأخذ قرارك، إما أن تتوقف عن ملاحقتها سراً كطلاب المدارس.. أو أن تذهب وتتحدث معها عما حدث وتحاول إعادة المياه إلى مجاريها، هي تحبك أنت تعلم هذا جيداً. أتفق معك أنها أخطأت، ولكن جزء من هذا الخطأ يقع عليك»

أربعة عشر شهراً مضت على الليلة التي كانت بداية الشرخ، بعض الناس يقولون أنه إذا حدث شرخاً في العلاقة فهو موجود منذ البداية.. وسيظهر عاجلاً أم آجلاً تحت وطأة ضغوط الحياة الكثيرة. ولكنه غير مقتنع، كانت تربطهم علاقة رائعة، اعتاد أن ينظر إليها ويفكر فيها كجزء ثابت من تكوينه غير قابل للتغيير.. كأحد أجزاء جسده، وأن الفراق لن يكون إلا مع الموت. ولكن تم التلاعب بهم.. وقام شخص ما بإستخدام قلة خبرتهم في الحياة للحصول على ما يريد.

في أحد الأيام الربيعية من شهر إبريل، جاءت داليدا وجلست بجانب يوسف. اشتم رائحتها العطرة، فالبرفان إيطالية الصنع هي الزينة الوحيدة التي تصر داليدا على وضعها. قالت له بنبرة هادئة لتعلمه ما حدث معها:

«اليوم صباحاً، وجدت هدية على باب غرفتي، فتحتها فوجدت سواراً ذهبياً يبدو ثميناً، وبجانبه ورقة تقول أن الهدية من جاك، فقط دون أي تعريف بالمدعو جاك. ذهبت إلى مكتب الإستقبال في الفندق وسألتهم عنه، أخبروني أنه مليونير أوروبي جاء اليوم صباحاً، وطلب من خدمة الغرف أن يضعوا هذه الهدية أمام غرفتي، فتركت لهم الهدية وطلبت منهم أن يخبروه ألا يزعجني مرة أخرى»

ابتسم يوسف يومها من قلبه، كان يصدقها، وقد كانت صادقة تماماً فيما قالته. تكرر الموقف بضع مرات، وفي كل مرة تكرر داليدا نفس السيناريو وترفض الهدية من دون أي تفكير. إلى أن تمت دعوتها إلى حفل رأس السنة، من خلال مستر آدم مدير الفندق وليس جاك، فقامت بتلبية الدعوة. بعد انتهاء الحفل، انتظرها يوسف بعد منتصف الليل في البار، وعندما جاءت ورآها.. كان الشرخ الأول في علاقتهم، كانت ترتدي معطفاً من الفرو، وتحته فستان أسود قصير، وحذاء ذهبي ذو كعب عالٍ، شعرها تم تصفيفه كما لو كان يوم عرسها، ووجهها أضحى شيئاً آخر.. تم تزيينه بمكياج فأصبح صارخ الجمال والجاذبية، شفاه حمراء ورموش صناعية وظلال فوق العينين وبشرة بلون الهافان.. كانت فتاة أخرى غير التي يعرفها ويحبها.

لأول مرة يتلعثم وهو يتحدث معها، سألها عن هذه الملابس التي يراها للمرة الأولى عليها، أخبرته أن مستر آدم طلب منها ارتدائها، مرفقاً مع الملابس خبيرة تجميل لتضع لها المكياج.

لم يتطرقوا إلى الموضوع مرة أخرى، ولكن يوسف بدأ يصبح عصبي شديد الإنفعال عند أي موضوع، شعر بعدم الأمان، وبأنه لن يستطيع أن يبتاع مثل هذه الملابس للفتاة التي يحبها، وأنه من غير المنطقي أن يدعوها مستر آدم إلى الحفل.. هذا عامها الرابع في الفندق ولم يتم دعوتها من قبل، ما الذي جد. أصبح يطلب منها ألا ترتدي ملابس قصيرة أو ضيقة بعد الآن.. وكان هذا الأمر مستحيلاً نظراً لعملها على المسبح والبحر طوال اليوم، وأخذ يسأل نفسه هل ستكون سعيدة معه..

وما الذي يمتلكه حتى يقدمه لها، فزادت المشاجرات بينهم وأصبح كلاً منهم يعتقد أن الآخر تغير ولم يعد يحبه كالسابق. وفي أحد الأيام، وبعد مشاجرة طويلة استمرت أكثر من ساعة، أخبرها يوسف أن هذه العلاقة غير مفيدة لكليهما.. ويجب عليهم الإنفصال. كانت المفاجأة بالنسبة إليه هي ردة فعلها، فقد توقع أن تتضرع إليه ألا يتركها، ولكن بعد أن أنهى كلامه.. تركته وانصرفت، وقالت آخر كلمات سمعها من شفتيها الصغيرتين:

«لن أجبرك على شيء.. ولن أكون مع من لا يريدني»

لا يتذكر يوسف ما حدث بعد هذا اللقاء، المشاهد تتداخل في ذاكرته، ربما هي ألاعيب الذاكرة حتى تخفف من وطأة الأيام الصعبة على العقل، كل ما يعرفه أنها كانت آخر أيامه مع من أحب. بعدها ببضعة أيام.. علم أن داليدا ستتزوج من جاك، المليونير الأوروبي. لا داعي لذكر الذهول والصدمة والندبة الغير قابلة للإزالة في روحه، أصبح يحيا كمسخٍ يمشي على قدمين وينتظر الموت للهروب من هذا العالم القاسي. رغم أنها وجاك انفصلوا بعد فترة.. إلا أن ما تحطم وتناثرت أجزاؤه أصبح غير قابل لإعادة التركيب.

«أوركا.. أوركاا.. كفى شروداً، دورك في اللعب»

أعاده صوت عاطف إلى الواقع. وفي لحظة من التنوير والتجلي، أخذ يوسف قراره.

«لابد أن أتحدث معها، لا يهمني إذا تركتني وتزوجت أو حتى

أقامت علاقة مع جميع الرجال على وجه الأرض، عاماً كاملاً وكل ما يحدث داخل عقلي هو ترسيخ لذكرياتنا معاً»

أجابه نادر محفزاً:

«هذا هو الأوركا الذي نعرفه، سيكون أفضل قرار اتخذته، لن تندم، نادرة هي الأشياء التي تستحق التضحية والنضال من أجلها، والحب أحدها»

نادر.. السياسي والمعارض والمناضل السابق، عرف جسده السحل على الأسفلت واستنشقت رئتاه أكوام من الغاز المسيل للدموع وتم حفظ اسمه في كشوفات المعتقلين السياسيين. منذ أن بدأ العمل السياسي في ٢٠٠٥ حتى عام مضى.. كان يؤمن بحلمه ويدافع عنه بشراسة، وعلى استعداد لبذل كل ما يملك حتى يراه وقد أضحى واقعاً أمامه. ولكن حجم الإخفاقات والإحباطات التي وجب التعامل معها كان أكبر من أن يستوعبه عقله الشاب، منذ أيام الجامعة وحتى بعد أن تخرج وعمل مدرساً.. كانت المظاهرات وأحزاب المعارضة والإحتجاجات هي شغله الشاغل، لم يتزوج ولم يلتفت إلى احتياجاته العاطفية، سيطر هدف إصلاح الوطن على كل حواسه ولم يترك مكاناً لشيءٍ آخر.

ولكن بعد أن عاد كل شيء إلى نقطة الصفر..فتم الإفراج عن جميع رموز النظام السابق واستبدالهم برموز الثورة.. ولم يخرج الشعب ولم يعترض أحد.. ووجد من يصفق ويهلل لهذا الظلم البين، شعر أنه يحرث البحر، سيعترض ويصرخ ويضرب رأسه في دروع

الأمن المركزي حتى تسيل الدماء على جبهته.. وسيتم اتهامه بالعمالة الخارجية ورغبة غير معروف سببها في هدم الوطن، ستتمزق أحباله الصوتية من الصراخ لأجل الحرية وسيجد أن أول من يحاول إخراسه هم من يهتف لأجلهم، سيزداد الفقير فقراً والمريض مرضاً وستتوسع العشوائيات الغير آدمية، وفي الجانب الآخر سيزداد أعضاء الحزب الوطني السابقين وأبواق النظام من إعلاميين وصحافيين ورجال أعمالو منتفعين ثراءً ورفاهية. بعد ترك كل شيء خلفه.. ندم على أمر وحيد، خلو حياته من حبيبة يضع رأسه بين ذراعيها وينام. لذلك كان يحاول بكل الطرق الإصلاح بين يوسف وداليدا، فاقد الشيء هو أكثر من يعرف أهميته.

ترك يوسف أوراق الكوتشينة واتجه مباشرة إلى غرفة داليدا، منذ أن تركها جاك وهي لا تغادر غرفتها في غير ساعات العمل إلا نادراً. الساعة الثانية بعد منتصف الليل ولكنه يعلم أنها ستكون مستيقظة. حسم أمره وطرق الباب، بعد حوالي نصف دقيقة سمع وقع أقدامها، فتحت له وهي ترتدي قميص نوم يتخطى ركبتيها بقليل، وفي أقل من ثانية بدأت البكاء وجلست على الأرض. جلس بجانبها، ولم يقوى على وضع ذراعيه حول كتفها ويمسح دموعها مثل ما كان يفعل في الماضي، انتظر إلى أن انتهت من بكائها الصامت، ثم قال لها:

«أنا على استعداد لمسامحتك»

نظرت إليه في دهشة، وأجابت:

«مسامحتي؟ تركتني أتزوج هذا العجوز الذي دمر حياتي، كنت

حبيبي ورجلي ووجب عليك منعي والتمسك بي، ولكنك أصبحت غريباً في جميع تصرفاتك وأيقنت أنك لم تعد تحبني كالسابق، وللتأكيد على ما شعرت به أخبرتني أنك تريد إنهاء علاقتنا، من الذي يسامح من؟»

شعر يوسف بدمائه تشتعل داخل جسده، قال بصوت قريب من الصراخ:

«إذا أردتِ عيش دور الضحية فلكِ هذا، ولكن ستعيشينها وحدك»

ثم انصرف وهو يسمع صوت بكائها يعلوا من جديد. ذهب إلى غرفته ويديه ترجف من الغضب، حاول أن يقرأ حتى ينسى ما يحيط به.. ولكن حتى القراءة لم تفلح. ظل يتقلب على سريره لأكثر من ساعتين، إلى أن استطاع النوم.

عندما استيقظ في الصباح، أدرك ما عليه فعله تحديداً، وكأن هناك وحياً نزل عليه في نومه وأخبره بالطريق الوحيد المؤدي لسعادته، سيذهب إلى داليدا، ويقبل قدميها حتى تسامحه، لن يفكر في أي شيء آخر، وسيوافقها على كل ما تقوله، فسعادته مرتبطة بهذه الفتاة، ومن دونها هو تعيس مهما فعل. في الحب.. جميع الأطراف مظلومة، وكل شيء مباح وله تفسير مهما بدا غريباً وبعيداً عن المنطق، فقط لأنه الحب وليس شيئاً آخر.

ذهب إلى غرفتها فلم يجدها، سأل إحدى زميلاتها في الفندق فأخبرته أنها لم ترها اليوم. أكمل روتين يومه التقليدي وذهب إلى شركته، أنهى الرحلتين وأخذ حجوزات اليوم التالي وهو ينتظر بفارغ الصبر أن

ينتهي اليوم حتى يذهب إلى فتاته التونسية القصيرة.. ويجعلها حبيبته مرة أخرى. بعد أن أغلق مقر الشركة اتجه إلى المسبح، لديها اليوم مباراة كرة ماء، لم يجدها ولم يجد أي أثر للمباراة. اتجه إلى الفندق، وجد إحدى صديقاتها تتحدث مع بيتر مدير الأمن، من دون أن يلقي عليها أي تحية سألها:

«أين داليدا؟»

في حزن قالت له:

«اختفت»

«ماذا تعنين بإختفت؟؟»

«اختفت تعني اختفت، منذ الصباح ولم يشاهدها أحد، لم تحضر إلى العمل.. فذهبنا إلى غرفتها ولم نجدها، قمنا بالبحث في كل مكان بالفندق ولم نعثر لها على أي أثر، جميع مقتنياتها الشخصية في غرفتها لم تمس.. المحمول وحافظة النقود والملابس، حتى جواز سفرها وبطاقة الفندق في أماكنهم بغرفتها، لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يكون قد حدث لها»

الفصل الرابع

داليدا، العلمين

(مذكرات كتبتها داليدا عقب الفترة التي انتهت فيها علاقتها مع يوسف، وجدها ضابط الشرطة المسئول عن قضية اختفائها. لا يعلم يوسف بوجودها ولن يقرأها)

لم أحاول أن أكتب مذكراتي ولم تخطر لي الفكرة من قبل، ولكن ما حدث لم يكن شيئاً هيناً، إذا أقسم العالم أجمع أن علاقتي مع يوسف لن تكلل بالزواج سوف أضحك من قلبي على سذاجتهم، حقاً لا أعرف ما الذي حدث، ظننت أن مشاعري ملكي. كل ما يمكنني عمله الآن هو الكتابة، لأنه بعد فقدان يوسف.. لم يعد من هو قريب من حياتي بالقدر الكافي لأحكي له هذه الأشياء.

بدأ الأمر بوصول أحد الأثرياء الأوروبيين، يدعى جاك، طويل ذو شعر أصفر قصير ووجه حليق، في أواخر الأربعينات، ملابسه أنيقة

تنطق بالبذخ، وكل ما يحيطه من رعاية واهتمام من العاملين بالفندق وعلى رأسهم مستر آدم شخصياً يعطونه جاذبية خاصة، وكأنه أحد نجوم السينما المعروفين. كجميع من في الفندق لفت انتباهي وصوله، مثل أن تشاهد ممثل شهير في أحد المطاعم، سيلفت انتباهك وتنظر إليه، ثم تنساه بعد دقائق. وهذا ما حدث معي، راقبت وصوله والإستقبال الحافل الذي حظي به، ثم نسيته تماماً.

إلى أن تلقيت هدية مرفقة برسالة تدعوني إلى العشاء برفقته، ومن دون تفكير رددتها إليه. لم تكن الأخيرة، توالت الهدايا وزادت قيمتها، لم أفكر حتى في الإحتفاظ بأحدها ورددتها جميعاً.

في يوم حفلة رأس السنة، دعاني مستر آدم إلى مكتبه، وطلب مني حضور الحفل، اندهشت لأنها المرة الأولى منذ أربع سنوات التي أدعى فيها لأي مناسبة في هذا الفندق، وأخبرني أنه سيرسل ملابس تليق بهذه الليلة إلى غرفتي حتى أرتديها، مرفقاً معها خبيرة ماكياج حتى تعدني لهذه المناسبة، سألته لم كل هذا، أخبرني أن الحضور هذا العام قليل ويريد ملء المكان، حتى لا يشعر الضيوف أنه فارغ. بغير اقتناع وافقته، وانتظرت في غرفتي أن يحين موعد الحفل.

بعد أن ارتديت الفستان والحذاء الذهبي وأنهت خبيرة الماكياج عملها، شعرت أنني فتاة أخرى، أكثر جمالاً وثقة، وضعت المعطف فوق كتفي وذهبت. في الطريق من الغرفة إلى مكان الحفل تعزز لدي هذا الشعور، جميع من مررت بهم أصبحوا يوجهون أنظارهم نحوي، بعد أن كانت الأجنبيات ذوات الشعر الأشقر هن الوحيدات اللواتي

تحصلن على الإهتمام، فجأة أصبحت لا أختلف عنهن، أصابني هذا الشعور بحلاوة في روحي لم أشعر بها من قبل.

وصلت إلى قاعة الإحتفال وخلعت معطفي الثقيل، لم أعرف أين أتجه وشعرت بالإرتباك، إلى أن جاء مستر آدم وبحركة مسرحية أمسك كفي وقام بتقبيله، غالباً كان ثملاً. دعاني إلى طاولته وقدمني إلى جميع الجالسين. كل الرجال على الطاولة قاموا بالإطراء على ملابسي وجمالي الشرق أوسطي كما قالوا، إلا واحداً، جاك، اكتفى بإبتسامة غير متكلفة وكأننا أصدقاء قدماء.

غالباً كانت نظرات الدهشة تطل من عيني طوال الحفلة، لأن مستر آدم طلب مني ألا أتصرف بمثل هذه التلقائية. ولكن الأمر كان صعباً، لأول مرة أشعر أن هناك من يعيش بمثل هذا البذخ، وكأنه عالم آخر لا نعلم عنه شيئاً، الطعام كان أكواماً، عشرات من أطباق الكافيار والجمبري والأسماك بأنواعها، طاولات الخمور احتوت على عشرات إن لم يكن مئات الزجاجات، هناك خادم يرتدي التكسيدو يقف بجانب كل طاولة في انتظار أي طلب من الضيوف، مجوهرات النساء تنافس وجوههن في البريق، ساعات الرجال رولكس وأوميجا ورومان جيروم وأنواع لم أسمع بها من قبل، أخبرني رجل كان يجلس بجانبي قبل أن يغادر ويرقص مع إحدى الفتيات.. أن ساعته تحتوي على ذرات رمل من القمر. كل هذا أصابني بالدوار.. جعلني أشعر بمدى فقري، وأنني أعيش على هامش هذه الدنيا، في حين أن هناك من يلهوا ويستمتع ويقوم بإمتصاص رحيق الحياة حتى النخاع.

مع انتهاء الحفل وقبل أنا أغادر، قابلت جاك، ابتسم وقال بصوت هادىء: «الجميع يتغزلون في جمالك وملابسك هذه الليلة، ولكنني الوحيد الذي رءاكِ من دون كل هذه البهرجة»

لم ينتظر مني إجابة وانصرف على الفور. زادت كلماته من ارتباكي، كرهته في هذه اللحظة بعد أن كنت حيادية بشأنه، وكأنه يقصد أن يشير إلى خسارتي بعدم قبول دعواته للعشاء. علمت فيما بعد أن الحب مشاعر والكره أيضاً مشاعر، ويمكن التنقل بينهم، أما الحيادية فهي عدم الإهتمام، يجب أن تحب أحدهم أو تكرهه حتى يدخل دائرة اهتمامك.

غادرت الحفل وتوجهت إلى البار لملاقاة يوسف، هو الوحيد الذي أتمنى أن أراه وأجلس معه حتى يهدىء من توتري، سأحكي له كل ما يعتمل بداخلي، وسوف يضع ذراعه حول كتفي ويربت على شعري ويمسح دموعي كما اعتاد دائماً. ولكن بمجرد أن دخلت إلى البار وشاهدت يوسف.. شعرت أن شيئاً قد تغير في علاقتنا، نظر إلي كأنه ينظر إلى فتاة ترعبه وليس فتاة يحبها، لا أعلم ما الذي حدث، لماذا يمكن أن تؤثر فيه ملابسي أو مكياجي؟

أمضينا السهرة وأنا أشعر بالتوتر بيننا يتفاقم، وكأن هناك سراً يعرفه ولا يريد البوح به.

بعد هذا اليوم أصبح يوسف غريباً عني، بعد أن كان ملاذي الذي أحكي له كل شيء من دون تفكير.. أصبح مثل الرجل الشرقي يسألني أين ذهبت ولماذا تأخرت، وزادت الأمور سوءاً عندما طلب

مني ألا أرتدي ملابس قصيرة بعد اليوم، أخبرته أن هذا مستحيل لأنني أعمل على المسبح والبحر طوال الوقت، ولكنه طلب مني أن أتصرف.

شعرت بأنني حزينة منذ ليلة رأس السنة، وحبي ليوسف أضحى مصدراً للتعاسة.. لي وله على حد السواء، حاولت أن أحدثه فيما غيره هذه الليلة.. ولكن عصبيته كانت تشتد عند فتح هذا الموضوع، فآثرت السكوت. وبعد أن تعاركنا في إحدى الليالي، ودمعت عيناي من كثرة الصراخ والدفاع عن نفسي، أخبرني أنه لا يستطيع الإستمرار في هذه العلاقة، شعرت بالإرتياح، فكلانا يحتاج إلى فترة نقاهة حتى تهدأ نفوسنا ونبدأ من جديد.

ولكن لم تترك لي الحياة أي فرصة للنقاهة. ثلاثة أيام مرت على انفصالي أنا ويوسف، ووجدت دعوة بدون هدية من جاك، المليونير الأوروبي الذي كرهته يوم حفلة رأس السنة. كانت كلماته رقيقة ويتخللها لهجة رجاء، يقول أنني يجب أن أتعرف عليه أولاً قبل التمسك بأحكام مسبقة، وأنه ليس كما يبدو لمعظم الناس. قبلت الدعوة، كان قراراً غبياً، جعل الكثير من العاملين في الفندق أو بمعنى أفضل العاملات.. يتهامسن من وراء ظهري بأنني عاهرة قمت بترك يوسف لأجل هذا الرجل الثري، لم يكن الأمر هكذا، كنت مكتئبة بعد الإنفصال، وأردت أي شيء أو أي حدث يخرجني من هذا الإكتئاب. عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، يمكنني رؤية كيف تم التلاعب بنا، ولكن وقتها عندما كنت في خضم الأحداث، لم أستطع النظر إلى الصورة الكبيرة كما أنظر إليها الآن.

ارتديت ملابسي العادية وذهبت إلى العشاء في موعدي، جينز فاتح اللون وبلوزة بيضاء فوقهم جاكت أسود. لم أرد أن أتظاهر بأنني شخص آخر أو أنني أغنى مما أنا عليه، أنا مجرد موظفة أنيميشن في فندق، وراتبي لا يزيد عن سعر محمول جديد متوسط الثمن.

تفاجأت عندما رأيت ملابسه، لازالت أنيقة ولكنها أبسط بكثير مما تخيلت، قميص أبيض على شورت كحلي وحذاء من دون جوارب، اقترب عمره من الخمسين إلا أن جسده رياضي صلب. حياني بإبتسامة دافئة، وأخبرني أنني أجمل بكثير من يوم الحفل، قال: «اليوم أنتِ جميلة، أما يوم الحفل فكنتِ اصطناعية كجميع النساء المحيطين بي»

تم كسر الجليد بيننا في هذه الجلسة، أسعدني رأيه حول الجمال الطبيعي والإصطناعي، ورأيت في عينيه الكثير من الإهتمام. تحدثنا عن كل شيء، كان شديد التركيز في كل ما أقوله، وفي نهاية العشاء، تواعدنا على اللقاء في الغد.

ظللنا نلتقي كل يوم لمدة خمسة أيام، وفي اليوم السادس، انحنى على ركبته وفتح علبة تحتوي على خاتم من الماس، وأخرج من جيبه وثيقة تثبت أنه أعلن إسلامه، دمعت عيناي وقبلت الزواج منه على الفور.

في هذه الليلة وأنا على السرير، أحلم بالفستان الأبيض ونمط حياة الأغنياء والمشاهير، شعرت بوخز في قلبي، يوسف.. رجلي كما أحب أن أناديه دائماً، كيف سيشعر، هل سيتألم؟ هل لا زال يحبني؟

أقنعت نفسي وقتها أن مشاعره تغيرت نحوي، وأن ما أفعله هو أفضل لكلينا. في خلال هذه الأيام لم أره أو ألقاه في الفندق تماماً؛ فعند الضغوط النفسية التي لا يوجد لها حلول مباشرة.. يقوم بالتقوقع على نفسه والإنعزال، كما حكى لي حكايته مع عائلته من قبل.

لم تأخذ ترتيبات الزواج أي وقت، كل شيء تم على وجه السرعة وكأننا مقيدين بميعاد لا يجب أن نتخطاه. عندما أعود بالذاكرة وأحاول أن أتذكر هذه الأيام.. أفاجأ أنني لا أتذكر أي شيء، لا يوجد عندي أدنى فكرة عما حدث ولا كيف كنت أشعر، كنت كالمخدرة، في يوم وليلة أضحيت عروساً تقف أمام المرآة بجانب مصممة أزياء حتى تأخذ مقاساتها.

أقمنا العرس في قاعة الفندق الخاصة بالحفلات، حضر جميع أصدقائي رغم أنني أعلم مدى بشاعة الكلام الذي يتفوهون به من خلف ظهري، ولكنني التمست لهن العذر، فقد جاء فارس الأحلام الوسيم على حصانه الأبيض واختارني. أمضينا شهر العسل في الفندق، وفي خلال هذا الوقت أيضاً لم ألمح يوسف تماماً، وكأنه اختفى. لم يكن شهراً بالتحديد، ففي أول أسبوعين كان جاك لا يفارقني، كنا نمارس الحب بضع مرات في اليوم، وفي الأسبوع الثالث.. ابتعد عني وكأنني أصبت بمرض، سألته مراراً عما جد، ولكنه أخبرني ألا أقلق، هناك مشكلة صغيرة حدثت في إحدى شركاته، وعدني أن ينهي المشكلة ثم نسافر للعيش في قصره بألمانيا.

بعد مرور أربعة أيام من الأسبوع الثالث كدت أجن، كان يغادر الفندق من أول اليوم ويعود في آخره. وددت مضايقته، فكنت أحتفظ بتعابير غاضبة أستقبله بها عند عودته في المساء.. أقلب وجهي كما يقولون، ولكنه لم يهتم، شعرت أنه لم يعد يراني، يدخل إلى الغرفة.. يقوم بتغيير ملابسه وينام، حتى العشاء أصبحت أتناوله وحدي. لم أجد ما يمكن أن أفعله، بحثت في أغراضه، لم أجد شيئاً مثيراً للإهتمام أو شيئاً بإمكانه أن يثير جنونه، كانت هناك خزينة في غرفتنا، حاولت فتحها ولكن لم أستطع تخمين الرقم، فإتصلت بخدمة الغرف، جاء شاب صغير يبدو حديث التخرج، أخبرته أنني أضعت الرقم السري، وأريد فتح الخزينة وإعادة ضبط الرقم، غادر لعشر دقائق وعاد برفقة شاب آخر أكبر سناً، أمضى ثلاثة دقائق مع الخزينة ثم سمعت الصوت المعدني الرنان وهي تفتح، أعطيت كلاً منهم مائة دولار وطلبت منهم ألا يخبروا أحداً، نظروا إلى النقود بسعادة من حاز الدنيا وما فيها.. وبحماسة أقسموا ألا يتفوهوا بحرف، علماً بأنني أحد القاطنين في الغرفة ومن حقي أن أطلب مثل هذا الطلب.

في الخزينة لم أجد غير كتاب شديد القدم أوراقه مهترئة، لم يكن يحتوي حتى على غلاف خارجي، تبدأ الصفحة الأولى بعنوان الكتاب ثم فهرس بعناوين الفصول، لم أفهم أهمية هذا الكتاب بالنسبة إلى زوجي، ولكنه الشيء الوحيد الذي وضعه في الخزينة، إذن فهو يحمل أهمية خاصة له.

أخفيت الكتاب، ولأنني أمتلك الكثير من وقت الفراغ.. قمت

بإلغاء تسجيل هذا اليوم من الكاميرا، وقمت بتكرار تسجيل يوم آخر، جميع أيامي تشابهت في هذا الأسبوع فليس هناك فارقاً. أجل، يضع زوجي كاميرا للمراقبة في غرفتنا بالفندق، لمحته وهو يضعها، تضايقت كثيراً وعلمت أنه لا يثق بي.. ربما يظنني سأعود لعلاقتي القديمة مع يوسف ويريد أن يتأكد من إخلاصي. كان اللعب بسجلات التسجيل في كاميرا المراقبة شديد السهولة بالنسبة إلي، فقد نشأت مع أب لديه هوس بكل ما هو جديد في التكنولوجيا، وفي آخر أيامه قام بإفتتاح متجر للإلكترونيات.

مضى يومان آخران من الأسبوع، لم يتغير زوجي ولم يلتفت إلي، لم يقم حتى بفتح الخزينة ويفاجأ بخلوها. وفي اليوم الأخير..أسفت وشعرت بالندم على كل الظنون التي انتابتني حياله وعلى رغبتي في مضايقته، فبعد عودتنا من تناول العشاء في مطعم الفندق، وجدت الغرفة وقد تحولت إلى عشٍ للحب كما يقولون في الأفلام الأجنبية، بضعة شموع تناثرت في أنحاء مختلفة من الغرفة، زهور حمراء تم وضعها بطريقة عشوائية على ملائة السرير البيضاء، وزجاجة من الواين الأحمر على الكومود، لا أشرب الخمر ولكن جاك كان يعشقها، أخبرته أنه غير مسموح بها في الإسلام، ووعدني أنه سيتوقف عنها قريباً. وقفت أتأمل الغرفة وأنا على وشك البكاء من الفرحة، احتضنني من الخلف، وقال أن الليلة ستكون مميزة، طلبت منه أن يغادر حتى أقوم بتغيير ملابسي وارتداء شيئاً لائقاً. عقدت العزم وقتها على ألا أخبره بأمر الخزينة والكتاب، وأن أعيده إلى مكانه غداً من دون علمه حتى لا يغضب.

قمت بإرتداء أفضل ما لدي، حاولت إبراز جميع مفاتني حتى أعجبه مثل السابق، وضعت بعض المكياج على وجنتي ورششت بعضاً من عطري الإيطالي المفضل على رقبتي، ثم طرقت على الباب حتى يدخل. دخل وعلى وجهه ابتسامة كبيرة، وكانت ليلة طويلة لم يتركني خلالها لحظة واحدة، ظللنا مستيقظين حتى الفجر، إلى أن غلبنا النعاس.

استيقظت في حوالي العاشرة، لم أجده بجانبي، عندما أعدت النظر إلى الغرفة لاحظت أنها خالية، جميع حقائبه وكل ما يخصه اختفى، كل ما تبقى هو حقيبتي وملابسي، ذهبت إلى دورة المياه فوجدتها فارغة. ارتديت ملابسي على عجل وذهبت إلى إدارة الفندق، سألتهم عن زوجي، فأخبروني أنه سافر، رغم أنني أعلم أن معلومات الفندق لا يمكن أن تكون خاطئة إلا أنني لم أصدقهم، سألتهم أين سافر ومتى، أخبروني أن طائرته أقلعت في التاسعة صباحاً، وقد قامت الليموزين الخاصة بالفندق بتوصيله إلى المطار. ذهلت، وركضت إلى مكتب مستر آدم، طرقت الباب في توتر، سمح لي بالدخول، لم أنتظر حتى أجلس وسألته بصوت مرتفع من شدة الإنفعال:

«أين زوجي؟؟»

بإبتسامة متعاطفة تحتوي على قدر كبير من الشفقة طلب مني الجلوس، وعن طريق الهاتف سأل أحدهم أن يحضر كوب من عصير الليمون. بصوته الحنون أطلق سهامه نحوي:

«زوجك سافر إلى بلده، ولم يعد زوجك بعد الآن، ستصلك ورقة الطلاق خلال أسبوع»

ألجمت المفاجأة لساني، قلت بصوت مختنق:

«أريد أن أتحدث إليه»

ارتسمت ابتسامة الأب المشفق على سذاجة أحد أبنائه وقال:

«أعلم أن الصدمة أحياناً تكون كبيرة، جاك سافر وليس هناك أي وسيلة للإتصال به، أخبرني أن أعطيك هذا الشيك، سأمهلك يومان حتى تغادري غرفتك، وإذا أردت العودة إلى عملك السابق سيكون بإنتظارك»

كانت الصدمة التي مررت بها أكبر من أن تفقدني الوعي، كنت كمن تم إخباره بإنتهاء العالم.. فألجمت المفاجأة جميع حواسه ولم يستوعب ما سمعه. أعطاني الشيك.. ذو المبلغ الأقل من تافه، خمسة آلاف دولار، بعض بائعات الهوى المحترفات يتقاضين مبلغاً مشابهاً. غادرت مكتبه وأنا أرى سواداً يتكوم أمام عيني، ظل السواد يتكاثر إلى أن رأيته، يوسف، وكأنه يعلم تماماً متى يجب عليه أن يظهر، وقتها ازداد السواد إلى أن فقدت الوعي.

نقلوني إلى عيادة الفندق، أمضيت باقي اليوم هناك ثم خرجت عند حلول الليل، لا أعلم لماذا أول من خطر على بالي فور استيقاظي كان يوسف، عاد لي الشوق إليه بقوة، وكأن ما حدث خلال الأيام الماضية كان حلماً مزعجاً وقد استيقظت منه وعدت إلى وعيي، رجع بي الزمن إلى الفتاة التي أحبت شاباً بني العشر ذا وجه ملائكي، ولم تهتم بأي شيء آخر غيره.

أيامي منذ هذا الوقت حتى لحظة كتابة هذه الحروف واحدة، أستيقظ صباحاً فأتكوم على نفسي في منتصف السرير وأبكي حتى تؤلمني عيناي، لا أبكي ليلاً قبل النوم كمعظم الفتيات، فوقت النوم بالنسبة لي هو الدخول إلى الجنة.. البعد عن واقعي والعيش في عالم اللاوعي الخالي من الحياة وكل عذاباتها.

كنت أرى يوسف يومياً، ألمحه بطرف عيني وهو يجلس في شرفة مبنى النادي الإجتماعي، يشاهدني وأنا أقوم بتمارين ترفيهية للسائحين.. ثم يغادر. أكثر من ثلاثة أشهر مرت، لم يحاول أحد منا أن يتحدث مع الآخر، لا أعلم هل هي الكرامة، أم لأن ما تم تحطيمه أصبح غير قابل للتجميع وأصبحت قطعه متناثرة في أماكن غير معلومة.

كرهت نفسي وكرهت يوسف، وددت أن أنقض عليه فأغمره بالقبلات وفي نفس الوقت أضع أصابعي حول عنقه فأخنقه حتى الموت. كنت مغفلة وقمت بالتنازل عن حب حقيقي من النادر العثور عليه، ولم يقم هو بالمحاربة والدفاع عن هذا الحب، كلانا أخطأ في حق الآخر وفي حق نفسه، الجميع سيعتقد أنه خطئي وحدي، ولكن كيف لي أن أعرف ماذا أريد أو ما هو أفضل بالنسبة إلي؟ هل يعرف أحد منا المستقبل؟ هل كنت أعرف أنه سيتم التلاعب بي بهذه الطريقة؟ لماذا لم يمنعني يوسف وهو أقرب الناس إلى قلبي؟ هل كنت سأمتنع إن عارض الزواج وأعود إلى أحضانه؟ في أكثر خيالاتي جموحاً وسواداً.. هل كان يمكن لي التوقع أن ينتهي بي المطاف كعاهرة؟

مع الحياة نكتسب الخبرة، ولكن الثمن الذي ندفعه باهظاً، وأحياناً تكون الخبرة التي اكتسبناها بلا قيمة..لأن ما أردناه قد أصبح من الماضي.. وغير قابل لأن نمتلكه مرة أخرى.

الفصل الخامس

زينة، القاهرة

ستة أشهر مضت على استيقاظ زينة، استعادت خلالها معظم وظائفها الحيوية، أصبحت تأكل وحدها وتستخدم دورة المياه من دون مساعدة، ثم بدأت القيام بتمارين العلاج الطبيعي حتى تعود عضلاتها الضامرة إلى وضعها الأول.

في خلال هذه الفترة، أربعة نساء تعاقبن على خدمتها بجانب الممرضة المقيمة، والدتها وأخواتها الإثنين وصديقة عمرها سابقاً شيرين. وبعد أن قالت لوالدتها أن زوجها قد قتل ولم يمت في الحادث.. أصبحوا يتعاملون معها كما يتم التعامل مع عجوز بدأ يفقد عقله، أخبرهم طبيبها المعالج أن الغيبوبة قد تؤثر على العقل، والأضرار التي أصابته ستظهر تباعاً مع الوقت، فكانوا يتجنبون الحديث عن أي شيء يتضمن زوجها السابق، وإذا حاولت فتح الموضوع أو الحديث عنه يقومون بتغيير دفة الحوار والتطرق لشيء آخر.

الوحيدة التي لم تستطع الإلتزام بما اتفقوا عليه كانت شيرين، فكلما بدأت زينة تتحدث عن زواجها ووائل وعلاقتهم.. لم تكن تقوى على إسكاتها أو تغيير الموضوع. كانت تشعر بألمها، فهي التي شهدت قصتهم منذ البداية.. إلى أن تقدم وائل لخطبتها وصولاً للزواج.

وقعت زينة في حبه عندما شاهدته لأول مرة في عرس صديق مشترك، كان الشاب الوحيد الذي لم يغادر طاولته للرقص، ظل جالساً وعلى وجهه ابتسامة من يشعر بالملل وينتظر انتهاء اليوم. كانت مثله، تكره الرقص في الأعراس، رغم أنها راقصة ماهرة، إلا أنها تشعر أن الغير متزوجات يرقصن في الأعراس للفت الإنتباه وليس لمتعتهم الشخصية، حركات وضحك مبالغ فيه وكأنهن يصطنعن الفرحة، لا تريد أن تكون مثلهم. كتبت في دفتر مذكراتها بعد عودتها من أحد الأعراس، أنها عندما تتزوج سترقص لزوجها وترتدي له أفضل الملابس كل يوم.. حتى تقوم بالتعويض عن كل الرقص الذي قامت بتفويته.

«لماذا لا ترقصين مع باقي الفتيات؟»

احمرت وجنتاها عندما وجه وائل سؤاله لها. أجابت في حرج:

«لا أحب الرقص»

ندمت بعد إجابتها، ودت لو تخبره أنها راقصة بارعة ولكنها لا تحب الرقص في الأعراس. قال لها في عفوية وصراحة فاجأتها:

«أنا أيضاً أكره الرقص، ولكن خسارة أنك تكرهينه، أنت أجمل من أن تظلي جالسة، أما أنا فلا أحد يريد رؤيتي أرقص»

ظلت زينة تحكي لشيرين عن ذكرياتها مع زوجها وكم تفتقده وتتمنى رؤيته، إلى أن بدأت الحديث عن مقتله، فقامت شيرين مضطرة بإخبارها أن تتوقف والتحدث في شيء آخر، سكتت زينة لبرهة ثم قالت في حزن:

«أخاف أن أنساه، أريد التحدث عنه لأن هذه الذكريات هي كل ما تبقى لي. استيقظت ووجدت كل شيء حولي قد تغير، هذا هو الشيء الوحيد الباقي كما هو»

كادت عينا شيرين أن تدمع، ولكن في نفس اللحظة دخلت والدة زينة، بلهجة قاطعة أخبرتهم أن الطعام جاهز، سينتهون من الغداء ثم تبدأ زينة في تمارين العلاج الطبيعي.

«كان وائل يحب الطبخ، هواية غريبة بالنسبة إلى رجل، خصوصاً في مصر، ولكن في الكثير من الدول الغربية يعتبر الطبخ شيئاً أساسياً، خصوصاً أن معظم الطهاه المحترفين من الرجال. قال لي وائل أنه عندما نتزوج سيطبخ لنا العشاء مرتين أسبوعياً، يوم الخميس وال..»

بحزم وبلهجة قاطعة غير قابلة للنقاش قاطعتها والدتها، قالت لها:

«يكفي التحدث عما ذهب بغير رجعة، الطعام جاهز، يجب أن تأكلي وتستعدي للتمرين، هذا هو كل ما يجب أن يأخذ من تفكيرك الآن»

الفصل السادس

يوسف، العلمين

يمر يوم آخر من دون أن تظهر داليدا، فتبدأ عملية بحث مكثفة في جميع أنحاء الفندق، ويتم سؤال جميع رجال الأمن إذا ما شاهدها أحدهم في خلال الثماني وأربعين ساعة الماضية. ذهبوا إلى بيتر مدير الأمن وطلبوا منه أن تتم مراجعة كاميرات المراقبة لتقفي أثرها، رفض وأخبرهم أن المفقود لا يعتبر ضائعاً إلا بعد مرور اثنان وسبعون ساعة على اختفائه، اعترضت صديقات داليدا ومعهم يوسف، وذهبوا إلى مستر آدم حتى يتوسط لهم عنده، وبالفعل رضخ الأجنبي صعب المراس، وأدخلهم معه إلى حجرة المراقبة.

آخر وقت تم فيه رصد داليدا كان الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل.. قبل صباح اليوم الأول لإختفائها، خرجت من غرفتها واتجهت إلى الدور الإداري القابع فوق مكتب الإستقبال، دخلت إلى إحدى غرف الإجتماعات.. حيث لا يوجد كاميرات هناك، مرت عشر دقائق ثم غادرت، اتجهت إلى مكتب الإستقبال،

ووقفت أمام الباب الرئيسي للفندق، ظلت منتظرة بضع دقائق، إلى أن جاءت سيارة بيضاء كبيرة من نوع اللاند كروزر ووقفت أمامها، فُتح الباب الخلفي، نظرت إلى السائق وبدا عليها التردد لبضع ثواني، تبادلت معه حديثاً مختصراً، ثم حسمت أمرها وركبت. حاولوا تدوين أرقام السيارة ولكنها لم تظهر بشكل واضح. بعد أن انتهى الفيديو المسجل قال يوسف:

• «هل يمكن أن نعيد التسجيل، يبدو أنها كانت تنتظر أحداً من داخل الفندق، ظلت تنظر إلى الباب وأشعر أنها فوجئت بالسيارة التي وقفت أمامها»

أجابه بيتر في برود:

«تشعر؟ كيف شعرت؟ سنبدأ عملية البحث عن داليدا إذا لم تظهر حتى الغد، لا تتدخل في عملنا، أرجو الإنصراف الآن»

متبرمين من طريقة حديثه انصرفوا. عادت كل واحدة منهن إلى عملها، وقام يوسف بمهاتفة نادر حتى يحكي له ما حدث. كان البار مزدحم بالرواد وعاطف يعمل بأقصى طاقته، فذهبوا للجلوس في غرفة يوسف. بعد أن دخلوا وجلسوا على السرير، قام يوسف بوضع بعض الماء ليغلي لعمل كوبين من الشاي، فقد اتفق مع نادر من قبل أن الشاي هو أعظم مشروب تم اختراعه، يحبون لونه الأحمر الغامق ومذاقه الطبيعي، يتبعون نصائح الكاتب السياسي الأشهر جورج أورويل عندما كتب بضع قواعد لشرب الشاي في إحدى مقالاته، يجب ألا تضيف إليه سكر، ويتم شربه مركزاً بكميات قليلة، ويكون

الشاي من الهند أو سريلانكا، وتقوم بتسخين الفنجان أو الكوب الذي ستقوم بصب الشاي فيه، بالإضافة إلى بضع قواعد أخرى لم يعد يوسف يتذكرها فتمسك بهذه القواعد الأربعة.

صب يوسف الكوبين، أمسك بواحد وأعطى الثاني لنادر، وبدأ يحكي له كل ما حدث، منذ أن ذهب ليتحدث مع داليدا.. إلى أن خرج من مكتب المراقبة بعدما شاهد آخر مشهد لها قبل أن تختفي. صمت نادر قليلاً ثم قال:

«الموضوع بسيط ولكنه شديد الخطورة، إنهم البدو العرب»

«ما دخل داليدا بالبدو العرب؟؟ منذ أن جاءت للعيش في العلمين ولم تغادر الفندق إلا نادراً، وليس لها أي نشاطات خارجية»

«كل الدلائل تشير إليهم، أولاً لا يوجد من يملك سيارات اللاند كروزر رباعية الدفع غيرهم، يستخدمونها في تهريب الأسلحة والمخدرات وفي أحسن الأحوال البضائع عبر الحدود، ثانياً حدثت أكثر من حالة اختفاء من قبل وقامت الشرطة بإتهامهم على الفور، بالتأكيد لم تحرك الشرطة ساكناً كعادتها عندما لا يكون الأمر له علاقة بالسياسة.. يوجد على سبيل المثال الآلاف ممن سرقت سياراتهم وعرفوا مكانها؛ وعندما ذهبوا إلى الشرطة وأخبروهم بما حدث، قالت لهم أنها تعرف هذا المكان ولن تدخله. هذا طبيعي في ظل الفساد الذي نحيا فيه، فقد أصبحت الشرطة في خدمة الحاكم ومن حوله فقط. ولكن يمكننا الإعتماد على المعلومات التي لديهم، هم على دراية تامة بما يجري»

أخذ رشفة من كوب الشاي ثم أضاف:

«يكفي زعيمهم أحمد، هو قادر على أي شيء تتخيله مهما كان غريباً وصعباً، مجنون لا يخشى شيئاً وينفذ ما يخطر على باله دون أي سبب منطقي»

أحمد، زعيم البدو الشاب الذي لم يتخطى الخامسة والثلاثين، يحكمهم بقبضة من حديد، يمتلك ذكاء فطري وفطنة جعلته أهلاً أن يشغل هذا المنصب في هذه السن المبكرة بعد وفاة والده. يتفاوض مع الشرطة ويأخذ ما يريده دائماً بالتراضي، حدث صدام واحد بينه وبينهم في البداية، عندما استولى رجاله على سيارة امرأة خمسينية، أخبره الضابط أن السيارة تخص زوجة أحد المسئولين ويريد استعادتها، وكانت إجابة أحمد هي أن بينهم اتفاق بعدم التدخل، فقامت الشرطة بالهجوم على بعض مناطق البدو.. كقرصة أذن لعصيان الأوامر. في اليوم التالي.. تم اختطاف هذا الضابط، وأعادوه بعد بضع ساعات، ولكن من دون عضوه الذكري. المثير في الأمر، أنه مع إعادة الضابط.. أعادوا السيارة المسروقة، فأصبح المسئولين عن القسم في حالة من الحيرة والإرتباك، لا يمكنهم التحديد هل يتعاملون مع مجنون أم عبقري؟ وما الذي يقصده بهذه الحركة؟ لم يقتل الضابط حتى لا تكون هناك دماء تجبر الشرطة على طلب إمدادات والتدخل بكل ثقلها، وسيارة زوجة المسئول قد عادت، ولكن في نفس الوقت قام بإفساد حياة الضابط وبعث رسالة واضحة للباقي. ما توصلوا إليه في النهاية، أنهم يتعاملون مع شخص غير باقٍ

على شيء، ومن الأفضل أن يتجنبوا غضبه متى أتيحت لهم الفرصة.

لم يطلق أحمد على نفسه لقباً أو اسم شهرة، ولم يسمح لأحد بمناداته بإسم العائلة، كان الجميع ينادونه بأحمد فقط، أو سيدي الزعيم أحمد.. قائلاً لهم: «لا يوجد غير أحمد واحد فقط وهو أنا، عندما يقال سيعرف الجميع أنهم يتحدثون عني، لا أحتاج لهالة من الغموض تحيط بإسمي، أفعالي كافية. عندما يقال سعد فأول ما سيتبادر إلى ذهنك هو سعد زغلول، جمال يعني جمال عبد الناصر، أنور يعني أنور السادات، هكذا هم العظماء»

بعد فترة من الصمت قال يوسف:

«سأذهب إلى القسم غداً صباحاً»

«ما الذي ستفعله في القسم؟؟ هل تظن أن الشرطة ستهتم بإختفاء شابة فقيرة تعمل بالأنيميشن؟»

«داليدا تونسية، ربما يتعاملون معها على أنها أجنبية»

«تونس ليست من الجنسيات التي تعامل كالأجانب، جميع العرب يتعاملون مع مواطنيهم كأنهم درجة ثانية، إذا لم يتم احترامك في بلدك.. فلن تتلقاه في أي مكان آخر. بالإضافة إلى أنك لست زوجها أو شقيقها أو حتى أحد أقاربها، لا يوجد أي صلة تربطك بها»

بحدة قال له يوسف:

«ما الذي تريدني أن أفعله؟ أغلقت جميع الأبواب في وجهي»

«لم أقصدأن أحبطك، أريدنا أن نفكر بواقعية. شيء آخر، تقول أن داليدا اختفت منذ يومين فقط، لم يمر غير ثماني وأربعين ساعة على اختفائها، ربما ستظهر غداً صباحاً»

«سأنتظر حتى الغد، وإذا لم تظهر سأذهب إلى القسم»

أنهى كل منهم كوب الشاي أمامه، ظلوا بعدها يثرثرون لأكثر من ساعة، ثم انصرف نادر، قبل أن ينصرف أخبر يوسف أنه سيقوم بإنزال بضعة أخبار في الجريدة الإلكترونية التي يعمل بها عن داليدا واختفائها، عسى أن يتعرف عليها أحد القراء ويقدم لهم أي مساعدة.

ظل يوسف في غرفته، قام بعمل كوب آخر من الشاي، ارتشفه على مهل في الشرفة، فكر أن يذهب إلى غرفة داليدا، لعله يعثر على معلومة تفيده بمكان وجودها.

في طريقه إلى غرفتها أخذ يفكر بكلام نادر، لم يمر على اختفائها أكثر من يومان.. هل من الممكن أن تظهر غداً بتفسير لم يتوقعوه؟ ويكون إحساسه بوقوع مكروه لها في غير محله؟ كل شيء وارد، ولكن نادراً ما يخيب شعورنا.. خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالكوارث.

ذهب إلى غرفتها، قام بالدخول من الشرفة، وجد بابها مفتوح كما اعتادت تركه دائماً. أول ما لاحظه أن الغرفة في حالة فوضى أكثر من الطبيعي بقليل، وكأن هناك من قام بقلب الغرفة رأساً على عقب وحاول بعدها إعادة كل شيء إلى مكانه. بدأ بالبحث في أشيائها، ملابسها متناثرة على السرير بغير ترتيب، أحذيتها الباليرينا تم تجميعها في ركن الغرفة، خزانة الملابس لا تحتوي غير على بعض الأحذية

والملابس الشتوية، ثلاثة أو أربعة علب كريم بالإضافة إلى زجاجة من العطر فوق التسريحة، وجد بجانبهم جواز سفر وبطاقة تعريفها الخاصة بالفندق وحافظة نقود، فتح الحافظة، فوجد مبلغاً صغيراً من المال وصورة واحدة، كانت صورتهم معاً.. وهو يضع ذراعه حول خصرها وهي تميل برأسها على كتفه، شعرها الهائش يغطي جزءًا من رقبته، كلاهما يبتسم بدفء، ليست ابتسامة مبالغ فيها كالتي يطلبها منك المصور، وليست ابتسامة مجاملة أو تصنع، فقط ابتسامة دافئة لا يدرك معناها غير أصحاب الصورة.

من دون تفكير قام بوضع الصورة في جيبه، وأمسك زجاجة العطر وقربها من أنفه، تنشق رائحة العطر الإيطالي، أوحشته كثيراً، وأخذ يدعو ربه لكي يستنشقها مرة أخرى من على جسد صاحبتها مباشرة.

بطرف عينه لمح ميدالية المفاتيح، تحتوي على مفتاح لغرفتها ونصف قلب معدني ودب قطني صغير تمت خياطته يدوياً. كانت داليدا من هواة خياطة الكروشيه والتريكو، هواية تليق بالعجائز ولكنها أحبتها وصنعت منها الكثير من الأشياء الجميلة. عندما أمسك الدب القطني.. شعر أنه غير متقن الصنع، تمت خياطة حوافه بخيوط قديمة فقدت الكثير من وبرها، عادةً لا تحتفظ داليدا بأي شيء قديم أو أصبح مهترئاً، ضغط على الدب بيده فشعر بجسم صلب بداخله، من دون تفكير نزع الخيوط وفتحه، وجد بداخله مفتاح، يعلم جيداً ماهيته.. إنه خاص بخزائن النادي الصحي التابع للفندق، نزع الدب من الميدالية ووضعه مع المفتاح في جيبه.

أكمل بحثه في الغرفة، نظر بداخل دورة المياه والمطبخ الصغير والأدراج والخزائن، لم يعثر على شيء ملفت للنظر، فغادر واتجه إلى النادي الصحي.

كانت الساعة التاسعة مساءً، دخل يوسف من الباب الرئيسي ووجد المرأة الآسيوية المسئولة عن النادي، طلب منها أن يدخل لأنه يحتاج أن يفتح خزانته الخاصة، سألته عن رقمها، فأخبرها بالرقم المكتوب على المفتاح الذي عثر عليه داخل الدب القطني، قالت له المرأة:

«ولكن هذا مفتاح الخزينة التي تستخدمها داليدا»

«أعلم أنه مفتاحها، ولكنها اختفت منذ يومين والجميع يبحث عنها كما سمعتِ بالتأكيد، أريد أن أنظر بداخل الخزينة لعلي أعثر على شيء يدلنا على مكان وجودها»

«لا أستطيع السماح لك بذلك»

«أرجوكِ، هذه ليست إحدى الخزائن التابعة للأعضاء أو نزلاء الفندق، إنها خزينة إحدى العاملات، كلانا يعلم أنه من رابع المستحيلات أن يتم التسبب لك في مشكلة بسببها»

أشارت له أن يتبعها، ساروا في ممر واسع إلى أن وصلوا لمكان الخزائن. قبل أن تتركه المرأة قالت له:

«لم تفتح داليدا خزانتها منذ ما يقرب من عام، كنت سأطلب منها أن تتخلى عنها إذا كانت لا تحتاجها»

أومأ لها برأسه ثم شاهدها وهي تنصرف. قام بفتح الخزانة، كانت فارغة إلا من كتاب قديم أوراقه مهترئة وليس له غلاف، كُتب في الصفحة الأولى العنوان: «أسرار العالم الجديد».

الفصل السابع

زينة، القاهرة

مر عام على استيقاظها من الغيبوبة، خلال هذه المدة كان هناك جدول وضعته لها والدتها لكيلا تبقى وحيدة، الأحد والإثنين تمضيه مع أختها الكبرى سمر ربة المنزل ذات الثلاثة أولاد، الثلاثاء مع أختها الصغرى هبة التي تعمل كمصممة جرافيك في شركة متوسطة الحجم.. واستطاعت أن تقنعهم بالسماح لها بالعمل من المنزل في هذا اليوم، الأربعاء مع والدتها، والخميس مع صديقتها المقربة شيرين، وفي عطلة الجمعة والسبت كان هناك دائماً خطة لقضاء اليوم.

ولكن بعد أن بدأت زينة بالتحسن، وأصبحت تتصرف بطريقة طبيعية واستجمعت شتات نفسها، بدأ التزام أخواتها ووالدتها وحتى صديقتها بالجدول الموضوع يتضاءل، فأصبحت كل واحدة منهن تقدم حجة مختلفة كل بضعة أسابيع إلى أن اختفى الجدول تماماً، عادت كل واحدة إلى حياتها السابقة.. زوجها وبيتها وأطفالها وعملها، أصبحوا يرونها مرة واحدة أسبوعياً في اجتماع العائلة يوم الجمعة، حتى والدتها

أضحت تمضي معظم وقتها في التنقل بين أحفادها الخمسة، أولاد سمر الثلاثة وبنات هبة الإثنين. وكما كانت زينة وحيدة في الغيبوبة.. أصبحت وحيدة في صحوتها.

أكثر ما شعرت به في هذه الفترة هو الملل، لديها الكثير من وقت الفراغ، أو بمعنى أفضل كل وقتها يعتبر وقت فراغ. منذ شهر وهي تحاول الخروج برفقة شيرين، ولكن الأخيرة انتقلت إلى عمل جديد ووقتها ضيق لا يتسع للتسكع مع صديقة قديمة، أخواتها الإثنين لديهم جدول مزدحم بمدارس الأطفال ونواديهم وأزواجهم وزياراتهم وأصدقائهم.

أصبحت تتحاشى الجلوس مع والدتها في الفترة الأخيرة، في كل مرة يجلسون معاً على انفراد.. يكون موضوع الزوج المستقبلي هو محور الحديث، وكيف يجب عليها أن تهتم بمظهرها وتخرج برفقة أصدقائها حتى يراها الناس. ودت أكثر من مرة أن تسألها أين هؤلاء الأصدقاء.. ولكنها تصمت وتبتلع سؤالها وكبريائها المنكسر. في أحد المرات قالت لوالدتها:

«سأبدأ البحث عن عمل، هذا ما أحتاج إليه»

أجابتها في استنكار:

«رجوناكِ حتى تعملي بعد التخرج ولكنك رفضتِ، أتاكِ أكثر من عرض عمل في شركات محترمة ورفضتيها جميعاً، من الذي سيوظف امرأة تخطت الثلاثين ولا تملك أي خبرة عملية»

بعد هذه المحادثة انغلقت زينة على نفسها ودخلت في عزلة اختيارية، أصبحت تشعر بثقل الهواء في وجود أي شخص بجانبها، فأضحت تتفادى لقاء أي فرد من أسرتها، وقبعت بغرفتها لا تغادرها إلا من أجل الضروريات القصوى، قلقت والدتها عليها وحاولت عرضها على طبيب نفسي ولكن زينة رفضت رفضاً قاطعاً.

في صباح أحد الأيام، بعد أن استيقظت وتمنت لو لم تستيقظ وتعود لغيبوبتها السابقة، أعطاها والدها حقيبة قديمة، أخبرها أنها تحتوي على بعض مقتنيات زوجها الراحل، في يوم سفرهم لقضاء شهر العسل أعطاها له وائل حتى يحتفظ بها لديه، وكان المفترض أن يأخذها منه عند عودته، ولكن بعد الحادث وما أتبعه من مآسي نسي الوالد أمر الحقيبة، وظلت مكانها في أحد خزائن عيادته، إلى أن قرر إعادة طلاء العيادة ورأى الحقيبة فتذكرها على الفور.

كانت الحقيبة تحتوي على ملابس وحذاء رياضي وكريم للشعر وزجاجة عطر ومحمول قديم. تكاد زينة تقسم أن رائحة وائل لا زالت عالقة بالملابس، ظلت متربعة على سريرها وقد فردت ملابسه حولها، أمالت رأسها إلى الأمام ووضعت يديها بين خصلات شعرها البني.. ثم شرعت في البكاء.

أحبت وائل، كان طويل أسمر اللون ذو شعر شديد القصر، تقدم لخطبتها بعد تخرجها بشهر واحد وهي في الثانية والعشرين من عمرها عام ٢٠٠٧، وأخبرها أنه لا يريد من زوجته المستقبلية العمل.. فرضخت لطلباته دون مناقشة، رغم أنها أرادت تجربة الحياة بين

أروقة الشركات الدولية، إلا أن حبها له منعها من معارضته. اتفقوا على الزواج بعد عامين، ولكن بعض الأمور المتعلقة بشقتهم وعمل وائل كضابط في الجيش أجبرهم على تأجيل الزواج، ظل الموعد يؤجل إلى أن وعدها أن يكون العرس في شهر أبريل ٢٠١١.. في ١٣ أبريل يوم عيد ميلادها تحديداً، ورغم أنه كان العام الأول لثورة ٢٥ يناير، وكان الجيش منغمساً من أول وزير الدفاع حتى أصغر جندي في العمل.. إلا أنه قاتل حتى يستطيع أن يفي بوعده لحبيبته ويحصل على أربعة أيام عطلة زواج.

بعد العرس صعدوا إلى غرفتهم في الفندق، خلعت فستانها وارتدت شيئاً يليق بمثل هذه الليلة، ظلوا يتحدثون ويتبادلون القبلات والأحضان طوال الليل، لم يمارسوا الحب، أخبرها أن العمر أمامهم طويل، ولا يريد في هذه الليلة غير التصرف كعاشق.

أخذت في التقليب بين متعلقاته، وعندما أعادت شحن المحمول القديم، ووجدت بداخله جميع أرقام معارف وائل، اعتبرتها علامة للبحث عن سبب مقتله كما أرادت سابقاً. تذكر هذا الهاتف جيداً، كان أحد هواتفه الخاصة بالعمل، وعدها وائل ألا يصطحبه معه في شهر العسل، وأوفى بوعده، فتركه في الحقيبة مع ملابسه التي لن يحتاج إليها وأعطاها لوالدها.

في هذه اللحظة دخلت عليها والدتها، قبل أن تؤنبها على جلوسها طوال اليوم بغرفتها.. قالت لها زينة:

«قررت ما أريد عمله، لن أقلب حياتي رأساً على عقب لإصطياد عريس، ولن أعمل، سأبدأ بالبحث عمن قتل وائل، أو على الأقل سبب مقتله»

أوشكت والدتها على الصراخ ونعتها بالجنون وحاجتها الملحة للقاء طبيب نفسي.. وأن طبيبها المعالج توقع أن تمر بلحظات من الهلوسة واختلاط الحقائق، ولكنها لن تستمر لأكثر من بضعة أشهر، ومع اكتمال العام يجب أن يكون عقلها قد استعاد اتزانه. ولكن مع الإصرار والبريق الذي يشع من عين ابنتها، صمتت وقررت إرجاء العراك لوقت آخر.

للمرة الأولى منذ أن استيقظت.. تشعر زينة بالحياة تجري في دمائها، اعتدلت في جلستها على السرير وأمسكت ورقة وقلماً، وبدأت بكتابة الخطوات التي ستسلكها للبحث عمن وراء الحادث الذي أودى بحياة زوجها.. أو حبيبها كما تحب أن تدعوه حتى وهو متوفي.

الفصل الثامن

يوسف، العلمين

(قبل عامين)

ولدت داليدا في القاهرة، في أحد مستشفيات وسط البلد، من أب تونسي وأم مصرية. أسماها والدها داليدا أسوة بالمغنية العالمية، التي عاشت في مصر وغنت بعض الأغاني بالعربية. كان عاشقاً لكل ما هو مصري، أمضى طفولته ومراهقته في مشاهدة أفلام السندريلا ورشدي أباظة وفريد شوقي، وسماع عبد الحليم حافظ وأم كلثوم والسوري الهارب من بطش الفرنسيين في سوريا إلى القاهرة فريد الأطرش. لذلك عندما تعرف في إحدى مقاهي العاصمة التونسية على فتاة مصرية؛ ذات بشرة بيضاء وشعر أسود طويل منسدل على كتفيها وعينان سوداوان.. وقع في غرامها وشعر أنها قدره، تزوجوا بعد بضعة أشهر وانتقل معها إلى القاهرة. استأجروا شقة صغيرة في منطقة وسط البلد، وقام الأب العاشق للتكنولوجيا بإفتتاح محل صغير للإلكترونيات، وبعد ثلاثة أعوام من الزواج، رزقهم الله بطفلتهم الأولى والوحيدة.. داليدا.

أمضت داليدا طفولتها في شوارع وسط البلد، بين المقاهي الثقافية والأجانب وشركات السياحة، وفي عامها الجامعي الأول، بعد عودتها من الجامعة، وجدت جمع من الناس أمام بنايتها، اقتربت فوجدت أن الكثير من حوائط البناية أضحت سوداء اللون، لاحظت نظرات الشفقة التي تتبعها كلما اقتربت، إلى أن وقفت أمام عم ابراهيم جارهم في الدور الأول، بأعين باكية وصوت متهدج قال لها: «البقاء لله يا بنتي».

اندلع حريق في بنايتهم الصغيرة، توفي أربعة أشخاص لم يفلحوا في الهرب والتهمتهم النيران، كان والداها منهم. حاولت أن ترى جثثهم ولكن الجيران منعوها، أخبروها أن ملامحهم اختفت ولم يعد هناك غير كتل متفحمة سوداء اللون.

لم يُعرف سبب الحريق، جاءت سيارات الإطفاء متأخرة كالعادة وأنقذت ما يمكن إنقاذه، عاينت المكان وأعلمت السكان أن السبب مجهول.

سرت إشاعات أن السبب هو ماس كهربائي تسببت فيه شركة الكهرباء، ولذلك قيدت الواقعة ضد مجهول حتى لا تضطر الشركة إلى دفع تعويضات للسكان. شائعة أخرى اتهمت أحد الجيران بأن ابنه مدمن للمخدرات وقد غاب عن الوعي تاركاً سجائره مشتعلة.. وهي السبب في اندلاع الحريق، ولكن هذا الساكن اعترض وأخبر الجميع أن هذه تهمة ملفقة لتشويه سمعته حتى لا يتم اختياره عضواً بالمجلس المحلي، وقامت معارك استخدم فيها الطرفين.الأسلحة

البيضاء، وسالت بعض الدماء حتى يسكت هذا الساكن الشائعة وينقذ سمعته. شائعة أخيرة مفادها أن الحي هو المنفذ للحريق، حتى يغلق المقهى القابع أسفل البناية ويستولي على المكان، مستدلين على هذه الشائعة بالحريق الذي اندلع منذ بضعة سنوات في مجمع مقاهي بالمعادي أمام مكتبة سوزان مبارك.. جاءت وقتها أول سيارة إطفاء بعد ساعة وكانت فارغة لا يوجد بها قطرة مياه واحدة، وجاءت السيارة الثانية بعد ساعة أخرى ولكن كانت النار قد أكلت كل شيء، بعدها تم الإستيلاء على أماكن جميع المقاهي من دون دفع أي تعويضات للمستأجرين.

الكثير من القيل والقال، ولكن الحقيقة الوحيدة هي ما أصبحت عليه حياة داليدا، أضحت وحيدة من دون أقارب أو أصدقاء مقربون يمكنها الإتكال عليهم. سكنها وجميع مقتنياتها وملابسها أصبحوا كتلة من الفحم، باتت ليلتها في منزل أحد جيرانهم في البناية المجاورة، واتفق معها أحد التجار على شراء البضائع الخاصة بمحل والدها، ما دفعه لها لا يمثل ثلاثون بالمائة من القيمة الحقيقية للأجهزة، ولكن حزنها على ما أصاب أسرتها أعماها عن الإعتراض.

بعد أسبوع من الوفاة، بدأ أصحاب المنزل الذي تبيت فيه بالتململ، صارحتهم أنها لا تدري أين تذهب، انقطعت السبل بينها وبين أقارب والدتها في تونس من سنوات، وأقارب والدها في مصر كالأغراب بالنسبة لها لم ترهم منذ أن كانت طفلة صغيرة.

عـرض عليها أحد أفـراد الأسرة المضيفـة أن يوفر لها عمـلاً في أحد الفنادق السـياحية الكبيرة، سـيكون العرض شـامل المسكن والمأكل وقـدر لا بأس به من النقود، وافقت عـلى الفور، وانتقلت بعد بضعة أيام إلى العلمين.

* * *

في خلال عامها الأول والثاني بالفندق، عملت داليدا كالمخدرة، لم تبذل أي جهد لتكوين صداقات ولم تلبي دعوات الصداقة التي جاءتها على استحياء؛ من الفتيات زملائها في العمل أو من الشباب الذين يطلبون ودها، تستيقظ في الثامنة صباحاً، تعمل حتى السادسة مساءً ثم تذهب إلى غرفتها وتشاهد التلفاز إلى أن تنام.

وكان ظهور يوسف أو أوركا كما ينادونه في الفندق.. نقطة فارقة في حياتها. بعدما أنهت عملها في السادسة، اقترب منها شاب يكبرها ببضعة أعوام، طويل ذو وجه أبيض حليق وشعر بني متوسط الطول. أخبرها أن هناك حفلة في بار لاروزا في التاسعة مساءً، ويجب عليها الحضور، سألته لماذا، فأخبرها أن جميع العاملين والعاملات بالفندق سيكونون هناك، ومستحيل أن يتم تفويت هذه الحفلة. قالها بتلقائية ويقين وكأن حضورها إلى الحفل من مسلمات الحياة.

في التاسعة والنصف حسمت أمرها وارتدت ملابسها، لم ترد الذهاب، ولكن الفضول لرؤية هذه الحفلة التي سيحضرها الجميع

كان أكبر منها، ولسبب ما شعرت أن أوركا يبدو مختلفاً عن جميع العاملين، لا تعلم لماذا تشعر أنه من عائلة أرستقراطية أو ميسورة الحال، خلافاً لبقية زملائهم الذين يبدو عليهم دائماً سيمات العائلات المكافحة. ستجلس لنصف ساعة تستطلع ثم تغادر إذا شعرت بالملل.

أحد الأمور التي جعلتها غير واثقة من قرار ذهابها، هو عدم امتلاكها لملابس تليق بحفلة راقصة على البحر، ارتدت جينز فاتح اللون وتي شيرت كحلي قصير الأكمام وحذاء باليرينا من نفس لون التي شيرت، نظرت إلى وجهها في المرآة وصففت شعرها بيديها ثم انصرفت.

في الحفل استقبلها يوسف على الباب وكأنه ينتظرها، كان يرتدي جينز كحلي وقميص أحمر تم ثني أكمامه حتى منتصف ساعده، وفي يده اليسرى ساعة كبيرة، قال لها:

«هذه الحفلة مملة، أنا أكره الحفلات ولا أطيقها، ما رأيك أن نذهب للجلوس في مكان هادىء؟»

ببراءة سألته:

«لماذا أتيت ودعوتني إذن؟»

بجدية أجاب:

«حضرت فقط حتى ألقاكِ، ودعوتك حتى أتأكد أنك ستحضرين»

ابتسمت ضاحكة، فعلم وقتها أنه نفذ أول قاعدة لإستمالة قلب الفتاة، جعلها تضحك. ذهبوا للجلوس في شرفة مبنى النادي الإجتماعي، على طاولة خشبية بنية اللون وكراسي سوداء معدنية.

ظـل يتحـدث هو طويلاً عن نشـأته وما جعله يترك أهلـه في القاهرة ويتجه للعزلة في العلمين، ظل يعدد لها ما تعرض إليه من ضغط نفسي حتى لم يعد يطيق البقاء. في ظل حديثه عن أسرته وعائلته قالت له:

«على الأقل لديك عائلة»

ولا شعورياً، وكأنها تلقي بحمل ثقيل عن كاهلها، قصت عليه ما حدث لأسرتها منذ عامين، أخبرته بجميع التفاصيل وكيف انقلبت حياتها بعد هذه الحادثة من دفء الأسرة إلى الوحدة الباردة والخوف الدائم من الناس. أنهت حديثها وانسابت دموع ساخنة على وجنتيها. شعر بالأسى على هذه الطفلة.. التي وضعتها الحياة في منتصف العاصفة وهي في مقتبل العمر، وتحولت مشاعر الإعجاب نحوها إلى مشاعر حبٍ ورغبة في الحماية.

بعد هذه الليلة أصبحوا لا يفترقون، ينهي كلاهما عمله ويذهب لينام بضع ساعات، ثم يتجهون إلى بار لاروزا للسهر مع نادر وعاطف، أو يذهبون إلى المكان الذي اختاروه ليكون موقعهم المفضل، مقابر الألمان والطليان الذين قضوا نحبهم في الحرب العالمية الثانية بمنطقة تل عيسى. تحتوي المقبرة على بقايا ما يقرب من ٤٢٠٠ جندي، بعضهم يحمل شاهد قبره إسمه والبعض الآخر مجهولي الهوية، وقد تم بناء المقبرة على طراز قلاع العصور الوسطى.

لا يعلم يوسف وداليدا لماذا اختارا مثل هذا المكان الكئيب ليكون مخبأهم للسهر معاً، بالعلمين يوجد الكثير من الأماكن في الصحراء التي لن تطالهم فيها أعين الناظرين، خصوصاً مع طبيعة عمل يوسف

في السافاري التي جعلته يحفظ الصحراء المحيطة بهم عن ظهر قلب، ولكن وجودهم في المنطقة التي شربت رمالها الكثير من الدماء، وحمل هوائها أرواح آلاف المحاربين إلى السماء، وقامت زوجات الجنود وعشاقهم بالدعاء لهم حتى يعودوا سالمين، كل ذلك أعطى هذا المكان سحر خاص بالنسبة لهم، خصوصاً المقبرة التي تشبه قلاع العصور الوسطى.

أصبحوا يذهبون إلى هناك مرة أو مرتين أسبوعياً، يتسامرون ويتبادلون كلمات الغرام، أحياناً يجلب يوسف معه كتاباً يقرؤه، وتمضي داليدا الوقت في الخياطة والكروشيه الذي علمته لها والدتها الراحلة، إرثها الوحيد. وقبل الإنصراف ينامون على الرمال ويشاهدون السماء المليئة بالنجوم، يبدأ يوسف في شرح مواقع النجوم، وأسمائها، وأشهر الأشكال التي اعتاد المسافرون القدماء أن يتبعوها للسفر في الصحراء غير واضحة المعالم.

قال لها أن النجوم هي أحد الأسباب في تمسكه بالإسلام بعد أن راوده الشك منذ بضع سنوات، سألته كيف هذا، قال لها:

«عندما يقسم البشر يقسمون بالله، ولكن عندما يقسم الله فإنه يستخدم معجزاته ليقسم بها، وإحدى هذه المعجزات هي النجوم، قال الله سبحانه وتعالى في القرآن: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، يقسم الله بمواقع النجوم، هل تعلمين أن أي نجمة ننظر إليها هي غير موجودة في مكانها حالياً، ما نراه هو مكانها منذ عشرات السنين، ولذلك أقسم الله بمواقع النجوم،

وعندما تقدم العلم واكتشفنا المعجزة المحيطة بمواقع النجوم، استطعنا تفسير الآية وإدراك مدى عظمتها»

في هذا اليوم أنهى يوسف كتابه، وأنهت داليدا خياطة فستان لفتاة صغيرة لم تتخطى العامين، كان فستاناً جميلاً زهري اللون يحيط وسطه ورود بيضاء، قالت ليوسف أنه لإبنة زميلتها في الأنيميشن، ستسافر للقاهرة بعد أن تزوجت للمرة الثانية، وقبل السفر أهدتها خزانتها في النادي الصحي، إذ إن خزائن العاملين محدودة، ولتحصل على واحدة يجب أن تنتظر دورك، وإذا تركت الخزانة لإدارة النادي الصحي فسيعطيها المسئول لإحدى الفتيات التي يستلطفها ولن يلتفت إلى أحقية الأقدم بالحصول عليها، لذلك ستبدأ بإستخدامها وستتركها بإسم زميلتها، ورداً على الجميل قامت داليدا بخياطة هذا الفستان لإبنتها الصغيرة.

وضع يوسف الكتاب والفستان على الأرض، وسألها:

«هل أنت على استعداد لمغامرة مجنونة؟»

«ما الذي تعنيه بمجنونة؟»

«اليوم، أشعر أنني على استعداد للركض في أنحاء العلمين كلها والصراخ بأعلى صوتي أنني أحب داليدا ذات العينان السوداوان والقلب الأبيض»

ابتسمت في خجل وقالت له:

«كفاك عبثاً لا تحتاج إلى الصراخ بحبنا، يكفي أنه موجود وأنه يملؤنا»

«كلا لا يكفي، هيا تعالي معي»

أمسكها من يدها ليساعدها على الوقوف، قاومته بدلال ولكنه أصر، وقال لها أنه سيصرخ ولكن في منتصف الصحراء وليس في وسط المدينة. وضع مقتنياتهم في حقيبة وثبتها في مؤخرة البيتش بجي، ركبت داليدا خلفه ووضعت ذراعيها حول وسطه، وانطلق بأقصى سرعته في منتصف الصحراء، يغني «حلوة يا بلدي» و»سلمى يا سلامه» و«أحسن ناس» وأشهر أغاني المطربة الراحلة داليدا، ويقول بعد كل مقطع أن المغنية ماتت ولكن داليدا الخاصة به ستعيش بحبه للأبد.

بعد نصف ساعة من الغناء والصراخ والشعور بالهواء البارد يلفح أجسادهم، توقف يوسف ونظر حوله، بتوتر أدرك أنه ضل الطريق وأصبح في منطقة لم يطأها من قبل، أخذ يدور حول الجبال الموجودة.. إلى أن شاهد شيئاً غريباً أسفل أحد الهضاب، حائط كتب أو رسم عليه بعض الحروف، توقف أمامه وترجل هو وداليدا من على البيتش بجي.

كان أمامهم نقش عبارة عن مستطيل يميل من أسفل اليسار إلى أعلى اليمين، بداخله حروف تقول Meine Ehre Heist Treue. من دراسة يوسف بالجامعة الألمانية عرف أن هذه اللغة هي الألمانية، وبعد أن عادوا إلى الفندق وبحث عن معنى الجملة.. عرف أنها تعني «شرفي هو ولائي».

Meine Ehre Heißt Treue

وقف يوسف وداليدا أمام النقش الأسود الذي يبدو شديد القدم، وتوقعوا أنه أحد مخلفات الحرب العالمية الثانية، فالعلمين هي أحد المناطق التي دارت بها معركة فاصلة بين القوات الألمانية والإيطالية بقيادة إرفين رومل، وبين القوات الإنجليزية بقيادة برنارد مونتغمري، وكانت المعركة الأولى التي يخسر فيها الألمان أمام الإنجليز، ومن بعدها لم يخسر الحلفاء أي معركة أخرى حتى انتصروا ودخلوا برلين في مايو ١٩٤٥.

وضع يوسف يديه على النقش وبدأ يتحسسه، شعر وكأنه يلمس أحلام الجنود والقادة الألمان عندما أرادوا احتلال العالم، وكيف قادهم جنونهم إلى نهاية مؤلمة.

عندما دخلت قوات الحلفاء برلين وجدت أن القائمين على المدافع أطفال ومراهقين في الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمرهم، لأن جميع الرجال ذهبوا للحرب في روسيا وأوروبا وشمال أفريقيا، تعددت الجهات وتوسع الحلم حتى ابتلع جميع الحالمين، أكثر من عشرة ملايين من الجنود الألمان قتلوا في هذه الحرب، هذا غير ما حل بألمانيا نفسها، هدم الروس والإنجليز آلاف المباني، وقاموا بتفكيك المصانع وأخذوها لبلادهم، وتم ترحيل العلماء الألمان إلى أمريكا وإنجلترا للعمل بالسخرة، وتم تجنيد حوالي أربعمائة ألف ألماني يتراوحون بين أسرى وطالبي لجوء ومدنيين.. للعمل بالسخرة في إعادة ما هدمته الحرب في فرنسا وإنجلترا، كان معدل موت الألمان العاملين بالسخرة في هذا الوقت حوالي ألفين ألماني شهرياً،

ويعود السبب الرئيسي لأنه تم استخدامهم للكشف عن الألغام وتفجيرها. وأكثر من عانوا من الألمان هم النساء، فبعد دخول جنود الجيش الروسي إلى برلين.. قاموا بعمل اغتصاب جماعي لكل امرأة يشاهدونها، والجندي الذي يمتنع عن الإغتصاب يقومون بترحيله إلى موسكو وإلقائه في السجن، واستمرت عمليات الإغتصاب لأربعة سنوات متصلة، تقول الإحصائيات أن عدد النساء اللاتي تم اغتصابهن من قبل الروس يتراوح من مليون ونصف حتى اثنين مليون امرأة، ومن هذه النساء من تم اغتصابه عشرات المرات، كان الجنود الروس يعتقدون أن هذا هو انتقامهم من هتلر وحزبه النازي، ورغم ذلك، النساء هم من أعادوا بناء ألمانيا، وجعلها إحدى البلدان القليلة التي أصبحت نسبة الفقر فيه صفر. كانت كارثة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وكان سببها حلم بالعظمة يراود بعض الجنرالات، وقام شعبهم بدفع الثمن.

انتابت يوسف الكثير من الأحاسيس وهو يتحسس النقش الأسود، نظر إلى داليدا فعلم أنها تفكر مثله، هذا المكان، سيكون مكانهم المفضل من الآن.

قام بالإتصال بسعيد، وأخبره أنه ضل الطريق، فقام سعيد بإرسال بضعة سيارات تابعة للفندق للبحث عنهم، وبعد ساعتين استطاعت إحدى السيارات العثور عليهم، وخلال عودتهم حفظ يوسف الطريق، وأصبح يأتي في الليالي المقمرة للجلوس مع معشوقته، مطلقين عليه اسم الرمز الأسود.

الفصل التاسع

زينة، القاهرة

أول خطوة اتخذتها زينة للتحقيق في مقتل زوجها الراحل، هي مكالمة جميع الأرقام المسجلة في هاتفه المحمول، ستقسمهم إلى قسمين، القسم الأول زملاءه ومعارفه الغير مقربين، ستسألهم على الهاتف إن كان لديهم علم عن أي أعداء لوائل أو أشخاص يودون إيذائه. القسم الثاني هم المقربون، وسوف تحاول مقابلتهم وسؤالهم وجهاً لوجه.

بدأت مكالماتها التليفونية في الواحدة ظهراً، أجرت خلال أربع ساعات ما لا يقل عن ثلاثون مكالمة، باءت جميعها بالفشل الذريع، بعضهم تعاطف معها وأخبرها بألطف طريقة ممكنة ألا تتصل به مرة أخرى، البعض الآخر استنكر أن يكون هناك من قتل زوجها، وظل يجادل معها أن ما تعتقده هو مجرد هلاوس ويجب عليها المضي قدماً ونسيان الماضي، وآخرون كانوا أكثر قسوة.. قالوا ما معناه أن

الحياة ليست فيلم سينمائي أو رواية بوليسية حتى تعيش دور المحققة، والناس تموت كل يوم من دون أسباب مهمة.

حتى المكالمة الأخيرة كان لديها أمل في العثور على معلومة تفيدها، ولكن بعد الإنتهاء والجلوس خالية الوفاض.. أجهشت بالبكاء، واختلطت الدموع أمام عينيها بذكريات ليلتها الأولى والأخيرة مع زوجها في الفندق، عندما خلعت طرحتها البيضاء وجلست على السرير، أخذ وائل الطرحة الشفافة وقام بتطبيقها، ثم وضعها برفق على الكومود، اقترب منها واستنشق شعرها، قال لها أنه سيحتفظ بهذه الطرحة حتى تكون ذكرى يبتسمون لها في تقاعدهم. الآن، لا يوجد تقاعد، وستكون الذكريات من نصيبها وحدها، لن تدفئها وتشعرها بالحميمية، بل ستذكرها بخسارتها وتقطع أوصالها.

مسحت الدموع بأصابعها وعادت إلى الهاتف لإستكمال مهمتها، اختارت أربعة أسماء تعرفهم جيداً، ثلاثة منهم ضباط زملاءه في العمل، والرابع عمر، صديق عمره مهندس الميكانيكا. استطاعت الوصول إلى اثنين من الضباط واتفقت معهم على ميعاد للإلتقاء، أما الثالث فرقمه غير موجود بالخدمة. قامت بعدها بالإتصال بعمر، ردت عليها زوجته، أخبرتها الزوجة أنها أخذت رقم هاتفه القديم بعد أن سلمته الشركة رقم جديد، عرفتها زينة بنفسها وطلبت منها أن يعاود الإتصال بها إذا أمكن.

* * *

جلست في مقهى بأحد أشهر مراكز التسوق بمدينة نصر، طلبت كوباً من القهوة، وأخذت تسلي نفسها بقراءة إحدى المقالات على هاتفها المحمول، تتحدث المقالة عن الحرية التي شعرت بها كاتبة المقال بعد أن خلعت الحجاب، لم تكن زينة يوماً محجبة، ولكنها تشعر أن التيار هذه الأيام يدعو إلى خلع الحجاب، كما دعى منذ بضعة سنوات إلى ارتدائه، أخذت في التفكير بأن النساء يدعون إلى حرية المرأة، ولكنهن ينسقن كالقطيع مع أي موجة جديدة، يتركون الأفكار السائدة تتغلغل بداخل عقولهم وتسيطر عليهم، هؤلاء الفتيات اللاتي خلعن الحجاب وأخذن بالتحدث عن الحرية التي حصلوا عليها.. هم نفسهم من ارتدين الحجاب وقت موضة ارتدائه.. وتحدثن عن الرضاوالحماية التي شعرن بها.

بعد أن انتهت من قراءة المقال، جاء الضباط أحمد وزياد زملاء وائل السابقون في العمل، صافحوها بحرارة مقدمين الكثير من كلمات العزاء والثناء على وائل، وسؤالها عن أحوالها وإذا ما كانت بحاجة لأي شيء. شكرتهم كثيراً لإهتمامهم، وبعد أن طلب كلاً منهما كوباً من الشاي، سألتهم مباشرة إذا كان لديهم أي اعتقاد بأن وائل قد قتل.

لنصف ثانية أو أقل.. شعرت أن تعابير وجهيهما عبست بعد السؤال ثم عادت لطبيعتها، لا تعلم هل تغيرت تعابيرهما حقاً، أم أنها فقط تتمسك بأي علامة يمكن أن تثبت صحة وجهة نظرها. أجابوها بالنفي التام على سؤالها، وأكدوا لها تماماً أن ما تعتقده ليس له

أي أساس من الصحة، هم أقرب الناس لوائل وكانوا سيعرفون لو كان هناك خطراً يتهدده.

ظلوا بعدها يثرثرون عن ذكرياتهما مع وائل ومدى افتقادهم له، وفي النهاية أصروا على دفع الحساب، ورجوها أن تتصل بهم إذا احتاجت هي أو أي من أسرتها لأي شيء، ثم ودعوها وانصرفوا. بعد انصرافهم شعرت بالإحباط، وفي طريقها للمنزل أخذت في التفكير بشيء خطر لها، لماذا لم يسألوها عن سبب اعتقادها بأن هناك من قتل وائل، اكتفوا فقط بالنفي، من الممكن أن يكونوا تعاملوا معها على أنها مجنونة، ولا داعي لفتح نقاش منطقي مع مجنون.

بعد أن ترجلت من سيارتها رن هاتفها المحمول، أجابت فأتاها صوت عمر على الطرف الآخر، طيباً متحمساً كعادته:

«الويل لي على تقصيري في حق زوجة أخي، أنا آخر من يعلم بإستيقاظك وكان المفترض أن أكون أول من يستقبلك في المستشفى، سوف أصلح خطئي، أين أنت الآن، سأمر لإصطحابك»

«شكراً جزيلاً لك يا عمر، أنا بخير، لقد عدت إلى المنزل لتوي ولن أستطيع..»

قاطعها قائلاً:

«سأمر لإصطحابك، ستتناولين غدائك معنا، لن أقبل الرفض لأي سبب، ساعديني على إصلاح خطئي أرجوكِ»

لم تملك غير الإبتسام في سعادة، من الجميل أن يشعر المرء أنه محبوب، حتى لو كان يعلم أنه وضع مؤقت، وسيبدأ الشخص الآخر في الإنشغال عنه. أخبرته أنها تملك سيارة وستأتي إلى منزله.

بعد نصف ساعة قامت زينة بركن السيارة تحت منزل عمر، صعدت الأدوار الثلاثة ورنت الجرس، استقبلها على الباب هو وزوجته وأولادهما الثلاثة بترحاب مبالغ فيه، قادوها إلى الصالون ودخلت الزوجة المطبخ لتعد الطعام. لشد ما تغير عمر، ازداد وزنه بطريقة ملحوظة، وبدأ الشعر بالتساقط من على مقدمة رأسه، ونما له لغد كبير أسفل فكه، الشيء الوحيد الذي بقي كما هو.. ضحكته الصافية وعينيه العسليتين.

عندما كان عمر في الجامعة، استطاع الحصول على بعثة للسفر إلى ألمانيا للتدرب في مصنع مرسيدس للسيارات، عاد بعدها ولديه طاقة كبيرة للعمل، وأصبح لديه أحلام لإنشاء مصنع للسيارات في مصر، وعمل سيارة مصرية الصنع من تصميمه، أراد تسميتها عمر، واختار لها علامة دائرة كبيرة تمثل حرف الـO وفي وسطها باقي حروف اسم عمر بالإنجليزية MAR، وعندما قالوا له أن عمر اسم غير تجاري، أخبرهم أن أحد أشهر شركات الشاي في العالم والتي توزع منتجاتها في سبعين دولة تدعى «شاي أحمد AHMAD TEA»، وبالتأكيد أحمد ليس تجارياً أكثر من عمر، وأهم شيء هو جودة الإنتاج والمسميات أشياء فرعية. حاول الركض خلف حلمه بعد التخرج، عرض المشروع على بعض المستثمرين وبعض المسئولين في الحكومة، وقوبل مشروعه بالرفض والتهكم، وأحياناً بالإهتمام في البداية.. ثم

الإكتشاف أن الشخص الذي اهتم به في المرة الأولى لا يذكر من هو عندما يزوره مرة أخرى. أصابه اليأس بعد عام، وأذعن لرغبة والدته في العمل بشركة المقاولون العرب كوالده، قاموا بتعيينه في قسم مختلف تماماً عن مجال دراسته التي أحبها في الميكانيكا، أصبح ضمن الفريق المسئول عن استلام أعمدة الكهرباء من الشركات التي تعمل لحساب المقاولون العرب من الباطن. بعد عامين من العمل قامت والدته بجمعه بإحدى بنات نسائبهم، وجدوا أن كلاهم مناسب للآخر وتم الإتفاق على الزواج. الآن، يعمل عمر كالثور في الساقية لتلبية احتياجات أسرته الغير صغيرة، لا يلتفت إلى الوراء، فكثرة العمل والإنشغال به تنسي أحلام الماضي.

ظل عمر يثرثر مع زينة عن وائل وحبه الشديد له، وأخذ في الإعتذار عن عدم علمه بأنها استيقظت، وظل يخبرها ويؤكد لها أكثر من مرة أنه كان يزورها في العام الأول من الغيبوبة، لم يفقد الأمل بعدها ولكن رؤيتها على هذه الحالة كانت مؤلمة.

بعد أن انتهوا من الغداء وشربوا الشاي، قالت له زينة:

«هناك مايؤرقني وأريد مساعدتك يا عمر، هل من الممكن أن يكون وائل قد قتل؟ أنا واثقة أن هذا الحادث مدبر، وأريد البحث عن المسئول عنه»

نظر إليها بإندهاش وكأنه صعق، ثم قال:

«وائل؟ يقتل؟ مستحيل.. لقد كان أفضل وأشرف من قابلت في حياتي، صديق العمر كما يقولون، كان الجميع يحبونه ويحترمونه،

لا يمكن أن يكون هناك من أراد قتله أو حتى أذيته، لا أعلم ما الذي جعل هذه الفكرة تدور برأسك، أعلم أن حزنك شديد عليه، أنا أيضاً، أفكر فيه في الكثير من الأوقات، خصوصاً عندما أحتاج إلى صديق بجانبي»

صمت قليلاً ثم تابع بحزن:

«كنت أول من وصل إلى الحادث، اتصلوا بي لأنني كنت آخر رقم هاتفه وائل قبل العرس، وجدت مقطورة كبيرة تتصاعد منها النيران بجانب سيارتكم، عندما نظرت إليك وقتها لم أتوقع أن تعودي إلى قيد الحياة، ولكن لله معجزات»

علمت زينة أن عمر لن يفيدها في شيء، لذلك فتحت موضوعاً آخر، ظلوا يتحدثون لساعتين، أخبرها خلالهم أن ابنه الكبير يتدرب على السباحة وسوف يكون ضمن منتخب مصر في أحد الأيام، وابنه الآخر سيكون عالماً، يحب العلوم والتجارب، في العام الماضي حصل على جائزة أفضل تجربة علمية في المنطقة، وقام بتكريمه أحد المسئولين، وابنته الصغيرة ستكون فنانة، تحب العزف والرسم والغناء، الكثير من المواهب ولكنها ستستقر على أحدها وتبهر الناس من خلالها. في خلال حديث عمر، شعرت زينة أنه ليس حزيناً لما آلت إليه حياته كما كانت تعتقد، أحلامه التي وضعها في أطفاله أكبر بكثير من أحلامه الشخصية التي أراد تحقيقها، رأت السعادة والفخر في عينيه وهو يتحدث عنهم، وشعرت في هذه اللحظة، أنها لن تفتقد وائل وحده، بل ستفتقد أطفالهم الذين لن يأتوا أيضاً.

استأذنته في الإنصراف، ودعها هو وزوجته وأكدوا عليها أن تعيد الزيارة، وهم على الباب طلب منها الإنتظار قليلاً، وركض بداخل المنزل، عاد بعد دقيقة يحمل كتاباً، كانت رواية شفرة دافنشي، أخبرها أنه عندما وصل إلى مكان الحادث شاهد الرواية بجانب جثة وائل، فأخذها كذكرى أخيرة من توأم روحه وصديقه، ولكنها أحق منه بالإحتفاظ بها.

الفصل العاشر

يوسف، العلمين

بعد أن عاد يوسف إلى غرفته، أخذ بالتقليب في صفحات الكتاب الذي وجده في خزينة داليدا، عنوان ملفت للنظر ومثير للريبة، «أسرار العالم الجديد»، وما أضفى المزيد من الغموض على الكتاب غلافه القديم وأوراقه المهترئة، فشعر كأنه حصل على كتاب أثري مضى عليه الكثير من السنوات. بعد بضع دقائق من القراءة في عناوين الفصول والبداية في قراءة الصفحة الأولى غلبه النعاس، فنام ولم يستيقظ إلا في اليوم التالي.

في الثامنة صباحاً ذهب إلى شركة السافاري، أنهى الرحلة الأولى ثم أخبر سعيد أنه مضطر للإنصراف. ذهب إلى الفندق وسأل إن كان هناك أي أخبار عن داليدا، أخبروه أنه لم يظهر لها أي أثر، فاتجه إلى قسم الشرطة، طلب عمل محضر اختفاء، أخبر الأمين أن فتاة تدعى داليدا اختفت منذ ثلاثة أيام، أعطاه مواصفاتها وحكى له متى اختفت بالتحديد وآخر مرة شوهدت فيها على كاميرات المراقبة.

بعد أن دون الأمين كل البيانات سأله ما علاقته بالفتاة، أخبره أنها صديقته، فنظر له الأمين بإستهجان وقال:

«صديقتك؟ أين تظن نفسك في أوروبا؟»

قام بعدها بتمزيق الأوراق وطلب منه أن يأتي أحد من عائلة الفتاة لعمل المحضر، أخبره يوسف أن والدي الفتاة متوفيين وليس لها أقارب، قال له الأمين أنها ليست مشكلته، وطلب منه الإنصراف بالذوق ويكفي الوقت الذي أضاعه.

خرج يوسف غاضباً من القسم، وذهب مباشرة لمكتب مستر آدم ليشكو إليه ما حدث.. كما اعتاد هو والكثير من العاملين بالفندق عندما تواجههم المشكلات.

بعد عشرين دقيقة من انتظار مستر آدم دخل إليه، حياه الرجل بحرارة وطلب منه الجلوس على المقعد المقابل لمكتبه، سأله ماذا يحب أن يشرب، تمنع يوسف محرجاً ثم طلب أي عصير بارد، إذ إنه لا يشرب الشاي في الخارج، يجب عليه عمله بنفسه حتى يتأكد من جودته وطريقة تحضيره. بعد أن سأله مستر آدم عن أحواله وأحوال شركته ومعدل اشتراكات السائحين في رحلاته.. سكت ناظراً إليه في انتظار أن يطلب ما أتى من أجله، فقال له يوسف أن داليدا اختفت منذ ثلاثة أيام ولم يتم العثور لها على أي أثر، وأنه ذهب إلى قسم الشرطة لعمل محضر اختفاء، ولكنهم أخبروه أنه لا يمت لها بصلة وليس له أي صفة قانونية تمكنه من عمل مثل هذا المحضر.

بعد أن أنهى يوسف كلامه أمسك مستر آدم هاتفه المحمول، طلب رقماً وانتظر بضعة ثواني حتى أجاب الشخص على الطرف الآخر، قال له أن يأتي إلى مكتبه على الفور. أغلق الهاتف وقال ليوسف:

«سيأتي مأمور القسم الآن، سأخبره أن هذه الفتاة في غاية الأهميةبالنسبة للفندق حتى يبدأ البحث عنها. ولكن هل لي أن أسألك عن سبب اهتمامك الشديد بها، أعلم أنك كنت مقرباً منها في أحد الأيام، ولكنكم لم تعودوا مثل السابق أليس كذلك؟»

حار يوسف في الجواب، ووجد أنه للمرة الأولى يسأل نفسه هذا السؤال، بالتأكيد لم يعد وداليدا مقربين مثل السابق، وفي المرة الأخيرة التي رآها حدثت بينهم مشادة لا تبشر بخير، قال في لهجة مترددة وكأنه يبحث عن الكلمات وسط حقل ألغام:

«كانت.. كانت صديقتي في أحد الأيام، وأنا.. أنا شخص لا ينسى أصدقاؤه، مهما حدث بيننا»

هز مستر آدم رأسه في تفهم، وأخبره أن الفندق أيضاً لا ينسى موظفيه، وسيبذل الكثير من الجهد للعثور عليها، ثم قال له:

«ليت الجميع مثلك يا يوسف، لدي موهبة رؤية النفوس من الداخل، وأنت طيب رغم شراستك في الدفاع عمن تحب»

نظر إليه يوسف وابتسم في امتنان، في هذه اللحظة دخلت السكرتيرة وأخبرت مستر آدم أن العقيد حسن صفوت يريد مقابلته، أشار لها أن تدعه يدخل. دخل العقيد حسن وصافح مستر آدم بحرارة مبالغ فيها،

هز رأسه تحية ليوسف ثم جلس على المقعد المقابل له. قال له مستر آدم:

«أحد أهم موظفات الفندق اختفت منذ ثلاثة أيام، ونريد العثور عليها»

على الفور أجاب العقيد حسن بحماسة من يحدث رئيسه أو شخصية ذات أهمية قصوى:

«يمكنك اعتبار أن البحث عنها قد بدأ، سنقلب العلمين رأساً على عقب للعثور عليها، هذه منطقتنا ولا يوجد ما يختفي بداخلها من دون علمنا»

هز مستر آدم رأسه برضا وقال له:

«سيذهب يوسف معك إلى القسم حتى يعطيك أوصافها وملابسات اختفائها»

«بالتأكيد، يمكنك اعتبار الأمر منتهي، أي شيء آخر؟»

«شكراً لك، هذا كل ما أردت إخبارك به»

وقف العقيد مستأذناً في الإنصراف، خرج معه يوسف، وقبل أن يغادر وجه كلمات الشكر إلى مستر آدم، لكن الأخير أشار له بيده أن لا عليه.

ذهب يوسف مع العقيد حسن إلى القسم، جلس في مكتبه وتم سؤاله عما يريد شربه، أجاب بأي شيء، فطلب له حسن مثله كوباً من القهوة، مشيراً إليه بيوسف بيه. نادى بعدها على الأمين،

نفس الأمين الذي مزق الأوراق وطرد يوسف منذ ساعة، جلس أمامه كحيوان أليف يطلب رضا مالكه، أمسك القلم والورقة وكتب كل ما قاله يوسف بالتفصيل، عن داليدا وكيفية اختفائها وكل المعلومات الخاصةبالمقربين منها في الفندق.. من أصدقاء وزملاء.

أنهى الأمين كتابة كل شيء وانصرف. أعطى العقيد حسن ليوسف رقم هاتفه وطلب منه أن يتصل به إذا حدث أي جديد، وأخذ رقمه ليطلعه على التطورات أول بأول. شكره يوسف بحرارة، ثم غادر القسم.

عاد إلى غرفته، وجد أن الساعة لا تزال الثالثة، لن يستطيع النوم الآن ولن يعود إلى العمل.. إذ إنهم الآن في منتصف الصحراء يقومون بالشواء. جلس على السرير وأخذ يحدق في الفراغ، تذكر وقتها كيف اعتاد أن يفرغ شحنات غضبه وحنقه في الماضي.. عن طريق ممارسة الملاكمة. لم يضع وقتاً، قام بتغيير ملابسه، ارتدى تي شيرت أبيض قديم وشورت أسود واسع وحذاء رياضي. فتح خزانة الملابس، وأخرج منها قفازات الملاكمة ماركة «إفرلاست EVERLAST»، سوداء اللون وقد تشقق جلدها منذ زمن، ولكن يوسف احتفظ بها كتذكار لأيام المراهقة.

لازال يتذكر المرة الأولى التي أراد فيها أن يكون ملاكماً، كان في الصف الأول الثانوي، يقف في غرفة التربية الرياضية مع مدرس الألعاب في المدرسة، وجد أمامه قفازات الملاكمة، ارتداها وبدأ في مشاكسة المدرس، عن طريق المزاح ضربه في صدره وكتفيه، فما كان

من المدرس الشاب إلا أن وجه قبضته في لكمة سريعة إلى أسفل فك يوسف، لم تكن الضربة قوية أو حتى عنيفة، ولكن يوسف تراجع خطوتين إلى الوراءوسقط أرضاً. شعر بعدها بفكه يؤلمه، وأنه لا يستطيع الجز على أسنانه دون الشعور بالألم، علم بعدها أن ضربة أسفل الفك تسمى الضربة القاضية، وأنها أقوى ما يمكن للاكم أن يسدده لخصمه. بعد هذه الواقعة اعتذر المدرس كثيراً ليوسف، وأخبره أنه لم يكن يقصد أن تكون اللكمة بهذه القوة، ولكن يوسف شكره بشدة، لأنه اكتشف وقتها شغفه الكبير بالملاكمة. أحب الوقوف في منتصف الحلبة والنظر لخصمه في عينيه، أحب طريقة التحرك التي تعطيك الكثير من الثبات على الأرض، أحب تفادي اللكمات والبحث عن فرصة توجيه لكمة إلى فك الخصم، عشق شعور الأدرينالين وهو يتسرب في عروقه وقت المباريات، أحب التمارين والمحافظة على وزنه ورشاقة جسده، عشق هذه الرياضة حتى النخاع. وأكثر ما أحبه فيها.. أنك في الحلبة تعرف من هو خصمك، على عكس الحياة في الخارج، التي نمضي فيها كالعميان، الصديق ينقلب عدو والعدو ينقلب صديق.

دخل إلى الصالة الرياضية، ارتدى قفازاته السوداء القديمة، ووقف أمام الكيس الرملي المعلق في السقف، الذي يستخدمه الملاكمون لضربه. وكأنه فقد عشر سنوات من عمره.. عاد مراهقاً كل همه في الحياة هو ضرب الكيس الرملي أمامه بأقسى قوته.. حتى يثبت للمدرب أنه على استعداد لدخول الحلبة وملاكمة أحد زملائه.

ظـل يضرب الكيس أمامه بقبضتيه وأحياناً عن طريق مرفقيه وركبتيه كلاعبي رياضـة الموي تـاي Muay Thai التايلانديين. بعد عشرون دقيقة سقط على الأرض، أخذ يلهث وهو غارقاً في العرق، ليت الحياة بهذه السـهولة، هذا الكيس هو خصمك، اضربه بأقصى ما تسـتطيع، وهذه الفتاة تحبك، وهذا الرجل صديقك، ولن يتغيروا مع الوقت.

غادر الصالة الرياضية وعاد إلى غرفته، قام بالإستحمام، ثم دخل إلى السرير. قبل أن ينام فتح هاتفه المحمول، نظر إلى قائمة الأغاني، ثم اختار أن يستمع إلى أغنية «حب بدماء باردة» لفرقة HIM المفضلة لديه. بدأت الموسيقى، وبدأ المغني الرئيسي في الغناء، صوته جميل، يحمل بين جنباته الرقة والحزن والرغبة في الإنتحار، يغني بصوت من على وشك البكاء ويقول «عزيزتي.. خذيني إلى البيت.. إلى قلعة مكونة من الجماجم والهياكل العظمية.. غني لي أغنية تذكرني بمن أنا.. ضميني.. يا من أحببتني بدماء باردة».

أعاد الإستماع إلى نفس الأغنية ثلاث مرات، قام بعدها بتشغيل «حارة العشاق الموتى»، ظل يعيدها إلى أن غلبه النوم.

* * *

استيقظ يوسف في الثانية عشر والنصف مساءً، ظل يتقلب في السرير بعض الوقت، ثم ارتدى ملابسه وذهب إلى البار للسهر مع نادر وعاطف.

وصل يوسف البار بعد الواحدة بقليل، وجد نادر وعاطف يتجادلون وصوتهم بدأ يعلو، كالعادة.. نادر الذي لا يزال يحتفظ

بأفكاره الثورية القديمة، وعاطف المحافظ الذي لا يريد شيئاً من الدنيا إلا أن تتركه يعمل ويوفر لقمة العيش لأسرته.

قال نادر:

«يمكنك أن تصرخ حتى توقظ النائم، ولكن مهما صرخت لن توقظ من يتظاهر بالنوم، أنت تتظاهر بالرضا عما يحدث حتى تريح ضميرك، كل سجين ذنبه معلق في رقبتك ومن هم على شاكلتك، الكتلة الصامتة التي تحسب مع الفائز أياً كان»

رد عاطف بعصبية:

«تريد أن تعترض على أي شيء، لا تستطيع العيش والعمل من سكات، جميع المساجين لديهم قضايا سيحاكمون عليها، توقف عن قراءة كتبك القديمة التي أفسدت عقلك وشاهد ما يحدث على التلفزيون، حتى تدرك فداحة ما وصلنا إليه»

«التلفزيون.. المعروف حالياً بالإعلام، ممم، لا أستطيع أن ألومك، فالإعلام أهم من الحقيقة»

قال عاطف على الفور:

«الإعلام هو الحقيقة»

«سأسألك سؤالاً، ما هي البلد التي بدأت صناعة الهمبورجر؟؟»

نظر إليه عاطف.. ثم قال بعصبية:

«أتمزح معي؟؟»

«كلا، أنا في غاية الجدية، وأتمنى أن تجيب عن سؤالي»

أجاب في سخرية:

«أمريكا، هي بلد الهمبورجر، ولكن ما دخل هذا بموضوعنا، شعرت أنه ليس لديك ما تقوله فأردت تغيير الموضوع لمسابقة معلومات عامة؟»

ابتسم نادر ثم قال:

«ألمانيا هي بلد الهامبورجر والهوت دوج أيضاً، وسمي بهذا الإسم نسبة إلى مدينة ألمانية تدعى هامبورج. ولكن الإعلام الأمريكي شعر أنه من المثير أن تنسب هذه الأكلة إليهم، لإكمال صورة راعي البقر، فبدأت تسوق لها في أفلامها وبرامجها، ونجحوا في هذا تماماً، فأصبح شاب جاهل مثلك.. يجيب بكل ثقة أن أمريكا هي بلد الهامبورجر. يمكنك قياس باقي المعلومات التي تتعامل معها كحقائق على هذا المنوال»

فقد عاطف أعصابه ووقف يصرخ في نادر أن يغادر البار ولا يتحدث معه مرة أخرى. وقف يوسف وشرع في تهدئته، إلى أن جلس وأشعل سيجارة وأخذ ينفث دخانها في عصبية.

تحدث هذه المشادة بينهم على الأقل مرة كل أسبوعين، وتنتهي نفس النهاية في كل مرة، يصرخ عاطف ويطلب من نادر المغادرة، فيقوم يوسف بتهدئته، ثم يشعل أحد سجائره ويبدأ في توزيع ورق الكوتشينة ويلعبون كأن شيئاً لم يكن.

قام عاطف بتوزيع الورق وعكف كل منهم على ترتيب أوراقه،

أخذ نادر يدندن بأحد أغاني رامي عصام الثورية: «في بورسعيد ضحايا شافوا الغدر قبل الممات.. شافوا نظام خير ما بين حكمه والفوضى في البلاد.. كان فاكر حكمه يوم هيخلي في أعلى مكان.. والشعب الثوري يركع للعسكر زي زمان»

قاطعه عاطف بهدوء ظاهري:

«هل تعلم لماذا تعيش وسط نظرياتك الثورية، لأنه لا أهل لك، لم تغادر الفندق منذ أكثر من عامين، لم تتحدث عن عائلتك من قبل، لهذا تشعر بالفراغ، أما أنا فعلي أن أوفر الطعام لخمسة أفواه، هذا غير الكساء والمدارس، لا أريد شيئاً غير أن أترك بسلام، لا تطلب تغيير النظام وأنت لا تستطيع أن تساعدني عندما أفقد عملي ولا تجد أسرتي طعاماً»

تجهم وجه نادر، لم يعلق ولم يرفع عينه عن الورق، ثم أخبرهم أنه سيبدأ اللعب.

استمر اللعب في صمت لنصف ساعة، لم يتحدثوا ولم يضحكوا خلالها على غير عادتهم، وشعر يوسف أن عاطف قد جرح نادر أو نكأ جرحاً قديماً لديه. بعد قليل استأذن عاطف في الإنصراف، أخبرهم أن لديه مصلحة يجب عليه إنهاؤها، وطلب منهم إغلاق البار عند إنصرافهم.

فور انصرافه ترك نادر ورق الكوتشينة، تعابير وجهه لا زالت متجهمة، غادر مكانه ووضع الماء ليغلي، وبدأ بتجهيز كوبين من الشاي. بعد أن وضع كوباً أمامه وآخر أمام يوسف قال:

«هل من أخبار عن داليدا»

في ضيق أجاب يوسف:

«لا يوجد جديد، ولكنني ذهبت إلى قسم الشرطة وقمت بتحرير محضر»

ثم قص عليه ما حدث في القسم وكيف ساعده مستر آدم. بعد أن انتهى سكت قليلاً وأخذ يرشف الشاي، ثم قال:

«لا أعلم.. هل أنسى أمر داليدا أم ماذا، أحياناً أفكر أنني حتى لا أعرف هل تبادلني الحب أم لا»

من دون تردد أجاب نادر:

«بالتأكيد لا، ابذل كل ما تستطيع من أجل فتاة تحبها، لا أحد يعلم هل سيجد حباً مرة أخرى أم لا»

سكت قليلاً ثم أضاف بصوت حالم:

«الحب هو هدية الله لنا، لأنه يعرف مدى حجم الإحباطات والإخفاقات التي سنواجهها في الحياة، فأراد تعويضنا بشيء روحاني يشعرنا بالسلام الداخلي، شيء لا يستأثر به الأثرياء أو الأقوياء وحدهم، ولكن شيء يمكن لأي اثنان أن يمتلكوه مهما كانت حياتهم»

لم يرد يوسف، فأكمل نادر قائلاً:

«من الممكن أن تواجه الجحيم على الأرض في الصباح، ثم يأتي عليك الليل وتنام بين ذراعي امرأة تحبك، فتنسى كل ما حدث. هل تعلم أنني ارتبطت بفتاة وتقدمت لخطبتها من قبل؟»

رفع يوسف رأسه وقال في دهشة:

«كلا لم تخبرني»

«رغم سنين عمري التي ضاعت في مظاهرات واعتقالات ذهبت سدى، فراق خطيبتي هو الشيء الوحيد الذي أندم عليه حالياً، كانت الفتاة الوحيدة التي أحبتني حباً أفلاطونياً جعلها تتغاضى عن حياتي في صفوف المعارضة، هذه الحياة التي يطلقون عليها على كف عفريت، لأنك لا تعلم متى ستطرق الشرطة باب منزلك ويجرونك إلى السجن، بالإضافة لعدم التركيز في أي عمل مربح فتصفى مفلساً معظم أيام الشهر»

«لماذا تركتها إذن؟»

«لم أتركها، أجبرها والدها على تركي، لم يكن معجباً بي منذ البداية ولكنه قبل على مضض بعد ضغط مستمر من ابنته، زرتهم ثلاثة مرات، المرة الأولى مع والدي ووالدتي، المرة الثانية مع بقية أقاربي، والمرة الثالثة للإتفاق على الأمور المادية وتحديد موعد الخطبة. في هذه الزيارات الثلاث ارتديت بدلة كاملة ولكن من دون رابطة عنق، قال لي مداعباً أن أحرص على ارتداء رابطة عنق في حفل الخطبة، فسألته هل تعلم ما هو أصل رابطة العنق؟ وقلت له أن المحاربون القدماء في كرواتيا كانوا يربطونها حول رقابهم حتى يضفوا الرهبة والشراسة على أشكالهم، ثم أصبح رؤساء وأعضاء مجالس الإدارات في الشركات العالمية يرتدونها فوق القمصان.. لإضفاء الجدية على مناظرهم وهم يتفاوضون ويعقدون الصفقات. لهذا لا تطلب مني

أن أرتديها وأنت لا تعرف ما معناها.. وأنني أرفض مشـاركة ملايين الرجال في جهلهم»

صمت قليلاً ثم أضاف بلهجة من يشعر بالذنب:

«ثار والدها وطلب مني مغادرة منزله، رجتني خطيبتي بعدها أن أعتذر منه ولكنني تمسكت بموقفي، كنت أفكر وقتها أنه لا يمكنني أن أتغاضى عن أي من مبادئي، ولا يمكنني أن أعتذر عن شيء صحيح قلته، كانت النتيجة هي انفصالي عن الفتاة الوحيدة التي أحببتها وأحبتني. لست نادماً على شيء غير هذا الحب الذي أضعته من يدي بعنادي»

سأله يوسف في تعجب:

«ما علاقة قصتك هذه بداليدا واختفائها؟؟»

«ما أقصده هو أنه يجب عليك بذل كل ما تستطيع للبحث عن الفتاة التي أحببت، حتى إن اضطررت للتخلي عن بعض من كبريائك، وحتى إن لم تكن واثقاً من اكتمال علاقتكما في المستقبل، لا تفكر بجدوى ما تفعله، المهم أن تبذل أقصى جهدك حتى لا يأكلك الندم فيما بعد كما يحدث معي»

الفصل الحادي عشر

زينة، القاهرة

تأقلمت زينة مع وحدتها، توقفت عن محاولة الإتصال بأخواتها وصديقتها، ولم يعد كلام والدتها يزعجها كالسابق، منذ أن أصبح لديها هدف.. حتى وإن كان بعيد المنال وخيالي كما يخبرها الجميع.. وحتى إن اتهموها بالخبال بسببه، إلا أنه هدف يشغل بالها ويعطيها بعضاً من السلام النفسي بأن لحياتها معنى.

في اليوم التالي بعد مقابلتها عمر، بدأت قراءة الرواية التي أعطاها لها، رواية شفرة دافنشي، تمزق جزء كبير من غلافها الخارجي ولكن ورقها من الداخل لم يتأثر. رغم أنها رواية شهيرة قرأها ملايين من الناس، إلا أنها لم تقرأها من قبل، بهرتها سرعة الأحداث في الرواية، من الصفحة الأولى هناك جريمة قتل غامضة راح ضحيتها القائم على متحف اللوفر في باريس، وفي الدقائق الأخيرة قبل موته بدا أنه يحاول إيصال رسالة إلى شخص ما، فقد خلع ملابسه كاملة، ونام عارياً على ظهره وقد فرد أطرافه ليبدو جسده مثل النجمة الخماسية،

ثــم غمــس إصبعه في جــرح معدته واســتخدمه كقلم ليرســم نجمة خماسيةعلى معدته العارية.

مع أحداث الرواية المثيرة هناك كماً هائلاً من المعلومات، لأول مرة تعرف أن النجمة الخماسية ليست رمزاً لعبادة الشيطان، بل هي رمزاً يعود لما قبل نزول الديانة المسيحية، وتدل على عبادة الطبيعة، فقد كانت القرى قديماً تعتقد أن العالم منقسم إلى نصفين، مؤنث ومذكر، وكلاهما يعملان معاً للمحافظة على قوى الطبيعة، إذا كان هناك توازناً بينهم فسيكون هناك تناغماً في الطبيعة، وإذا غاب التوازن تعم الفوضى، ورمز النجمة الخماسية يمثل النصف المؤنث في كل الأشياء، ومن الأسماء التي كانت تطلق على هذه النجمة فينوس، نسبةً إلى كوكب فينوس.. لأنه يحدد خلال دورانه في السماء نجمة خماسية كاملة كل أربع سنوات. وبعد نزول المسيحية، بدأت الكنيسة تشن حملة تشويه على جميع هذه الرموز للقضاء على العبادات الوثنية، فإتهمتها أنها لعبادة الشيطان، ونسجت حولها الكثير من القصص المخيفة، فإرتبطت عند أذهان الناس بالشيطان والإتصال بالجان. من الرموز الأخرى التي نجحت الكنيسة في ربطها بعبادة الشيطان قبعة العجوز الحكيمة المدببة.. فأصبحت رمزاً للساحرة الشريرة الشمطاء، ورمح بوسيدون إله البحر ذو الأشواك الثلاثةأصبح شوكة الشيطان.

لا عجب أنها كانت رواية وائل المفضلة، هكذا قالت زينة بعد انتهائها من هذا الفصل، وقبل أن تبدأ في قراءة الفصل السابع رن هاتفها، نظرت إلى شاشته فوجدت رقماً خاصاً، ضغطت زر الإجابة،

فأتاها صوت هادىء لشاب توقعت أنه في منتصف الثلاثينات، أخبرها أنه يدعى سامر، وقد كان زميل وائل زوجها الراحل في الجيش، ويريد مقابلتها للإطمئنان عليها والسؤال عن أحوالها. سألته زينة قائلة:

«ولكنني لا أذكر أي من أصدقاء وائل بهذا الإسم، هل حضرت عرسنا؟»

بصوته الواثق أجاب:

«لا للأسف، كنت خارج القاهرة، كان عرسكم في العام الأول للثورة، تعرفين كيف كنا مشغولين في هذا العام»

صمتت زينة، ثم قالت بتردد:

«لما.. لماذا تريد مقابلتي؟»

«لقد كان وائل أفضل من قابلت على الإطلاق، كل فريقنا يدين له وأنا أولهم بالفضل. من النادر مقابلة رجل مثله في هذه الأيام، لذلك الجلوس مع من يحمل ذكرياته كنز لا أريد تفويته»

ككاتب ماهر يكتب ما يريد الناس قراءته، قال سامر أفضل ما يمكن لإمرأة مثل زينة سماعه، لذلك رغم عدم تذكرها لأي موقف ذكر فيه وائل اسم سامر.. إلا أنها وافقت على مقابلته، وحددوا موعداً في المساء بأحد المقاهي في المجمع التجازي بمدينة نصر.

بعدما أغلقت الهاتف، ظلت لأكثر من نصف ساعة تحاول تذكر أي حديث عابر ذُكر فيه اسم سامر، ولكن لم تسعفها ذاكرتها.

أكملت قراءة الرواية، أنهت ثلاثة فصول قبل أن يصل والدها إلى المنزل وتغادر غرفتها لتناول غدائها معه.

في السادسة غادرت المنزل، وبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة أوقفت سيارتها في الجراج الخاص بالمجمع التجاري، عشر دقائق أخرى وكانت جالسة في المقهى المتفق عليه.. تتلفت حولها بتوتر في انتظار المدعو سامر.

لم يطل انتظارها، بعد بضع دقائق وقف أمام طاولتها شاب طويل ذو جسد ممشوق، حليق الوجه قصير الشعر، يرتدي بدلة سوداء مع رابطة عنق حمراء، كان وسيماً إلى حد ما، ولكنها وسامة خشنة، كأنه لاعب كرة قدم وقد ارتدى ثياباً رسمية لإستلام أحد الجوائز. مبتسماً قال لها:

«مرحباً، أنا سامر، ظننت أنك لن تتذكريني ولم يخب ظني. هل لي بالجلوس؟»

أشارت بيدها إلى المقعد أمامها علامة أن تفضل. وشعرت وقتها بمدى سذاجتها، مكالمة هاتفية تجعلها تجلس مع شاب غريب عنها تماماً.. لا تتذكر أنها رأته من قبل، مدعياً أنه صديق لزوجها الراحل. طمأنت نفسها بأنها داخل مجمع تجاري شهير يعج بالناس، حتى سيارتها تركتها داخل الجراج الخاص بالمجمع وليست في الشارع العام.

«كيف حصلت على رقمي؟»

سألته في تحدي، وكأنها تريد أن تتأكد من الشخص الجالس أمامها عن طريق اختبار إجاباته.

«عن طريق أحمد وزياد، أخبراني أنك اتصلت بهما وطلبت مقابلتهما»

كان هذين هما الضباط زملاء وائل الذين قابلتهم زينة في المقهى منذ بضعة أيام. اطمأنت قليلاً لإجابته، وجدتها منطقية واستغربت لماذا لم تفكر فيهم من قبل.

«كيف حالك؟ رغم أنك تبدين مدهشة ولازلت تحتفظين بجمالك كأن شيئاً لم يحدث.. إلا أنني أستطيع الشعور بالفراغ الذي بداخلك، كأن كل شيء تحول إلى الأبيض والأسود واختفت منه الألوان تدريجياً. أنا مثلك تماماً، موت وائل خلف داخلي فراغ لم يخلق الصديق الذي يمكنه ملؤه»

كانت زينة ترتدي تنورة بيضاء طويلة تغطي كعبها، وفوقها بلوزة زرقاء ذات أكمام قصيرة، ووجهها خالٍ من أي مساحيق. الآن فقط، تذكرت أنها لم تستمع إلى أي كلمة تشير إلى جمالها منذ أن استيقظت، جميع من قابلها واساها على فقدان وائل، وعاملها برفق كما يعامل طفل صغير. شعرت بالإمتنان قليلاً تجاهه، لم تكن مغازلة صريحة أو فجة، ولكنها جعلتها تشعر بالسعادة. قالت له وقد بدأت لهجتها تلين:

«قدر الله وما شاء فعل، إنه قضاء الله ولا مهرب منه»

أرادت أن تسأله لماذا لا تستطيع تذكره تماماً، فقد قابلت جميع أصدقاء وائل، في حفل الخطبة ويوم عقد القران وفي العرس، هذا غير المناسبات المتفرقة، من أفراح الأصدقاء وأعياد الميلاد، ولكنها تراجعت عن السؤال، فأي شيء يسقط من ذاكرتها يجعل الناس يعاملونها على أنها لم تسترجع جميع قواها العقلية بعد.. كما تفعل أسرتها وصديقتها الوحيدة منذ أن استيقظت.

بعد أن جاء النادل وأخذ طلبات كل منهم، أخذ سامر في التحدث عن ذكرياته مع وائل، وكلما تحدث أكثر كلما زاد يقين زينة أنه كان صديقاً لزوجها، أو ربما زميلاً لأن جميع المواقف التي حكاها لها علاقة بعملهم، سفر ومأموريات داخل وخارج القاهرة، زملاء مشتركين، مواقف مضحكة حدثت لوائل عندما كان طالباً في الكلية الحربية، ومواقف أخرى عندما كان ضابطاً حديث التخرج.

جاء النادل ووضع عصير أزرق اللون أمام سامر، وكوباً من القهوة الأمريكية أمام زينة، ارتشف كل منهم مشروبه في صمت، ثم قال سامر بتلقائية:

«أخبرني أحمد وزياد أنك تعتقدين أن الحادث الذي أودى بحياة وائل مدبر. ما الذي جعلك تقولين ذلك؟ أعلم أن هناك سيارة نقل كبيرة انحرفت عن مسارها واصطدمت بسيارتكم، مما يجعله حادثاً طبيعياً كمئات الحوادث التي تحدث على الطريق هذه الأيام»

بعد فترة من الصمت احترمها سامر ولم يقطعها قالت زينة:

«أنت أول من يسأل عن السبب في اعتقادي، الجميع عاملني على

أنني مجنونة، حتى أحمد وزياد.. رغم نفيهم لما أعتقد بشدة، لم يكلفوا أنفسهم بسؤالي عن السبب. لن يهمك معرفته، ولكنني سأخبرك به على أي حال»

صمتت لبرهة، ثم تركت الكوب من يدها واستندت بمرفقيها على الطاولة وقالت:

«قبل الحادث بأقل من دقيقة، عندما اقتربت المقطورة من سيارتنا، وبدأت تصطدم بنا من الخلف، أخذ وائل في الصياح وإعطاء تعليمات للسائق كي يبتعد عنها ويتجنب الإصطدام، وفي اللحظات الأخيرة.. نظر إلي، ثم قال: أنا آسف.. لم أكن أتخيل أن أضعك في مثل هذا الموقف.. ال..

لم يكمل جملته وحدث الإصطدام، كنت أشعر أن هناك تكملة لكلامه، ولكنني لا أتذكر شيئاً بعدها»

هز سامر رأسه ثم قال:

«من الممكن أن يكون حزيناً لأنك ستتعرضين لحادث»

أجابته على الفور بلهجة تحمل القليل من العصبية:

«هناك الكثير من الإحتمالات، ولكنني كنت بجانبه، بجانب الرجل الذي أحب، وأعلم جيداً ما الذي كان يقصده، عينيه والكلمات القليلة التي قالها لا تحمل غير معنى واحد، هناك من أراد قتل وائل»

هدأ سامر من روعها وقام بتغيير الموضوع، بعد أن هدأت قليلاً وارتشفت ما تبقى من قهوتها قال:

«لا تحزني، هو عند الله، نحسبه في الجنة مع الشهداء، فقد قام بخدمة بلاده وشعبه بإخلاص، أنا أكثر من يشهد على ذلك»

صمت قليلاً ثم قال:

«ما هي الذكريات التي تركها لك وائل، أعتذر عن التطفل ويمكنك إيقافي إذا تخطيت حدودي، ولكن بعيداً عن ذكرياتكما الخاصة، هل يوجد مذكرة كتب فيها أشياء شخصية، أو تسجيل صوتي، أريد أي شيء يحمل شيئاً من أفكاره، هذا هو ما يمكن أن يذكرني بأيامي معه، كل ما لدي بضعة صور أخذناها ونحن في الكلية»

نظرت إلى أعلى وهي تفكر، ثم قالت:

«كلا.. لا أعتقد، لم أعثر على أي شيء يخصه، بخلاف صورنا وبعضاً من ملابسه ومحموله القديم. حتى إذا كان هناك شيئاً ضمن مقتنياته.. فقد تخلصت عائلته من جميع ما يخصه بعد الحادث، حتى لا تسبب لهم الألم. كان هذا منذ أربع سنوات»

هز رأسه متفهماً وقال:

«أعلم، لم يكن لدي أمل كبير في العثور على شيء، ولكن لا ضير دائماً من المحاولة»

أنهى كلامه وابتسم بدفء.أخبرها أنه يجب أن ينصرف، دفع الحساب، ثم عرض أن يوصلها إلى منزلها، ولكنها أخبرته أنها جاءت بسيارتها. ودعها متمنياً لها التوفيق، وطلب منها الإتصال به إذا احتاجت لأي شيء.

الفصل الثاني عشر

يوسف، العلمين

بعدما انتهت سهرة يوسف مع نادر، عاد إلى غرفته في الثالثة بعد منتصف الليل، قام بتغيير ملابسه وغسل أسنانه واستعد للنوم. وهو في السرير، أمسك كتاب «أسرار العالم الجديد» الموجود على الكوموود بجانبه، كان قد تصفح البارحة أسماء الفصول وبدأ في قراءة الصفحة الأولى، اليوم أخذ يفكر في هذه الأسماء التي قرأها، لا يمكن أن يكون كتاباً حقيقياً، لابد أنه نص خيالي يتوقع فيه المؤلف ما سيحدث في المستقبل، فقد كانت عناوين الفصول تتحدث عن السيطرة على العالم في القرن الحادي والعشرون، والإحتلال الغير عسكري للدول، والقوة العظمى الغير معروفة للمواطنين العاديين، وأسماء العائلات التي ستحكم العالم.

لم يجد لديه طاقة للقراءة، فأغلق الكتاب وأطفأ النور، ثم أغمض عينيه ودخل في النوم.

انتابته الكثير من الكوابيس هذه الليلة، كلها تتمحور حول عائلته وأسرته التي تركها منذ عامين.

توفي والد يوسف عندما كان في الخامسة من عمره، وتربى في كنف عمه وخاله، لم يبخلوا عليه بشيء، وعاملوه كما لو كان ابناً لهم وأكثر. تكفلوا بتعليمه المدرسي والجامعي، وحتى بعد التخرج وفروا له عملاً في شركة المقاولات التابعة لعائلة والدته.

كان العم والخال يتنافسون على رعايته، عمه لأنه مسئول منه شرعاً ووفاءً لوالده الراحل، وخاله إخلاصاً لوالدته وشعوره بالمسئولية تجاهه كيتيم. ظلت حياته هادئة وسعيدة، حياة شاب مصري من عائلة مقتدرة، لا يحمل هم البحث عن عمل ولا العثور على شقة للزواج، يعلم أنه بمجرد أن يرتبط بفتاة ستوفر له عائلته كل ما يحتاج.

إلى أن جاء العام ٢٠١٢، وأصبح رئيس الجمهورية أحد قادة الإخوان، حدث وقتها شرخ بين العائلتين، فعمه وعائلته من المؤيدين للإخوان، وخاله وأسرته من أشد المعارضين لهم، ظل هذا الشرخ يتسع، حتى ٣٠ يونيو ٢٠١٣، وقتها تحول الشرخ إلى عداء صريح، فعمه وعائلته يشاركون في مظاهرات ضد الجيش، وخاله يؤيد الجيش ويطلب منه إنهاء هذه المظاهرات. كلا الفريقين يتهم الآخر بالعمالة ويتمنى له الموت. لأول مرة يشعر يوسف بالضياع وعدم القدرة على اتخاذ قرار، عند الجلوس مع خاله يجده يتمنى الموت للإخوان ويؤيد استخدام العنف لإنهاء مظاهراتهم، وعندما يجلس مع عمه يجده يسب كل من يؤيد الجيش ويدعوا عليه بالهلاك.

كان أول من أخذ يوسف من يده وعلمه الصلاة في الجامع هو خاله، وأول من علمه قراءة القرآن هو عمه، كلاهما له الكثير من الفضل عليه في نشأته، ويمكنه أن يقسم أن كلاهما من أفضل الرجال على الإطلاق، فما الذي أوصلهم إلى الإختلاف لدرجة تمني الموت للآخر؟ ووالدته ليس لها رأي، تطلب منه السكوت ومجاراتهم في كل ما يقولون، حتى تمر هذه الأزمة. ولكن الأزمة لا تمر، بل تزداد ترسخاً في عقل كل مؤيد لفريقه.

بدأ الأمر مع يوسف بالإعتذار والبحث عن حجج مقنعة يتفادى بها حضور أي اجتماعات عائلية، سواء مع عائلة والدته أو مع عائلة والده الراحل، حاول كثيراً أن يجلس كمستمع، ولكنه لم يستطع، كلما تحدث عمه عن المؤيدين للجيش تذكر خاله، وكلما تحدث خاله عن الإخوان ومؤيديهم تذكر عمه، بذل الكثير من الجهد للجلوس صامتاً وعدم التأثر بما يقال.. ولكنه فشل تماماً، بعد كل اجتماع للعائلة يشعر بإكتئاب حاد يسيطر عليه ويجعل جسده ثقيل الحركة، كيف يسمع كلاماً سيئاً عمن رباه واعتنى به وأعطاه كل ما يتمناه أي شاب.. ثم يجلس صامتاً لا يستطيع الرد، وأحياناً يضطر للإيماء موافقةً عندما يوجهون له الحديث. أخذ يتهرب من أي اجتماع للعائلة، إلى أن توفي ابن عمه في أحد المظاهرات، حضر صلاة الجنازة والدفن، ثم أخذ قراره بالفرار والعيش بعيداً، سيهرب من كل ما يحيط به من وجع نفسي لم يعد لديه القدرة على احتماله، خاصةً بعدما أصبح هناك دماً مسفوكاً، دم ابن عمه وشقيق روحه، من كان ينام برفقته صغيراً،

ومن اعتاد زيارة الإسكندرية معه مراهقاً، ومن اعتاد طلب مشورته في أمور النساء شاباً، ذهب من دون رجعة.

عارضت أمه قرار سفره، ولكنه لم يكن يرى أمامه غير وجه ابن عمه الراحل، أراد الهرب عن كل ما يذكره به وبعائلته المنقسمة. جمع حاجياته واتجه إلى العلمين إثر مشورة أحد أصدقاء دراسته القدامى، عندما وعده بمساعدته على الإستقرار والبحث عن عمل.

داخل الحافلة التي تقله إلى العلمين جلس يوسف بجانب رجل عجوز، أخذوا يثرثرون عن حياة كل منهم إمضاءً للوقت، حكى له يوسف عن عائلته وسبب سفره وهروبه، فسأله العجوز أي جانب تؤيد، عمك أم خالك، نظر إليه يوسف لبضع ثواني، ثم قال بصوت يائس:

«أريد افتتاح مقهى»

استغرب العجوز، وقال له في دهشة:

«لا أسألك عن أحلامك، أسألك عمن تؤيد ليكون الحزب الحاكم، أجانب عمك أم جانب..»

قاطعه يوسف قائلاً:

«أعلم تماماً ما تقصده، وهذه هي إجابتي»

نظر يوسف إلى الشباك بجانبه، ثم استرسل في الحديث كأنه يكلم نفسه:

«أود أن أفتتح مقهـى راقي في منطقة هادئة، كنت أعمل في شركة مقـاولات تابعـة للعائلـة، ولكن لم يسـتهويني العمل فيهـا، فبدأت بالدراسـة والإعـداد لمقهـاي الخـاص، وقمـت بجميـع الخطـوات اللازمـة. قمت ببحـث دقيق لإختيار نـوع البن الذي سـوف أقدمه وكيفيـة الحصول عليـه، وبحثت بـين ماكينات إعـداد القهوة إلى أن وجدت مرادي، ماكينة ماركنة Delonghi ألمانية الصنع، تقوم بطحن البن الطازج بقوة ٣٢ بار، سأقدم شاياً من سريلانكا هو الأفضل على الإطـلاق، وسـأقوم بتقديم السندوتشـات والأطعمـة الجاهزة فقط لـن يوجد طبيـخ. اتفقت مع شركـة ديكور داخلي لعمـل التصميم، قمنا معاً بعمل تصميم يجمع بين الكلاسـيكية والحداثة، مع لوحات زيتية لأشـهر الطرق السريعة حول العالم، اخترت اسم المقهى، كنت سأسـميه «كونديرا»، نسـبةً لمقهـى كونديرا في روايـة الكاتبة التركية الشهيرة إليف شافاق «لقيطة إسطنبول»، كان المقهى الذي يجلس فيه بعض أبطال الرواية، ككاتب السيناريو ورسام الكاريكاتير والشاعر الغير موهـوب بجدارة وبطلة الرواية لقيطة إسـطنبول. أعددت كل شيء حتـى يكون لدي مقهـى، وكنت أنتظر الوقت المناسـب لأخبر خالي وعمي بمشروعي، ولكن الوقت المناسب لم يأتي»

ذهل العجوز الجالس بجانب يوسف، ولكنه كان يعلم جيداً، أن الناس تبوح بأسرارها ورغباتها الدفينة للغرباء، إذ لا يكون هناك مجال للإعتراض والتنظير. قال له العجوز بعدما أنهى كلامه:

«ولكن كان يجب عليك الإنتظار، لديك الكثير من الذكريات الجميلة مع عائلتك، ستعود هذه الأيام بالتأكيد»

«الذكريات هي التي تبقيني بعيداً، البعد يجعل الذكريات السيئة تتلاشى، ويقوم بتثبيت الذكريات الحسنة»

* * *

استيقظ يوسف وهو يشعر أنه لم يأخذ كفايته من النوم، قام بتغيير ملابسه لبداية روتين يومه المعتاد.

بعدما أنهى عمله في السادسة، جاءه رجل عجوز يرتدي جلباباً قذراً، طلب مقابلة يوسف صديق داليدا، فور أن سمع يوسف هذا الإسم أدخله على الفور، سأله عما يريد، قال له العجوز:

«أنت الذي تبحث عن صديقتك الضائعة»

«أجل أنا، هل لديك أي معلومات عنها»

«هل هي فتاة قصيرة، كانت ترتدي سروال ضيق أبيض اللون»

حاول يوسف تذكر ملابسها في المشهد الأخير لها على كاميرات المراقبة، كانت ترتدي جينز فاتح اللون، لن يعرف هذا العجوز الفرق بين الجينز الفاتح واللون الأبيض. أجابه يوسف:

«أجل، هل رأيتها؟»

«رأيتها منذ بضعة أيام، قبل الفجر بساعة أو ساعتين، كانت في سيارة كبيرة برفقة ثلاثة رجال، مروا من أمام المقابر ثم توقفوا، غادروا السيارة البيضاء، وركبوا أخرى سوداء، ثم اتجهوا داخل الصحراء ناحية الغرب. أنا حارس المقابر، وأرى كل من يمر من هناك في الليل»

صمت العجوز قليلاً ثم أضاف:

«أظن أنني أتذكرك، أنت الذي كنت تسهر معها منذ عام مضى تقريباً»

«وأين ذهبوا بعد أن اتجهوا داخل الصحراء؟»

«لا أعلم والله»

صمت كلاهما ثم قال العجوز بلهجة ذات مغزى:

«كل عام وأنت بخير»

أخرج يوسف من جيبه ورقة نقدية ووضعها في يد العجوز. تمتم العجوز بدعاء روتيني اعتاد ترديده بعد الحصول على النقود، ثم سلم على يوسف وانصرف. قبل أن يخرج من الباب ناداه يوسف قائلاً:

«مهلاً، هل تتذكر ما الذي كان يرتديه الرجال برفقة داليدا»

نظر العجوز إلى يوسف، ثم قال له:

«كانوا يرتدون جلباباً فوقه معطف أسود، وعمة على رأس كل منهم»

صمت برهة ثم أضاف مبتسماً:

«أنا وأنت نعرف من هم، ولكن إذا أخبرت أحداً أنني قلت شيئاً، سأقسم وأدعوا على نفسي بالموت إن كنت كاذباً.. أنني لم أرك في حياتي»

أومأ له يوسف متفهماً، فحياه العجوز مرة أخرى وانصرف. الموضوع كله معقد ويبدو بعيد الحدوث عن عالمهم الصغير.. الذي يتمحور حول الفندق والرواتب والحصول على حوافز آخر كل موسم وترتيب أيام الإجازات مع الزملاء، الإثارة الوحيدة التي يحصلون عليها هي عند نزول شخصية شهيرة معهم بالفندق، فيمضي من تعامل معه أو معها أسابيعاً في اختلاق قصص حدثت بينهم. في المجمل، لم يفده العجوز كثيراً، فيوسف يعلم أنها غادرت الفندق في سيارة رباعية الدفع، وقد أخبره نادر من قبل أن من انصرفت معهم هم البدو، ولكنه ضيق دائرة البحث قليلاً وأعطاه نقطة للبداية، من العلمين بأكملها إلى المقابر، هذا إذا كان صادقاً بالتأكيد. ولكن لماذا تذهب برفقة رجال غرباء إلى منتصف الصحراء؟ لا يمكنه التفكير في أي سبب يجعلها تذهب برغبتها، داليدا ليست هذا النوع من الفتيات، لابد أن يكون هناك سبباً قوياً جعلها تذهب معهم بملىء إرادتها.

أمسك هاتفه المحمول وطلب رقم نادر، أخبره بما قاله له العجوز، واتفقوا على الإلتقاء أمام الباب الرئيسي للفندق، والذهاب للمقابر لعلهم يعثرون على دليلاً جديداً.

بعد حوالي نصف ساعة، كان يوسف ونادر يترجلون من البيتش بجي ويقفون أمام المقابر. قال نادر:

«لا يمكنني التفكير في أي شيء قد يدفعها للمجيء إلى هنا، هذا بالإضافة لإصطحاب ثلاثة رجال نعتقد أنهم غرباء معها، هناك شيء غير منطقي. ولكن الأكيد أنهم من البدو كما أخبرتك من قبل»

قال يوسف:

«اختفاء داليدا غير منطقي في حد ذاته، لذا علينا أن نفكر بطريقة غير مألوفة. هناك مكان اعتدنا الذهاب إليه أنا وهي، ليس بعيداً عن هنا، وفي الإتجاه الذي وصفه العجوز حارس المقابر، دعنا نلقي نظرة»

ركبوا البيتش بجي مرة أخرى وانطلقوا. بعد قليل وقف كلاهما أمام نقش أسود.. مستطيل يميل من أسفل اليسار إلى أعلى اليمين، بداخله حروف ألمانية تقول Meine Ehre Heist Treue. قال يوسف:

Meine Ehre Heißt Treue

«عثرنا عليه أنا وداليدا عن طريق الصدفة، كنا نقود البيتش بجي وضللنا الطريق، وفوجئنا به أمامنا، نعتقد أنه من مخلفات الحرب العالمية الثانية»

كان نادر ينظر إلى النقش في انبهار، وأول ما فعله هو أن أخرج هاتفه المحمول وإلتقط له بضع صور، ثم قال ليوسف:

«إنه رائع، أشعر أنه أثري، ولم أرى أي صور له من قبل. سيكون مقالي القادم عنه، سأرفقه على أنه آخر مكان شوهدت فيه داليدا قبل اختفائها، سيضفي الكثير من الإثارة على المقال»

«هذه العبارة تعني (شرفي هو ولائي)، أطلقنا عليه أنا وداليدا اسم الرمز الأسود، كان مكاننا المفضل قبل أن نفترق»

قال نادر ببطء وكأنه يجرب الكلمة:

«الرمز الأسود، ممم، عنوان ممتاز»

«هيا ندور حول المكان علنا نجد شيئاً جديداً»

داروا حول التل وحول الهضاب المحيطة به، ولكنهم لم يجدوا غير المزيد من الرمال الصفراء. بعد ساعة من البحث فقدوا الأمل، وعادوا أدراجهم إلى الفندق، ذهب يوسف إلى غرفته للحصول على بضع ساعات من النوم، وتوجه نادر إلى حاسوبه المحمول، كتب خبر عن تطورات اختفاء داليدا وما وصلوا إليه، ومع الخبر أرفق صور النقش الأسود، وكتب «الرمز الأسود.. مثوى داليدا الأخير» كعنواناً للخبر. ثم بدأ يبحث عن معنى هذا النقش، وبعد أن حصل على معلومات معقولة، جمعها في مقال مرفق معه صورة كبيرة، ثم أرسلهم لرئيس التحرير حتى يضطلع عليهم ويقوم بإعطائه الضوء الأخضر لنشرهم على الموقع.

أتاه رد رئيس التحرير بعد ساعة، فقام برفعهم على الموقع مباشرة.

عادةً لا تلقى أخبار ومقالات نادر الكثير من المشاهدة، ولكن هذا الخبر وهذا المقال تحديداً، أثار انتباه بضعة أشخاص، منهم الذي حركه الفضول، ومنهم من حركه الخوف.

الفصل الثالث عشر

زينة، القاهرة

لأول مرة تفكر زينة بإحتمالية أن تكون أسرتها على حق، عندما عادت إلى المنزل بعد لقاء سامر، أخذت تتذكر تفاصيل اللقاء، خصوصاً عندما سألها عن سبب اعتقادها أن وائل قد قتل، وأخبرته أنه طلب منها أن تسامحه قبل الحادث، هذا هو دليلها الوحيد، ماذا لو كان عقلها يختلق هذا السطر، الكثير من الأطباء أخبروها أن ذكرياتها قبل الغيبوبة ستكون مشوشة، واختلاط الحقائق بداخل عقلها أمر وارد، فماذا لو كان الأطباء ـ وهذا أمر ورارد الحدوث ومنطقي للغاية ـ على حق؟

عاد إليها الشعور بالوحدة وانعدام الهدف. غيرت ملابسها وارتدت قميص النوم، جلست على السرير وأمسكت رواية شفرة دافنشي، وبدأت القراءة.

بعد ساعة من القراءة غلبها النعاس. أيقظتها والدتها في صباح

اليوم التالي، أحضرت لها الخادمة إفطاراً من البيض المقلي والقهوة، لم تجد في نفسها الرغبة في الأكل، شربت القهوة على مهل، ثم تذكرت أنها لم ترد النوم ليلة البارحة لتكمل الرواية، ولكن النوم غلبها.

أمسكت الرواية وأكملت القراءة. إلى أن وصلت للفصل العشرون، في الصفحة الأخيرة من هذا الفصل بالتحديد، عندما اكتشف روبرت لانغدون الشخصية الرئيسية في الرواية، كيفية فك شفرة الرسالة الأولى التي تركها لهم القتيل، فقام بإعادة ترتيب أحرف جملة

«O, Draconian devil! Oh lame saint!»

بعد أن عرف أن القتيل ترك لهم أرقاماً عشوائية تسمى متوالية فيبوناتشي، حتى يعرفوا أن عليهم إعادة ترتيب أحرف الجملة السابقة لتصبح

«Leonardo Da Vinci! The Mona Lisa!»

في أسفل هذه الصفحة، قام شخص ما وغالباً وائل، لأنه المالك الأصلي للرواية، بخط رسومات غريبة الشكل بالقلم الرصاص، مستطيلات كتب بداخلها كلاماً مبهماً، استطاعت قراءة كلمات قليلة منها، مثل Sonne وGlocke، وكان هناك جملة واحدة كتبت باللغة العربية، كانت تقول:

«وفيا لمن اعاد الرشاش في يد الرعية»

ظلت تنظر للرسومات بضع دقائق، ثم أمسكت هاتفها المحمول

واتصلت بعمر، سألته مباشرة بعد إلقاء التحية عليه، هل قرأ الرواية من قبل، أخبرها أنه كان ينوي قراءتها ولكن لم يتوفر له الوقت اللازم للأسف، ثم سألته عن الجملة المكتوبة باللغة العربية «وفيا لمن اعاد الرشاش في يد الرعية»، إن كانت تعني له أي شيء، صمت قليلاً، ثم قال لها أنه لا يتذكر قراءتها أو مشاهدتها في أي مكان من قبل. حاول دعوتها على الغداء، ولكنها اعتذرت منه بلطف ووعدته أن تعاود الإتصال به يوماً آخر.

بعد أن أغلقت مع عمر، بحثت عن رقم سامر، حتى تطلعه على اكتشافها، ولكن بعد أن فتحت شاشة استقبال المكالمات في هاتفها، اكتشفت أنه اتصل بها من هاتف خاص لا يظهرَ رقمه. لم تيأس، وطلبت رقم زياد، أحد الضباط زملاء وائل الذين قابلتهم من قبل، ظل هاتفه يرن من دون إجابة، أعادت الإتصال به بضع مرات ولم يتغير الحال. بعد أن أغلقت الهاتف قامت بالإتصال بأحمد، الضابط الآخر، رد عليها على الفور. عرفته بنفسها قائلة:

«مرحباً، أنا زينة زوجة وائل»

«مرحباً زينة كيف حالك»

«بخير الحمد لله. يجب أن أراك اليوم، وجدت شيئاً ربما كان دليلاً في قضية اغتيال وائل. رسومات في إحدى رواياته القديمة، تبدو غريبة وذات مغزى»

بلهجة من يشعر بالملل ويريد إنهاء المكالمة أجاب:

«إسمعيني يا زينة، في الحياة المدنية يمكن أن يتهاون معك أهلك وأصدقائك، سيجارونك حتى لا تصدمي، ولكن في الحياة العسكرية ليس لدينا الوقت ولا الطاقة لمثل هذا الكلام، وائل لم يقتل، يجب عليك التعايش مع هذه الحقيقة. وإذا كان قد قتل، فلن تكون مجموعة رسوم في رواية هي الدليل على مقتله، لسنا في إحدى حلقات مسلسل أجنبي. لا تتصلي بي مجدداً إلا إذا احتجت إلى شيء».

بهتت زينة، وأجابته بصوت خافت «حاضر»، ألقى عليها السلام بعدها ثم أغلق الخط. جلست صامتة لبضع دقائق، ثم انفجرت في البكاء، نزلت دموعها غزيرة على وجنتيها، ظلت تبكي إلى أن فتحت والدتها باب الغرفة ودخلت عليها، حاولت التوقف عن البكاء ولكنها لم تستطع، احتضنتها والدتها وظلت تقبل رأسها وهي تقول أن كل شيء سيصبح على ما يرام.

بعد حديث مختصر، وبعد أن تأكدت أنها بخير، تركتها والدتها وأغلقت الباب خلفها. قررت زينة بعدها أن تنسى أمر الجريمة التي أوهمت نفسها بها، الجميع أخبرها أنها تهلوس ولكنها لم تصدقهم.

أمسكت هاتفها واتصلت بصديقتها شيرين، أخبرتها أنها تريد البحث عن عمل، أي شيء يشغل وقتها ويجعلها تقابل أشخاصاً جدد، فوعدتها أن تبدأ بالبحث لها في أسرع وقت.

أمضت باقي اليوم في قراءة الرواية، أنهتها في الثامنة مساءً. وبعد الإنتهاء منها ببضع دقائق، رن هاتفها المحمول برقم شيرين، أخبرتها أن لديها مقابلة بعد يومين في العاشرة صباحاً، مع أحد مديرين موقع

شهير لبيع جميع المنتجات على الإنترنت، فرحت وشكرت صديقتها كثيراً.

أمضت هذان اليومان في الإستعداد للمقابلة، ابتاعت ملابس جديدة، وأخذت موعداً مع الكوافير في الثامنة صباحاً قبل المقابلة، تصفحت جميع المواقع التي تعني بالبيع والشراء على الإنترنت، وقرأت الكثير من المقالات وبعض الأبحاث التي تتحدث عن هذه المواقع.

الفصل الرابع عشر

وحيد الكومي، وسط البلد

يعيش وحيد الكومي حياة استثنائية، يطلق عليها البعض حياة الصعلكة، ولكنه يخالفهم الرأي.

أنهى دراسته الجامعية في كلية التاريخ منذ خمسة عشر عاماً، ومنذ تخرجه حتى يومنا هذا، يعتبر الإنجاز الوحيد الذي حققه هو أنه ظل على قيد الحياة. لا يستمر في أي عمل لأكثر من شهر على أقصى تقدير، دائماً ما يتركه للإنغماس في كتابة إحدى نظرياته التي لا تنتهي، أو دراسة معلومة جديدة حصل عليها، أو تتبع سيرة إحدى الإشاعات التي تخص الآثار الفرعونية. أمضى عاماً في السجن، عندما حاول سرقة تمثال من المتحف المصري، متهماً القائمين عليه بإستبداله لصالح منظمة عالمية تدعى «العين The Eye»، وأن التمثال الموجود هو مجرد نسخة عن التمثال الأصلي، يقال أن هذه هي إحدى أقدم المنظمات السرية في التاريخ، إن لم تكن الأقدم على الإطلاق، أنشأها الفراعنة، هدفها هو تجميع أمهر السحرة في العالم تحت عباءة واحدة، لأغراض غامضة

ولكن في الأغلب متعلقة بالسيطرة، والبعض يزعم أن نشاطها لا زال قائماً حتى يومنا هذا، ومن هؤلاء الزاعمين وحيد الكومي.

كان من أشد المؤيدين لجميع نظريات المؤامرة بلا استثناء، وأفنى عمره في تتبعها وإثبات صحتها بالأدلة، فهو يؤمن أن منظمة «العين The Eye» لا زالت قائمة، وأن أحفاد أسرة محمد علي لازالوا المتحكمين في مصر حتى يومنا هذا تحت عباءة الرؤساء الحاليين، يؤكد دائماً أن الماسونية والطبقة المستنيرة ما هم إلا غطاء، لإبعاد النظر عن المنظمات الحقيقية التي تحكم العالم، وهو يعلم جيداً من هم وسوف يفضحهم، كما اعتاد أن يردد دائماً في المقهى الذي يسهر فيه.. عندما لا يكون لديه هدفاً يجري خلفه أو بحثاً يريد الإنتهاء منه.

الشيء الوحيد الذي يضع بينه وبين الشحاذة حاجزاً، هو الشقة الصغيرة في الدور الخامس بأحد بنايات وسط البلد القديمة، التي ورثها عن والديه، لولاها لأصبح الرصيف سريره الوحيد. لا أحد يمكنه إنكار عبقرية وحيد الكومي، ولكنه يرفض العمل، ينفق ما في حوزته حتى لا يجد ما يصرفه، فيبدأ بعمل مشروعات التخرج والبحوثات المطلوبة من طلبة الجامعات، وأحياناً رسائل الماجيستير والدكتوراة للمعيدين، عندما يصبح لديه مبلغاً معقولاً يكفي قوته، يتوقف ويعود إلى أبحاثه الخاصة، التي يرى أنها ستضعه في مصاف العظماء على مر التاريخ.. عندما يعلن عن أحد اكتشافاته، التي ستفضح المنظمات التي تسيطر على العالم، وتنقذ البشرية من ظلمهم، وقتها سيعلم العالم أجمع من هو وحيد الكومي، وسيكتب عن معاناته طوال هذه السنوات.

اليوم في العاشرة مساءً، أنهى شرب الكوب الثالث من الشاي، وأنهى خمسة أحجاراً من المعسل، ثم أخبر النادل أن يضيفهم على الحساب، هاج النادل وأقسم أنه لن يتركه يغادر المقهى من دون أن يدفع ما عليه، فالمرة الأخيرة التي طلب منه أن يضيف طلباته على الحساب لم يرى وجهه غير بعد عام ونصف. لم ييأس وحيد، وأخذ يصيح أنها غلطته لجلوسه على مثل هذا المقهى الرديء، وسيأتي له بالمبلغ المطلوب ويقذفه في وجهه غداً صباحاً، بدأ الجالسين على المقهى في الفض بينهم، واستطاع وحيد أن ينصرف، وأخذ يتمتم بالشكر لله أنه استطاع الإفلات، وظل يذكر نفسه ألا يقترب من هذا المقهى مرة أخرى.

عاد إلى منزله على الفور، لم يغير ملابسه وفتح حاسوبه المحمول إثر دخوله. أخذ يتصفح حسابه على الفيسبوك، منصته التي يبث منها جميع آراؤه، ورغم أنه في الكثير من الأوقات ما يكتب معلومات مفيدة وآراء سياسية مقنعة لجميع الأطراف، إلا أن متابعيه وقائمة أصدقاؤه كانت قليلة للغاية، فقد اختار لنفسه اسم «الباحث عن الحقيقة»، ومن النادر أن يتابع أحد أو يضيف لقائمة أصدقاؤه.. شخصاً أطلق على نفسه مثل هذا الإسم.

بدأ بتصفح الصفحة الرئيسية، لا جديد، الجميع يعطي رأيه السياسي بطريقة يحاول أن يجعلها محايدة.. ولكنه منحاز لطرف معين لا يريد الإفصاح عنه، هذا ما يفعله الجميع هذه الأيام. ظل يقلب في المحتويات، إلى أن لفت انتباهه خبراً قام أحد أصدقائه بنشره، وكتب فوقه «لو كانت

أختك لكنت نشرتها»، كان خبراً عن اختفاء فتاة في العلمين منذ ثلاثة أيام، لم يكن الخبر في حد ذاته هو اللافت للإهتمام، بل الصورة المرفقة مع الخبر، صورة مستطيل يبدأ من أسفل اليسار إلى أعلى اليمين، ونقش بداخله أحرف ألمانية.

ذهل وحيد الكومي أول الأمر، ظل يحملق في الصورة لبضع دقائق، كانت كافية حتى يأخذ قراره، غداً صباحاً سيتجه إلى العلمين.

الفصل الخامس عشر

يوسف، العلمين

استيقظ يوسف في اليوم الرابع على اختفاء داليدا، ليس لديه أي رغبة في العمل ولا رؤية أحد. هاتف سعيد وأخبره أنه لن يأتي إلى الشركة ولن يحضر الرحلات اليوم، ثم عاد إلى النوم.

استيقظ في الثانية ظهراً. قام بمهاتفة العقيد حسن صفوت، وسأله إذا كان هناك أي أخبار عن داليدا، ولكن الأخير أجابه أنهم يبحثون في كل مكان ويسألون كل من يعرفونهم ولكن لا جديد حتى الآن.

ظل نصف ساعة ينظر إلى السقف، ثم قرر كيف سيقضي يومه، سيقوم بـ«ماراثون للقراءة»، فكرة علمتها له داليدا، كان كلاهما قارئاً نهماً، ولكن مع ضغط العمل واجتماعات الأصدقاء، قل معدل قراءاتهم، مثل ما يحدث معه هذه الأيام، يبدأ في كتاب ما، ثم ينسى ما قرأه، ويعيد قراءته من الصفحة الأولى حتى يتذكر الأحداث، وأحياناً يدخل في كتاب ثاني وثالث من دون إنهاء الأول، فإقترحت

عليه داليدا أن يعتبرا يوم العطلة، يوماً للقراءة، فقط للقراءة، ويضعون نصب أعينهم هدف إنهاء الكتاب الذي سيقرؤونه. في هذا اليوم، يقرأ وهو يتناول إفطاره، يقرأ في السرير، يقرأ في الشرفة وهو يتناول الشاي، عندما يشعر بالتعب يمشي لأقرب مقهى، ثم يجلس عليه ويكمل قراءة، بعد أن ينهي شرب كوب أو كويين من القهوة يغادر ويذهب للغداء، بعد الإنتهاء من الغداء يقرأ في حديقة الفندق، ثم يذهب للجلوس على المسبح، يظل يغير أماكن القراءة إلى أن ينتهي من الكتاب أو الرواية.

نظر إلى الكومود بجانبه، فوجد كتاب «أسرار العالم الجديد» الذي عثر عليه في خزانة داليدا، ليس لديه القدرة اليوم على قراءة شيئاً جديداً، يريد كتاباً قرأه من قبل ومتعته مضمونة. غادر السرير وذهب إلى الخزانة التي يحتفظ فيها بكتبه، ظل يمرر عينيه على العناوين، إلى أن اختارته رواية «مديح الكراهية»، لم يخترها ولكنها اختارته، شعر بقوة تشد يده إليها، وبحلاوة تنساب داخل روحه عندما قرأ الإسم وشاهد الغلاف.

أهدته داليدا هذه الرواية بعد تعارفهم ببضعة أسابيع، عندما تحدثوا في أحد الليالي عن عائلته، وشعرت أن جرحه لم يندمل بعد. جاءت في اليوم التالي، وفي يدها كتاب يلفه ورق هدايا أسود وشريط فضي، أخبرته أن هذه الرواية ستغير حياته، ولابد أن يكون الكاتب قد كتبها لأشخاص في مثل موقفه. أزاح ورق الهدايا، فوجد رواية ذات غلاف أحمر طوبي، في منتصفه قنبلة سوداء، تلفها أزهار ذات

ألوان زاهية، غلاف معبر عما بداخله. قالت له أنهم عندما يتزوجون، سيمضون شهر عسلهم في لندن، حتى يبحثوا عن بطلة هذه الرواية، التي عاشت حياة متقلبة، من أميرة إحدى الجماعات الإسلامية ذات نقاب، مروراً برداء السجن الأبيض، إلى خلع الحجاب والعيش وحيدة في لندن.. تبحث عن صور الموتى الذين خلفتهم خلفها، وحيدة كسحلية دميمة عذراء على حد قولها.

سألها مداعباً كيف سيعثرون عليها، قالت له أن وجهها مليء بالحفر الناتجة عن البثور، عندما كانت في السجن أصابها الجديري، لم تتم معالجتها منه، فترك أثره عميقاً على وجنتيها. ثم نظرت له ضاحكة.

ضحكة داليدا هي أكثر ما وقع يوسف في غرامه، عندما تضحك تضيق عينيها وتظهر أسنانها اللؤلؤيتين خلف شفتيها الرفيعتين، ثم تلكزه في كتفه وكأنها تخجل أن تضحك أمامه.

رغم عمر يوسف الذي تخطى السادسة والعشرين، غير أنه لم يستوعب بمعنى الحب إلا عندما التقى داليدا. في شهوره الأولى بالفندق، أقام بضعة علاقات مع أجنبيات من جنسيات مختلفة، مارس معهن الحب وسهروا معه في غرفته حتى مطلع الفجر، تعلق بواحدة أو اثنين منهم، ولكن بعد أن سافروا نسيهم تماماً وبدأ يبحث عن غيرهم. ولكن مع داليدا، أحس أن الأمر مختلف، فهو يراها كل يوم، يتحدثون بالساعات، وأقصى ما وصلا إليه من ملامسة جسدية هي معانقة كفيهما، ما عدا قبلة وحيدةعلى وجنتها، اختطفها عنوة في أحد الليالي الصيفية، عندما ارتدت فستان صيفي أبيض، ووضعت

زهرة حمراء في شعرها، كان جمالها أسطورياً، فمد شفتيه وطبع قبلة وحيدة على وجنتها، نظرت إليه معاتبة، فوعدها أن القبلة القادمة لن تكون إلا بعد زواجهما.

الآن، بعد عام من الفراق، لم يستطع ولم يقوى على النظر إلى أي فتاة غيرها، رغم عمله الذي يمكنه من الإحتكاك بالكثير من الأجنبيات، منهم الشقراء والصهباء وذوات الشعر الأسود الفاحم، إلا أن جميع النساء أصبحوا فجأة غير مثيرين للإهتمام، شهوته القديمة انحصرت في فتاة واحدة، قال له نادر أن هذا ما يعرف بالحب، وما دونه هو الإعجاب.

عاد إلى السرير وبدأ قراءة «مديح الكراهية»، تدور أحداث الرواية في مدينة حلب السورية في بداية ثمانينات القرن الماضي، تحكي عن الصراع الدامي الذي دار بين الدولة والأصوليين، هذا الصراع الذي كاد أن يقضي على الأخضر واليابس، وراح ضحيته آلاف من السوريين. تحكى القصة من خلال أعين فتاة ولدت لعائلة أصولية، والدها متوفي فنشأت في بيت عمها، أحد قادة الجماعات الإسلامية التي بدأت إعلان العصيان على الدولة وطالبت بحقوقها، فكانت الحرب هي الرد الوحيد عليهم، إلى أن أبادوهم جميعاً في حادثة حلب الشهيرة.

من أكثر الأمور المعبرة في الرواية عنوانها، فكل طرف ينمي الكراهية بين أبنائه تجاه الطرف الآخر، حتى أصبحت الكراهية شيئاً يمتدح ويتم التفاخر به في المجالس.

ظل يوسف يقرأ إلى أن وصل للصفحة المائة، ترك الرواية ليريح عينيه قليلاً، وتمنى أن يكون منفذوا مذابح الثمانينات التي يقرأ عنها لا زالوا على قيد الحياة، حتى يشهدوا ما يحدث في سوريا هذه الأيام، ويعلموا أن الدم لا ينسى، وستعود الحرب إلى الظهور ولو بعد حين.

أكمل قراءة إلى أن وصل لصفحة مائة وخمسون، شعر بالتعب، فقام بتغيير ملابسه، وذهب لتناول غدائه في أحد مطاعم الوجبات السريعة، متمنياً أن يمر الوقت سريعاً، حتى يأتي الليل ويسهر مع رفيقيه، فهذا هو الوقت الوحيد الذي أصبح يشعر فيه بالراحة.

* * *

في الواحدة بعد منتصف الليل، غادر يوسف غرفته واتجه إلى البار. عندما وصل وجد عاطف وحيداً يجلس على الطاولة ويضع أوراق اللعب أمامه. سأله:

«أين نادر؟»

«لا أعرف لم يحضر مبكراً كعادته، اتصلت به بضع مرات ولم يجب، ربما انشغل بإحدى مقالاته التي لا تنفع ولا تضر، لا يحصل على مليم من الكتابة هذا المعتوه. سأعد الشاي حتى يأتي»

ثم غادر مكانه ووضع الماء ليغلي.

في بعض الأحيان ينغلق نادر على نفسه وينعزل عمن حوله، أخبر يوسف منذ بضعة أشهر أنه استعاد أحلامه الأدبية القديمة، وبجانب المقالات والأخبار، بدأ الكتابة في رواية جديدة، لم يخبر أي شخص

عنها ما عدا يوسف، فالرواية السابقة، هي سبب عدم عودته إلى قريته، وأحد أسباب الإحباط الذي يعيشه.

بدأ نادر كتابة روايته الأولى في عامه الجامعي الأول، وأمضى ثلاثة سنوات في كتابتها، تحكي الرواية قصة شاب غادر قريته وذهب إلى القاهرة للعمل في محل أحد أقاربه، قام بإيجار غرفة صغيرة فوق سطح أحد البنايات، وقامت علاقة بينه وبين جارته الأرملة ذات الأربعين عاماً، وفجأة تقتل هذه الجارة، ويرثها أقاربها، فيبدأ الشاب بالبحث بين المشتبه بهم عمن وراء موتها، ويكتشف في النهاية أنهم جميعاً خططوا لمقتلها، لا يوجد مجني عليه واحد بل أربعة، واختار لها عنوان «الحب بدون مقدم أتعاب». قرأ يوسف الرواية، أعجبته كثيراً ورأى أنها رواية بديعة، مشاهد الحب بين الشاب والأرملة كانت خفيفة مثل الحرير، والحبكة وطريقة كشف اللغز متماسكة وأكثر من ممتازة.

عندما انتهى نادر من كتابة الرواية عرضها على بضعة دور نشر، لم يأتيه الرد من أي منهم، وفي إحدى الندوات الأدبية، أخبره رجل أربعيني أنه يملك دار نشر، وأراه بعض إصداراته، وطلب منه الرواية ليرى صلاحيتها للنشر، فأعطاها له نادر، وبعد خمسة أيام هاتفه الرجل، وأخبره أن الرواية أكثر من ممتازة، وأنه سيصبح نجيب محفوظ القادم بلا منازع، أسكرت هذه الكلمات عقل نادر، وتراءت أمامه أحلام الشهرة الأدبية وحفلات التوقيع والندوات التي سيحضرها كضيف شرف، ولكن الرجل طلب منه مبلغاً كبيراً من المال، ثمناً لطباعة الرواية ونشرها، اعترض نادر، ولكن الرجل أخبره أن أي أديب في مقتبل

الطريق يتكفل بثمن نشر الطبعة الأولى من كتابه، فيما بعد ذلك تقوم دار النشر بطباعته على نفقتها.

احتار نادر في كيفية تدبر هذا المبلغ، لم يكن قد بدأ العمل بعد، وحتى لو كان يعمل فمبلغ مثل هذا يحتاج لأشهر من الإدخار، عاد إلى قريته، حكى لعائلته القصة، وطلب منهم أن يقرضوه مبلغاً من المال، وسيقوم برده لهم ما أن تباع نسخ الطبعة الأولى. أعطته والدته جزء، وأخيه الأكبر جزء آخر، وتكفل عمه بالباقي. ذاع النبأ في القرية أن نادر سيصبح كاتباً مشهوراً، وبدأ الجميع يتودد إليه، ويطلب منه ألا ينساهم بعد أن يصبح ضيفاً على الفضائيات.

بعد أن قام بتوفير المبلغ طار عائداً إلى القاهرة، أعطى النقود للرجل الأربعيني، الذي غاب لعشرة أيام، ثم قام بتسليم نادر خمسة نسخ من الرواية، كانت الطباعة رديئة، والورق كأنه تمت استعارته من جريدة قديمة، والغلاف صورة لشاب وفتاة مشهورة على الإنترنت. لم يعترض نادر، وقال لنفسه أنه لن يقبل بهذا المستوى المتدني بعد أن يصبح كاتباً مشهوراً تتهافت دور النشر عليه. حياه الرجل قبل أن ينصرف، وقال له أن النسخ ستكون في المكتبات بعد أسبوعين على أقصى تقدير.

انتظر نادر أسبوعين ثم بدأ يتفقد المكتبات، ويسأل على روايته بالإسم، لا شيء، لم يسمع بها أي أحد من قبل، انتظر شهراً ولم تتغير النتيجة، قام بالإتصال بالرجل الأربعيني عشرات المرات ولكن هاتفه كان مغلقاً في معظم الأوقات، وفي المرات القليلة التي رد فيها على

نادر كان يخبره بحدوث تأخير في المطبعة وأن النسخ ستتوافر خلال أيام. سأل جميع من يعرفهم داخل الوسط الثقافي أن يدلوه على مكانه، ولكن أحداً منهم لم يعرف له مكاناً ثابتاً. بعد مرور خمسة أشهر، دون العثور على أثر للرجل الأربعيني أو للرواية، بدأ نادر التسليم بأنه كان ضحية لنصاب، استغل شوق نادر لنشر الرواية، تلاعب بأحلامه وباعه كلاماً عذباً سال له لعابه.

لم تكن النقود الضائعة هي السبب الرئيسي في اكتئابه وقتها، رغم أنه سيضطر للعمل بعد اليوم الدراسي لسداد دينه، إلا أن أكثر ما آلمه، هو كيفية الذهاب إلى قريته.. ومواجهة السؤال الذي سيواجَه به من الجميع، أين الرواية؟

قام بإرسال نسختان إلى أسرته، هنؤوه على الرواية وأثنوا كثيراً على جودة النص، ولكنهم علقوا على رداءة الطباعة والورق، قال أخوه أنها لا تختلف عن الملازم التي يطبعها المدرسين الخصوصيين للطلبة. ومن وقتها وقد أخذ عهداً على نفسه، بألا يعود إلى قريته حتى يصبح كاتباً أو صحافياً مشهوراً، أو على أقل تقدير ناجحاً.

وقد بدأ مؤخراً في كتابة روايته الثانية، قال ليوسف أنه لن يقع في نفس الخطأ السابق، سيبحث عن دار نشر ذات سمعة طيبة تحترم الكاتب والكتاب، حتى لو اضطر إلى طرق باب جميع دور النشر واحدة واحدة.

سيحكي في روايته الحالية قصة رجل عجوز فاحش الثراء، قرر أن يحقق أحلام خمسة من الشباب الفقراء من ذوي الإتجاهات السياسية

المختلفة، الأول من مؤيدي الجيش والنظام السابق، الثاني من مؤيدي التيار الديني، الثالث علماني، الرابع اشتراكي، الخامس أحد أعضاء أشهر حزب شبابي معارض. سيعطيهم بضعة ملايين من الجنيهات، سيضع النقود في حساب مشترك بأسمائهم الخمسة، لا يمكنهم سحب المال نقداً ولا شراء ما يريدون، ما عليهم فعله هو البدء بمشروع تجاري، سيحصل كلاً منهم على راتب شهري، ولن توزع عليهم أية أرباح في البداية، سيتم تخزينها لمدة سبعة أعوام، ثم يتم توزيعها عليهم. تدور أحداث الرواية في مدة زمنية تزيد على الخمسة عشر عاماً، النصف الأول يتناول السنين الأولى لإدارتهم الشركة من دون الحصول على أرباح، والنصف الثاني يتناول الفترة بعد أن تم توزيع الأرباح عليهم، فقام كل منهم بأخذ نصيبه وأغلقوا الشركة، ثم يحكي ما حدث لهم بعدها.

كتب خمسة وعشرون فصلاً من أصل خمسة وثلاثين، اقترب على الجزء الأخير من الرواية، وأعطى لنفسه عاماً آخر لإنهائها.

أنهى عاطف عمل الشاي ووضع كوباً أمام يوسف، ثم قال:

«سأحاول مكالمته مرة أخرى، هذا الأبله سيضيع علينا اللعب اليوم. هذه أيامي الأخيرة قبل الإجازة، لن أرى وجوهكم لمدة أسبوعين، الحمد لله»

وأمسك هاتفه محاولاً الإتصال بنادر، ولكن الهاتف ظل يرن من دون إجابة. في هذه اللحظة، دخل عليهم البار رجل غريب، كان يرتدي ملابس رثة، سروال كحلي وقميص أزرق سماوي، ذقنه

نابتة وشعره متوسط الطول لم يتم تسريحه منذ زمن. قبل أن يقول له عاطف أن البار مغلق قال الغريب:

«أين نادر؟»

أجابه عاطف في تردد:

«نادر لم يأتي بعد، البار مغلق، يمكنك..»

قاطعه الغريب قائلاً:

«يجب أن أرى نادر، وفوراً، لقد أتيت من القاهرة خصيصاً لمقابلته»

نظر يوسف وعاطف إلى بعض في استغراب، ثم قال له يوسف:

«نحن في انتظاره، اجلس معنا قليلاً حتى يأتي»

جلس الرجل في عصبية على مقعد بجانبهم، وظل يحرك قدمه في توتر. سأله عاطف:

«ما اسمك»

«اسمي بالولادة وحيد الكومي، أما اسمي الحقيقي فهو الباحث عن الحقيقة»

اندهش يوسف من إجابته، ولكن عاطف ابتسم بسخرية، واستشف أنه من ذوي العقول المعطوبة.. أو ذات الكهرباء الزائدة، فإستغل الفرصة ليمرح قليلاً، سأله قائلاً:

«وما هي الحقيقة التي تبحث عنها؟»

«أبحث عن الحكام الحقيقيون لهذا العالم، كل ما نملكه هو رؤية رؤساء وملوك يجلسون في اجتماعات، يتبادلون آراءً خرقاء حول السلام العالمي والمصالح المتبادلة لشعوبهم، ثم يهلل زبانيتهم في الصحف والتلفزيون حول عبقريتهم التي أنقذت الشعب وجعلته يعيش بسلام. كلما سمعت من يعطي الثناء للرئيس لأننا نعيش بسلام، أشعر وكأنه يمن علينا لكوننا على قيد الحياة، وكأن من المفترض أن نموت ولكن جلالته بذل جهداً خرافياً حتى لا نموت. ما أقصد قوله هو، ليسوا هم الحكام الحقيقيون، كلهم مجرد دمى في أيدي آخرين يحكموننا، ويفرضون ما يريدون من أحكام وطرق للعيش علينا وعلى أبنائنا»

ظهرت الجدية على وجه عاطف، وتوقع يوسف أنه سيجاري هذا الرجل في آرائه سخريةً منه، وحتى يكون لديه قصصاً طريفة يحكيها لعائلته وأصدقائه في القرية، قال عاطف وسيمات الإهتمام بادية على وجهه:

«هذه معلومات خطيرة، كنت أشعر دائماً أن هناك أيدٍ خفية تعبث في الدولة. من هم الحكام الحقيقيون للعالم؟ وهل من الممكن التعرف عليهم؟ لا أظن أنه يوجد من لديه القدرة على معرفتهم»

ابتسم الرجل في ثقة وأجاب:

«لسوء حظهم هناك باحثين عن الحقيقة مثلي، وقد توصلت إلى المنظمتان اللتان تسيطران على العالم»

في انبهار سأله عاطف:

«هل هم الماسونيين؟»

«كلا، الماسونية والطبقة المستنيرة هم أكبر أكذوبتان منذ أن زعمت أمريكا أن نيل أرمسترونج وطأ على القمر. أعلم أنها معلومات صادمة ولكن أمريكا زعمت أنها وصلت إلى القمر فقط لإحراز نقطة في شباك الإتحاد السوفيتي أيام الحرب الباردة، هناك الكثير من الأدلة التي تثبت كذب ادعائهم ولكن أبسطها هو.. لماذا لم يذهب أي أحد آخر إلى القمر بعد نيل أرمسترونج؟ سؤال لن تجد عليه إجابة»

فجأة علا صوته وكأنه يخطب:

«أما الماسونية والطبقة المستنيرة، فهما شائعتان قاموا بنشرهم عن طريق الروايات والأفلام، حتى يلهوا الناس عن العدو الحقيقي، هذه الكرة الأرضية.. تحكمها منظمتان فقط.. ليس لهم من ثالث، الأولى هي Bilderberg.. المتحكم الرئيسي في الثروات، والثانية Skull and Bones.. المتحكم الرئيسي في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية»

أفلتت ابتسامة من بين شفتي عاطف، ولكنه تداركها بسرعة، فقد تأكد خبال الرجل تماماً، سأله عاطف وهو يجاهد لإخفاء ضحكته عن ماهية هذان المنظمتان. قال له الرجل وهويشعر بالسعادة للحصول على بعض الإهتمام:

«Bildergerg Group، في العام ١٩٥٤ وحتى يومنا هذا، بدأ رجال ذوو نفوذ واسع في أوروبا وأمريكا وكندا بالإجتماع سنوياً،

منهم رؤساء دول ورؤساء وزارات كأنجيلا ميركل وتوني بلير ودافيد كاميرون وبيل كلينتون وباراك أوباما وغيرهم، ومنهم أثرى أثرياء العالم كرؤساء وأعضاء مجالس إدارات البنوك والشركات العالمية، والبعض من العائلات الملكية في أوروبا. يجتمعون مرة في العام، وكل مرة في مكان مختلف لا يتم الإعلان عنه قبلها، محظور على الحضور جلب زوجاتهم أو أزواجهم، حتى طاقم الحراسة لا يدخل معهم، غير مسموح للصحافة والإعلام بالحضور، وغير مسموح لجميع المدعوين بتاتاً بمناقشة ما تم عرضه في الإجتماع مع أي جهة صحفية أو حتى غير صحفية، كل ما يتم قوله هو غير قابل للنشر.

ما أهداف هذا الإجتماع؟ ولماذا تجتمع أقوى شخصيات على وجه الأرض معاً من دون الإعلان عن سبب إجتماعهم؟ هل تعلمون لماذا، لأنهم يريدون أن يحافظوا على سيطرتهم ومكانتهم، يريدون إلغاء الطبقة المتوسطة من العالم، ويصبح الناس طبقتان فقط، سيد وخادم، ولا أحتاج لأن أخبركم أن الدول المتخلفة كمصرنا الحبيبة هي أحد الخدم، يجتمعون ويبذلون أقصى جهدهم حتى نظل على جهلنا ويسيطرون على ثرواتنا، ينفذون حرفياً مقولة أحد أفراد عائلة روثشيلد اليهودية التي تملك مئات البنوك حول العالم عندما قال: أعطني السيطرة على أموال أي أمة، ولن يهمني من يقوم بسن القوانين. من يتحكم في المال يسيطر على كل شيء، قديماً كانوا يقولون من لا يملك قوت يومه لا يملك حريته، الآن من لا يملك مصدر دخله لا يملك حريته»

ثم صمت وهو ينظر إليهم ليرى مدى تأثير كلامه، كان الإنبهار بادياً على وجوههم، ولكنه الإنبهار لوجود رجل يعيش بهذه العقلية، وهذا الوله بنظريات المؤامرة. أكمل قائلاً:

«أما Skull and Bones، فهي..»

قاطعه يوسف كيلا يضطر للإستماع لخطبة أخرى قائلاً:

«لا تقوم بإحباطنا يا رجل، يكفي هذه المعلومات ليوم واحد»

ولكن عاطف، الذي بدا مستمتعاً بهذا الحديث، ووجد في وحيد الكومي تسلية لهذه السهرة، قال:

«دعه يكمل يا أوركا، قلما نجد من لديه مثل هذا العلم خصوصاً في هذا المجال المحظور، دعه يكمل ولا تقاطعه»

ثم عقد حاجبيه بإهتمام مصطنع، ونظر إلى وحيد الكومي.. الذي أعجبه الكلام، فإنتفخت أوداجه وقال في لهجة متعالية بدت مضحكة:

«Skull and Bones هي المنظمة التي تسيطر على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. وتعتبر من أقدم اتحادات الطلبة في العالم، إذ تم تأسيسها عام ١٨٣٢ في جامعة يال Yale University، على يد والد أحد رؤساء أمريكا المستقبليين، ألفونسو تافت والد وليام هوارد تافت. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، وهي التي تختار رؤساء أمريكا وأعضاء الكونجرس والمحافظين بل والسفراء أيضاً.. لما لأعضائها من نفوذ واسع في الدوائر السياسية، جميع الأعضاء ينحدرون من

عائلات لها باعاً طويلاً في السياسة، ومن أبرزهم الرئيس بوش الأب والرئيس بوش الإبن وجون كيري. وأخطر إنجازات هذه المنظمة.. إنشاء وكالة الإستخبارات الأمريكية CIA في العام ١٩٤٧، والتي تتبع لها حتى يومنا هذا، أحد أهم أعضاء المنظمة جيمس أنجليتون، كان رئيساً لوكالة الإستخبارات من العام ١٩٥٤ حتى العام ١٩٧٥، ويطلق عليه الأب الروحي للوكالة. رغم كل ذلك، منذ بضعة أعوام أصدرت الوكالة بياناً تنفي فيه علاقتها بالمنظمة، ولكن هذا طبيعي لن يعترفوا بشيء، وكما قال جون كيري عندما سؤل عما يمكن أن يقوله عن المنظمة: ليس الكثير، إنه سر»

أنهى كلامه وصمت قليلاً، ثم تابع قائلاً بلهجة حالمة:

«أنشئت وكالة الإستخبارات عام ١٩٤٧، كل شيء بدأ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكأنهم قرروا بعد جنون الألمان وحزبهم النازي، أن العالم يجب أن يكون له مالك، ولا يمكنهم ترك كل بلد تفعل ما يحلو لها»

ثم فجأة وبدون إنذار قام بتغيير مجرى الحديث سائلاً:

«أين نادر لقد تأخر»

قال له يوسف:

«عادةً عندما يتأخر إلى هذا الحد فإنه لا يأتي. أحياناً يظل في غرفته لإنهاء كتابة بضعة مقالات وأخبار، يمكنك المجيء غداً لرؤيته»

«غداً، خسارة.. خسارة، سيضيع اليوم هباءً. دلوني على غرفته وسأذهب إليه»

«لا تزعجه، يمكنك رؤيته غداً لن تطير الدنيا»

تنهد بصوت مرتفع، ثم قال:

«حسناً، وهو كذلك، سأمر عليكم غداً في نفس الوقت»

قبل أن يغادر، طلب منهم إعطاؤه بعض الشاي والسكر وإذا كان لديهم أي شيء يؤكل، أعطاه عاطف ما طلب.ثم انصرف، تاركاً ضحكة استغراب على وجه يوسف، وبسمة ساخرة على وجه عاطف.

في اليوم التالي، ستنقشع الضحكات والبسمات عن وجوههم، عندما يستيقظون على نبأ مقتل نادر في غرفته.

الفصل السادس عشر

زينة، القاهرة

سبعة أشهر مرت على زينة وهي تعمل بأحد المواقع الشهيرة للبيع والشراء على الإنترنت. أجبرت نفسها على الإنغماس في حياتها الجديدة ونسيان كل ما يتعلق بالماضي. تمضي في عملها الجديد ثماني ساعات يومياً، وساعة إضافية للطريق. هذا الإنشغال وعدم الجلوس وحيدة لوقت طويل، ساعدها في إبعاد فكرة موت وائل، تتذكر حياته فقط، كيف أحبها وكان حنوناً عليها كأب، تجتر الذكريات من بداية معرفتها به، حتى يوف العرس، ثم تتوقف.

والدتها سعيدة بالتغير الذي طرأ عليها، أصبح وجهها رائقاً، تبتسم أكثر، تعود من العمل محملة بحكايات ومواقف تقصها عليهم وقت العشاء. اكتسبت أصدقاء جدد من زملائها في العمل، فأصبحت تمضي ليلة الخميس وصباح السبت برفقتهم، هذا غير المناسبات الإجتماعية الروتينية، كأعياد الميلاد وحفلات الخطبة والأفراح التي أصبحت تدعى إليهم.

مرة واحدة شعرت أن عقلها وذاكرتها ليسوا على ما يرام. فمنذ أن استيقظت وهي لا تعرف أي شيء يتعلق بالسياسة، ولكن بحكم عملها في التسويق وعمل عروض على منتجات الموقع، أصبحت تمضي الكثير من الوقت على الإنترنت، وبالتالي مرت أمامها أخبار معاصرة لما يحدث في مصر، في البداية ظنت أنها تقرأ من أحد المواقع التي تختلق أحداثاً كاذبة كي تحدث جواً من الإثارة ويزيد عدد متابعيهم، ولكن بعد أن مرت على أكثر من موقع أخبار معروف، وتأكدت من صحة المعلومات، شعرت بأن ذاكرتها ليست على ما يرام، وخافت أن تصاب بإنتكاسة. لم تسأل أي من زملائها وأصدقائها الجدد ولم تسأل أي من عائلتها، حتى لا ينظروا إليها من جديد كمجنونة، حارت فيما عليها فعله، واستقرت في النهاية على أخذ موعد مع طبيبها الذي عالجها إثر استيقاظها من الغيبوبة.

ذهبت إليه في يوم سبت، قصت عليه جميع مخاوفها، قالت له:

«أتذكر جيداً ثورة الخامس والعشرين من يناير، رغم أن وائل كان من المعارضين لنزولي إلا أنني أصررت وشاركت. أتذكر كيف ثار المصريون على حكامهم، عندما أصبح أربعون بالمائة من الشعب تحت خط الفقر.. دخلهم اليومي أقل من دولار واحد، وإجمالي الديون الخارجية أكثر من ٦٠٠ مليار جنيه، يحمل المصريون أعلى نسبة في العالم من مصابي الفشل الكلوي والبلهارسيا، ١٣ مليون مصري مصابين بالإلتهاب الكبدي، أكثر من سبعة ملايين لديهم السكر، مرضى السرطان تضاعف عددهم ثماني مرات بسبب الأطعمة المستوردة التي ثبت أنها فاسدة، شلل الأطفال موجود بستة دول في العالم فقط.. منهم مصر،

يحصل بعض القضاة والمستشارين والضباط على رواتب تتعدى المائة ألف جنيه وأكثر، كنا نعيش في قانون الطوارىء منذ الحرب وحتى الآن، ملايين من المصريين يعيشون في قرى وعشوائيات لا يوجد بها صرف صحي ولا مياه ولا كهرباء، أتذكر أن الدولار كان يساوي وقت الثورة ستة جنيهات، وقد كان في سبعينات القرن الماضي يساوي نصف جنيه فقط.. قبل أن يصبح حسني مبارك رئيساً للجمهورية»

صمتت قليلاً حتى تأخذ أنفاسها ثم تابعت:

«ما الذي حدث؟ قمنا بثورة على هؤلاء الأشخاص، حسني مبارك وجمال مبارك، حبيب العادلي وصفوت الشريف وأحمد عز، الآن.. الآن.. جميعهم خارج السجن، ورئيس الجمهورية لايزال أحد قادة الجيش، آلاف الشباب الذين شاركوا في الثورة يقبعون في السجون، هل كنت أحلم بالثورة في غيبوبتي؟»

بعد بضعة أعوام من هذا اليوم، سيقوم الطبيب بتأليف كتاب أكاديمي عن الغيبوبة وتبعاتها، وسيضيف حالة زينة في أحد فصول الكتاب، سيحكي هذا الموقف، وسيكتب في آخر الفصل ما قاله لها وقتها: «لا يا صغيرتي، ذاكرتك على ما يرام، كل ما هنالك أن هذا البلد.. هذا الشعب.. ساذج، وسريع النسيان، ولا يهتم بالتاريخ، وللسذاجة ثمن، وللذاكرة الضعيفة ثمن، وللجهل ثمن، وقد جمعنا هذه الصفات الثلاثة، وعلى قدر ما يبدون هينين، إلا أن ثمنهم فادحاً، قد يستمر عمراً بأكمله».

انصرفت زينة من عند الطبيب وقد اطمأنت على حالتها، ولكن في نفس الوقت شعرت بتوتر على مستقبل البلد الذي تعشقه، لن ينصلح الحال كما حلموا منذ خمسة أعوام، سيزداد الغني ثراءً وسيزداد الفقير فقراً. وكأنما يبرهن لها القدر على صحة توقعاتها، شاهدت في طريق عودتها إلى المنزل، جسراً عملاقاً يتم بناؤه لتسهيل سفر سكان أحد المناطق السكنية الراقية إلى مصيف قريب، كان من الممكن أن تتم صرف هذه النقود على القرى والعشوائيات، ولكن عصر الديكتاتورية لا يخدم غير أصحاب المصالح.

تابعت حياتها الروتينية، العمل في الصباح، تناول العشاء مع والدها ووالدتها ليلاً، السهر في نهاية كل أسبوع مع أصدقائها، نسيت كل شيء وتعايشت مع وضعها الحالي.

إلى أن كانت تبحث في محرك البحث على الإنترنت عن منتج جديد يريد الموقع إضافته إلى قائمة مبيعاته، فلمحت صورة في موقع مغمور ظنت أنها شاهدتها من قبل، فتحت الموقع، وبدأ قلبها في الخفقان، عندما شاهدت الخبر الذي نشره نادر منذ بضعة أيام، عن فتاة اختفت في العلمين، مرفقاً مع الخبر صورة لنقوش سوداء تمت كتابتها داخل مستطيل يمتد من أسفل اليسار إلى أعلى اليمين.

اعتذرت هذا اليوم لمغادرة العمل مبكراً والعودة إلى المنزل، وفور دخولها بحثت عن رواية شفرة دافنشي إلى أن عثرت عليها، فتحت الفصل العشرون، وشاهدت نفس الصورة التي عثرت عليها في الموقع وقد رسمت باليد في أسفل الصفحة.

في اليوم التالي، تقدمت للحصول على إجازة من عملها، ثم حزمت أمرها وقررت السفر إلى العلمين، والبحث عن الصحفي الذي كتب الخبر.

ذكريات الحادث تطرق على رأسها من دون هوادة، عاد إليها شغفها القديم بالبحث عما حدث، حاولت بناء فقاعة حول موت وائل، وظنت أنها نجحت في نسيانه، ولكن مع أول دليل يظهر أمامها، تشعر وكأن دبوس لمس الفقاعة، فإنفجرت وعادت جميع الذكريات إلى أماكنها الأصلية.

الفصل السابع عشر

يوسف، العلمين

عاصفة من الغضب اجتاحت يوسف، بعد أن هاتفته إدارة الفندق وأخبرته أن نادر قتل ليلة البارحة، ويجب عليه الذهاب إلى قسم الشرطة للتحقيق.

أول ما تبادر إلى ذهنه عندما سمع الخبر، أن نادر مات من دون العثور على الحب كما كان يأمل، لن تكون هناك دموعاً أنثوية تبكي موته وتدعو له، لن تخلد الشابة التي ترملت إلى النوم وهي تفكر في نادر رجلها المتوفي، سينسى كألم يكن. الشيء الثاني الذي فكر فيه، الرواية الغير مكتملة التي كان يكتبها، وقد عقد عليها كثيراً من الآمال في أن تعوضه عما تعرض له من سرقة في روايته الأولى. الآن، انتهى كل شيء، ناضل كثيراً من أجل هدف آمن به، وحلم كثيراً بمستقبل أفضل، وعندما أدرك أن شيئاً لن يتغير، وأنه وزملائه يحفرون جبلاً بإستخدام ملعقة، ترك كل شيء، وجاء للعمل في هذه المدينة الهادئة، ولم يعلم أنه سيقتل في غرفته.

وصل إلى القسم في الثامنة صباحاً، ظل لعشر دقائق منتظراً في إحدى الغرف، بعدها، دخل عليه العقيد حسن صفوت. قال له في صوت بارد:

«توفي صديقك ليلة البارحة، أين كنت منذ العاشرة مساءً حتى الثانية صباحاً؟»

لهجة الضابط مختلفة عن المرة التي تحدث فيها معه من قبل، عندما قدمه مستر آدم وأوصاه به. تجاهل يوسف الأمر وأجاب:

«كنت نائماً في غرفتي حتى الحادية عشر تقريباً، ثم ذهبت إلى بار لاروزا، سهرت مع عاطف ورجل غريب يدعى وحيد حتى وقت متأخر من الليل. ولكن هل لي أن أسأل، هل أنا مشتبه به؟؟ كان نادر أقرب أصدقائي، خبر موته هو من أسوأ ما حدث في حياتي»

قال العقيد حسن في لهجة حادة.. مع احتفاظه ببعض بروده:

«أنت لست مجرد مشتبه به، أنت المشتبه به الرئيسي. وجدنا بصماتك على مقبض باب غرفة نادر، وكل الدلائل تشير إليك»

في دهشة قال يوسف:

«أي دلائل؟؟ لم أقترب من غرفته مطلقاً البارحة، يوجد كاميرات في بعض الممرات يمكنك مراجعتها»

«سنقوم بمراجعة كل شيء، ولكنك ستمضي معنا بضعة أيام في القسم، حتى تثبت براءتك»

«أخبرني ما هي الدلائل التي تشير إلي؟ لن يمكنك العثور على دليل واحد.. لأنه ببساطة لا يوجد»

رد عليه في برود:

«أترك لنا هذا الأمر، ستضطلع على كل شيء في وقته»

ثم تركه وانصرف، ملقياً تعليمات على الجندي الواقف أمام الغرفة، بألا يسمح له بالخروج. قبل أن يغلق الضابط الباب خلفه سأله يوسف:

«كيف مات نادر؟»

نظر إليه الضابط ولم يجبه، أعاد يوسف السؤال، ولكن الضابط أمر الجندي بغلق الباب، وترك يوسف غارقاً في ذهوله.

جلس بعدها يحدق في الفراغ وهو يشعر بالدوار، ما الذي يحدث؟ أخذ في التفكير «هناك شيئاً أكبر مما أتخيل، ليست مجرد قضية اختفاء فتاة، أقرب أصدقائي قتل، وأصبحت المتهم الرئيسي في موته! لم أترك عائلتي في القاهرة وأنعزل في هذه المدينة النائية من أجل هذا»

بعد دقائق، أحس بالأدرينالين يتغلغل داخل عروقه، كل ذكرياته التعيسة.. منذ أن ترك عائلته حتى الآن، اندفعت داخل رأسه كبركان انفجر بعد سنين من الخمود، جارفاً كل ما يحمل من الحكمة، فما كان منه إلا أن اندفع ناحية الباب، وبدأ بالخبط عليه، حتى فتح له الجندي. قال له يوسف في ضيق:

«أود استخدام دورة المياه»

«ممنوع»

قبل أن يعيد إغلاق الباب قال يوسف:

«سأظل معكم لبضعة أيام.. هل المفترض أن أمسكها طوال هذه المدة؟؟»

همهم الجندي ولانت ملامحه قليلاً، وكأنه اقتنع بكلام يوسف، ثم قال له انتظر بضع دقائق حتى أسأل سيادة العقيد. فور ذهابه، أمسك يوسف مقبض الباب، فوجده انفتح معه، نظر يميناً ويساراً، ثم سار بإتجاه باب الخروج من القسم، ثبت عينيه على الأرض، مر من أمام الجميع بهدوء تام، إلى أن نجح في بلوغ البوابة.

بعد أن خرج وركب البيتش بجي، دوى صوت الجندي صارخاً أن يوسف اختفى، في سرعة أدار المفتاح وانطلق. بعد بضعة أمتار نظر خلفه، فوجد سيارة شرطة كبيرة تتجه نحوه. أخذ يفكر في كيفية تضليلهم، حتى يكسب بعض الوقت دخل في شارع ضيق بين مبانٍ عشوائية، لعلمه أن السيارات لا يمكنها أن تسير بسرعة في مثل هذه الحارات. بصعوبة شديدة أخذ يتفادى الأطفال الصغار والدجاجات والنساء الجالسات على أبواب البنايات، متبعاً بالسباب والدعوات بالهلاك، وبعد أن انحرف يميناً ويساراً في بضعة شوارع أو حارات بمعنى أفضل، توقف ونظر خلفه فلم يجد أثراً لسيارة الشرطة، أكمل طريقه حتى يبتعد عن هذا المكان، ليس لديه وجهة محددة يتجه إليها، كل ما كان يفكر فيه هو الهرب، أراد أن يشفي غليله من هؤلاء الحمقى، الذين يريدون اتهامه بقتل أقرب أصدقائه، لم ولن يفكر في التبعات، فمن مر بها مر به، سيعرف أنه في وقت معين، عندما

تشعر أن كل ما أحببت وكل ما عملت من أجله قد اختفى، ستصبح كل أمانيك هي الصراخ وضرب الأرض بقدميك كطفل صغير لا يهتم إن كان في ميدان عام أو في مجمع تجاري أو حتى في منزل رئيساً للجمهورية، ستقوم بقلب الطاولة ولن تهتم بالتبعات.

أخذ يدور في حارات يعرف أن الشرطة لن تبدأ بالبحث عنه فيها الآن. إلى أن رأى سيارة تتجه نحوه، توتر وبدأ يسرع حتى يبتعد عنها، كانت سيارة بيضاء لم يستطع تحديد نوعها، دخل في حارات وشوارع، ولكن السيارة كانت تقاتل حتى لا تفقد أثره، إلى أن نجح في تضليلها. سار لبضع دقائق، ثم وجد السيارة أمامه وقد سدت عليه الطريق، ضغط على المكابح بحدة فكاد أن يسقط عندما توقف البيتش بجي، ترجل وأخذ يركض في الإتجاه المعاكس.. وهو يشعر بالرعب من أن يتم إطلاق النار عليه. بعد بضعة أمتار سمع صوتاً مألوفاً يصرخ بإسمه، استرق النظر خلفه فوجد وحيد الكومي، الغريب الذي سهر برفقتهم ليلة البارحة. كان يصيح:

«يووووسيييييييف.. يوووسيييييف، أخبرتك أن الوضع خطيييير»

دفع الفضول يوسف إلى التوقف عن الركض، استدار إلى الخلف فوجد وحيد الكومي وقد خرج من السيارة البيضاء، في تردد ذهب إليه، سأله ما الذي يفعله، قال له وحيد:

«أتيت للبحث عن نادر، لأن ما حدث لن يمر مرور الكرام، بدؤوا الحرب أبكر مما توقعت، قتلوه لأنه الصحفي الذي نشر الخبر، والآن أنت الوحيد الذي بإمكانه أن يدلنا على المكان»

«أي مكان؟ ومن هم الذي تتحدث عنهم؟»

«المكان الأخير الذي شوهدت عنده الفتاة التي اختفت، الرمز الأسود كما أشار إليه نادر»

بدهشة سأله يوسف:

«هذا هو المكان، ولكن من هم الذين تتحدث عنهم؟»

«هذا موضوع يطول شرحه، اركب أولاً ودعنا نذهب، لا نملك الكثير من الوقت، الجميع سيبدأ بالبحث عنك الآن، قاموا بنشر صورتك في جميع أرجاء المدينة. لحسن حظي شاهدتك بالصدفة وأنت تمر بدراجتك أمام المقهى الذي كنا نجلس فيه»

نظر يوسف إلى البيتش بجي الذي تركه خلفه، ثم نظر إلى وحيد وأخذ يسأل نفسه «ما الذي يجعلني أثق به؟» ولكن في النهاية، ما الذي يضر الشاه سلخها بعد ذبحها، ما أسوأ ما يمكن أن يفعله هذا الغريب له، تسليمه إلى الشرطة؟ هو يعلم جيداً أن الشرطة ستعثر عليه عاجلاً أم آجلاً، هذا الهروب لم يكن غير إفراغ شحنة من الغضب. حسم أمره وركب مع وحيد الكومي السيارة البيضاء. لأول مرة يلاحظ أن من يقود السيارة فتاة، حسناء شابة في مثل عمره أو أكبر قليلاً، تضع نظارة شمس سوداء وقد عقدت شعرها خلف رأسها على شكل ذيل حصان. قال له وحيد الكومي بعد أن دخل السيارة وأغلق الباب خلفه:

«كيف نذهب إلى منطقة النقش، لا تختر طرقاً رئيسية حتى لا يفتضح أمرنا»

بدأ يوسف يشرح للفتاة كيفية الذهاب، وقد أنزل رأسه تحت مستوى النافذة حتى لا يراه أحد. بعد نصف ساعة تقريباً، وصلوا إلى هدفهم، وقتها فقط سأل يوسف عن الفتاة التي تقود السيارة، قال له وحيد وهو ينظر إليها:

«هذه زينة، مثلي.. جائت إلى العلمين بعد مشاهدة الخبر الذي نشره نادر. سمعتها في الفندق وهي تسأل عنه، فأخبرتها أنه صديقي وأنني سأقابله في المساء، ولكن بعدها مباشرة سمعنا نبأ مقتله، فبدأنا البحث عنك، وعلمنا أنك متهم بقتله»

قال يوسف:

«ما موضوع هذه الصورة؟ الجميع أصابه الجنون بعد أن نشرها نادر»

وصمت قليلاً ثم أضاف:

«قلت أنكم تعلمون أنني مشتبه به في مقتل نادر، ما الذي تفعلونه بتتبع ومرافقة قاتل محتمل؟»

قال وحيد الكومي بصوت العالم ببواطن الأمور:

«ما تم نشره لم يكن مجرد صورة، من المفترض أن يكون هذا الأثر منقرضاً منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمان، تم تفجير مكانه الأخير في عام ١٩٧٩ بالأرجنتين. ولرؤيته والكشف عليه.. يمكنني أن أرافق وأساعد سفاحين العالم جميعاً. هيا أرني الطريق إليه»

ترجلا من السيارة وقادهما يوسف حتى وقفا أمام النقش الأسود.

فغر وحيد الكومي فاه في انبهار، وبدأ يتحسس النقش وكأنه يربت على تحفة فنية نفيسة.

«إنه مثله تماماً»

كان هذا صوت رقيق دافىء، للمرة الأولى منذ أن التقاها يوسف تتحدث زينة. نظر إليها وكأنه فوجىء بوجودها معهم، كانت ترتدي فستان صيفي طويل، أبيض اللون مطعم بأزهار زرقاء، يصل طوله إلى كعبيها، كان جمالها هادئاً. قال لها يوسف:

«هل لي أن أسألك، ما الذي يمثله لك هذا الرمز أو النقش؟»

أجابته بعد تردد:

«بعد أن توفي زوجي، اكتشفت أنه قام برسمه في إحدى صفحات كتاب، وأريد معرفة ما دفعه إلى ذلك»

أومأ يوسف بإحباط. وشعر وقتها أنه محاط بإثنين من المجانين، الأول يبحث عن الحكام الحقيقيين للعالم، والثانية قرأت إحدى روايات أجاثا كريستي وتريد الشعور بإثارة البحث عن شيء ما. قال وحيد الكومي بعد أن أخذ وقته في التحديق بالنقش الأسود:

«هل تعلمون ماهية هذا النقش؟»

قالت زينة:

«بحثت على الإنترنت، ووجدت أنه كان شعاراً لأحد الفرق

التابعة للحزب النازي أيام الحرب العالمية الثانية وما قبلها، ومعناه: شرفي هو ولائي»

«هل تعلمين كيف أصبحت هذه الجملة شعارهم؟»

هزت رأسها علامة النفي، فقال في أسى مصطنع:

«لا يوجد من يكمل البحث حتى النهاية، لهذا يقع العالم بأكمله تحت احتلال حفنة من الجشعين الذين لا يساوون شيئاً، لأنهم نجحوا في استغلال جهل العامة. لقد أجريت بحثاً عن..»

قاطعه يوسف بنفاذ صبر:

«هل لك أن تخبرنا ما الموضوع من دون الإضطرار لسماع نظرياتك عما يحدث في العالم»

لم يكن يوسف يوماً عصبياً، ولكن مع كل حدث له، كان رده منطقياً. أومأ وحيد الكومي متفهماً، ثم قال:

«من حسن حظكم أنني معكم. أولاً، هذا الحائط يمثل بوابة، كان يستخدمها الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، لا أحد يعلم ما الذي كانوا يخفونه بداخلها، فقد تم تدمير جميع البوابات والكهوف الخاصة بهم بعد إعلان هزيمتهم ودخول القوات الروسية إلى برلين. بقيت بضع بوابات في الأرجنتين، وقد تم تركها لإحياء ذكرى الحرب، ولكن في العام ١٩٧٩ قام بعض الأشخاص بتفجيرها، ومن المفترض على حد علم جميع المهتمين بالأمر، أنه لا يوجد أي بوابات أخرى»

سأله يوسف:

«كيف نقوم بفتحها؟»

«فتحها في يومنا هذا شديد السهولة، في الماضي أيام الحرب، كانت طريقة سرية لا يعرفها غير الضباط ذوو الرتب العالية في الجيش الألماني، أما الآن، بعد أكثر من نصف قرن على انتهاء الحرب، أصبحت معروفة للجميع. تفتح البوابة عن طريق الضغط على حروف النقش البارزة بترتيب معين، يعود الترتيب إلى التاريخ الذي تم اختيار الرمز أو النقش خلاله.

كان للحزب النازي في ألمانيا قوتان عسكريتان لديهما بضع مهمات رئيسية، مثل حماية اجتماعات الحزب النازي من المتظاهرين، تعطيل اجتماعات بقية الأحزاب، السيطرة على الإعلام والعمل على تجريم كل من يعارض سياسة الحزب، قيادة مظاهرات لتأييد الحزب، تصوير أدولف هتلر كقائد قادم من السماء لإنقاذ الشعب الألماني.. وليس مجرد موظف يعمل كرئيس يجب محاسبته ومراجعته، بإختصار.. كل ما يفعله رؤسائنا وأنظمتنا العربية. وفي إحدى ليالي أبريل عام ١٩٣١، حاول أحد هؤلاء الفريقين الإنقلاب على هتلر والسيطرة على الحزب بالقوة، كان هذا الفريق يدعى SA إختصاراً لـ(كتيبة العاصفة Sturmabteilung)، وقد تصدى الفريق الآخر المسمى SS (فيلق الدفاع Schutzstaffel) لهذا الهجوم ونجح في إيقافه، سميت هذه الليلة بليلة السكاكين الطويلة، قام بعدها هتلر بتكريم فريق الـ SS وخصوصاً زعيمهم، وأرسل إليه رسالة مفادها: أن شرفك هو ولاؤك. فيما بعد قام هاينريخ هملر أحد قادة هذا

الفريق وزعيم الجستابو لاحقاً (جهاز المخابرات النازي) بإختيار هذه الجملة كشعار للفريق العسكري، فحفرها على أحزمتهم وعلى سكاكين وزعت عليهم»

بنفاذ صبر ولهجة حادة قال يوسف:

«كل هذا لا يهمني في شيء.. كيف نفتح هذا الباب اللعين»

«ليس باباً يا يوسف، إنه بوابة. وسأفتحه حالاً»

بدأ يضغط على الأحرف البارزة من النقش، انساب كل حرف ضغط عليه إلى الداخل ثم عاد إلى مكانه. ضغط على ستة أحرف ثم تراجع خطوة إلى الوراء، مرت دقيقة لم يحدث خلالها شيء. قالت زينة:

«ما الذي فعلته؟»

أجاب وحيد الكومي:

«قمت بالضغط على الأحرف بترتيب التاريخ الذي وقعت فيه ليلة السكاكين الطويلة، قمت بترقيم الأحرف من الشمال إلى اليمين، ثم كتبت التاريخ، اليوم والشهر والسنة. أنا متأكد أن هذه هي طريقة فتح البوابة»

M E I N E E H R E H E I ß T T R E U E

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19

أخرج يوسف من جيبه هاتفه المحمول، دخل على الإنترنت وبحث عن المواقع التي تتحدث عن ليلة السكاكين الطويلة، مضت خمسة دقائق وهو منهمك في القراءة، لم يقاطعه فيها أي منهما، إلى أن قال لوحيد:

«قلت أنك كتبت التاريخ، ولكن في معظم المواقع التي كتبت عن الواقعة، لا يوجد ذكر ليوم محدد، كلهم ذكروا الشهر والسنة، من أين أتيت بتاريخ اليوم؟»

«كل الباحثين مقصرين، ظللت أبحث حتى ابتعت هذه المعلومة من أحد الألمان العجائز»

«ابتعت تاريخاً؟ إذا أخبرك البائع أن الواقعة حدثت في رمضان أثناء صيام هتلر.. لن تعترض وستدفع له ما يطلبه»

«أنا لست ساذجاً، لقد تأكدت من صحة ما يقوله عن طريق صديق ألماني آخر»

في ضجر ذهب يوسف إلى النقش، وضغط على الأحرف التالية بالترتيب NMEIM، حيث تمثل N الشهر الرابع، وMEI M العام ١٩٣١. بعد عشر ثواني، بدأ الحائط أمامهم يتحرك ببطء ناحية اليمين، وظهر أمامهم ممر مظلم. خطى وحيد إلى الداخل من دون تردد، في حين ظل يوسف وزينة مكانهم. بعد أن خطا بضعة خطوات التفت إليهم، وقال مشجعاً:

«هيا، لدي كشاف في هاتفي المحمول، لا تقلقوا، هذا الكهف شديد القدم ولا يوجد بداخله ما يخيف»

نظرت زينة إلى يوسف في خوف، لم يدري هل يجب عليه تشجيعها أم لا، هو يعرف أنه سيدخل لا محالة، ولكنها ليست مجبرة على ذلك، ووجد نفسه لأول مرة يتسائل.. ما الذي تفعله حسناء مثلها هنا؟ بخلاف البحث عن جملة مكتوبة داخل كتاب على حد قولها. قبل أن يسألها أمسكت ذراعه وكأنها تستمد منه القوة، وبدأت بالسير إلى الداخل.

كان الكهف مظلماً، وسقفه طويل يتعدى الثلاثة أمتار. أخرج يوسف وزينة هواتفهما المحمولة وأشعلوا الضوء، ساروا نحو عشرين متراً قبل أن يصلوا إلى بوابة أخرى، ولكن قبل بلوغها ببضعة أمتار، سمعوا صوت معدني يحتك بالصخر، ثم صرخت زينة وسقطت على الأرض. ركضوا نحوها ووجهوا أنوار هواتفهم المحمولة حولها، فوجدوا أن هناك أسياخاً حديدية خرجت من يمين وشمال الحوائط الصخرية، جرحت قدم زينة جرحاً طفيفاً، وسالت الدماء على ساقها.

بدأت تبكي، حاول يوسف تهدئتها، ثم قطع جزءًا من التي شيرت الذي يرتديه، وقام بلفه حول الجرح حتى يوقف النزيف. قال لها:

«لا تقلقي لن نتركك، يمكنني حملك حتى نصل إلى أقرب مستشفى»

عضت على شفتها السفلى، وانسابت دموعها في صمت على وجنتيها، ثم قالت:

«كلا، يجب أن نكمل، أريد أن نكمل ما بدأناه»

أيدها وحيد الكومي قائلاً:

«أوافقها الرأي، ما نحن بصدد اكتشافه أهم بكثير من بضع قطرات من الدماء لا تشكل خطراً حقيقياً. بالإضافة إلى أن هذا الكهف قديم، وأي وسائل دفاعية كانت تستخدم في الماضي لابد وأن يكون قد أصابها العطب، أراهن أن هذه الأسياخ كان المفترض بها أن تخرج من بداية دخولنا الممر، ولكن لأن الزمن قضى عليها خرجت متأخرة فلم تقتل أحداً منا»

قال يوسف بحزم:

«لن نخطوا خطوة واحدة داخل الكهف، هذا خطر، في البداية هذه الأسياخ، ما الذي سنعثر عليه بعد ذلك؟ بالإضافة إلى أنها تحتاج إلى طبيب، هيا بنا»

ومن دون تردد أمسك ذراعها وساعدها على الوقوف، فإستجابت له، واتكأت عليه خلال سيرها. لم يتبعهم وحيد وظل واقفاً مكانه، لاحظ يوسف تردده، فقال له بصوت عالٍ حتى يسمعه:

«سننصرف، ولن يمكنك مغادرة المكان من دون سيارة. ناهيك عن الذئاب التي ستؤنسك في الليل»

عندما وصلا إلى السيارة كان وحيد الكومي خلفهما. أعطت زينة

المفتاح ليوسف كي يقود مكانها. جلس مكان السائق وانطلق عائداً إلى طريق المقابر. في هذه الأثناء كان وحيد يتمتم بكلمات غاضبة، تحتوي على اتهامهم بتعطيله عن مهمته، وأنه سيذكر هذا الموقف في كتاب سيرته الذاتية، عندما يحكي قصة اكتشاف هذا الأثر من مخلفات الحرب العالمية الثانية.. وأن ما عطل الإكتشاف جرح طفيف في قدم شابة مدللة. قالت زينة:

«صدقني يا وحيد أنا أريد اكتشاف ما يوجد داخل الكهف مثلك وربما أكثر، ولكن ما الذي يضمن لنا أن بعد البوابة التالية لا يوجد ما هو قاتل؟ أليس من الأفضل أن نعود ونحن مستعدون؟»

لم يجبها وحيد، صمت وكأنه يوافقها الرأي ولكن من دون اعتراف صريح.

فتحت زينة درج السيارة، وأخرجت رواية شفرة دافنشي، أخذت تقلب الصفحات إلى أن وصلت للفصل العشرين.. الذي كتب ورسم بالقلم الرصاص في إحدى صفحاته كلام مبهم ورسومات، منهم رسماً للنقش الأسود الذي شاهدوه للتو، وبجانبه جملة تقول:

«وفيا لمن اعاد الرشاش في يد الرعية»

أعطت الرواية لوحيد الكومي وأخبرته أنها الرسومات التي حكت له عنها سابقاً، أمسك الرواية وبدأ يتفحص كل ما تمت كتابته، ثم قال:

«يوسف.. أوقف السيارة»

قال له يوسف:

«ما الأمر؟»

«فقط أوقف السيارة، أشعر أن هذا الكلام يحتوي على رسالة وأريد التركيز فيها»

أوقف يوسف السيارة في منتصف الصحراء. ظل هو وزينة ينظرون إلى وحيد، منتظرين أن يسمعوا إحدى ارآئه اللولبية. بعد عشر دقائق سأل زينة قائلاً:

«هل توجد رسومات أو كلام في أي صفحة أخرى؟»

أجابته على الفور:

«كلا، لقد قرأت الرواية بأكملها ولم أجد أي شيء آخر»

غمغم قائلاً «عظيم». ظل ينظر إلى الصفحة بضع دقائق، ثم سألهم إن كانوا يملكون قلماً، أخرجت زينة من حقيبتها واحداً وأعطته له. ظل يكتب في إحدى صفحات الرواية حروفاً منفصلة، يشكل منها جملاً وكلمات ثم يشطب ما كتبه ويبدأ من جديد، ظل على هذه الحالة أكثر من عشر دقائق أخرى، إلى أن قال:

«زينة، زوجك الراحل ترك لك عنواناً»

أجابت وصوتها يحمل نبرة حماس:

«ما هو العنوان وكيف عرفت؟»

أجاب بنبرة تحمل الكثير من الفخر:

«العنوان هو: فيلا وشارع الشريفة دينا المعادي. أما كيف عرفت، فلأن هذه الألغاز التي لن يلاحظها الناس العادية، لا يمكن أن يفوتها عقلاً مدرباً كعقلي، منذ أن نظرت إلى الصفحة وقد علمت أنني سأجد شيئاً مثيراً»

قال له يوسف.. الغير واثق بوجود مثل هذا العنوان بين سطور الكتابة على الصفحة:

«كيف توصلت إلى هذا العنوان، أو بمعنى أفضل، أريد التأكد أنك لم تختلق شيئاً»

«وهل يمكن أن يختلق وحيد الكومي شيئاً؟؟ أنا.. أنا الذي توصلت إلى أسرار لم تتوصل إليها المخابرات الأمريكية نفسها..»

قاطعه يوسف:

«إذن أخبرنا كيف توصلت إليه»

«حسناً»

وضع أمامهم الصفحة وقال:

«كتبت الجملة في هذه الصفحة. لماذا اختار كاتبها هذه الصفحة بالذات ولم يختر الصفحة الأخيرة مثلاً؟ لأن هذه هي الصفحة التي توصل فيها بطل الرواية إلى حل اللغز، من خلال تغيير أحرف جملة مكتوبة وصناعة جملة أخرى، فيما يعرف بمتلازمة فيبوناتشي. ما فعلته هو أن قمت بتغيير أحرف الجملة المكتوبة باللغة العربية: وفيا لمن اعاد الرشاش في يد الرعية. لتصبح: فيلا وشارع الشريفة دينا المعادي»

في حماسة قالت زينة:

«هيا بنا نتجه إلى هناك»

قال وحيد بنفس الحماسة:

«بالتأكيد، هناك سر غامض ولن يهدأ لي بال حتى أكشف الستار عنه»

قاطعهم يوسف:

«ما الذي تقولونه، سنسافر إلى القاهرة؟ لأجل عنوان غير مكتوب يتوقع وحيد أنه رسالة سرية؟»

بعد أن أنهى جملته رن هاتفه المحمول، ضغط على زر الإجابة، فأتاه على الطرف الآخر صوت مستر آدم:

«يوسف ما الذي تفعله يا بني، الشرطة تبحث عنك في كل مكان، أخبروني أنك قمت بالهرب من القسم، هل هذا صحيح»

بضيق ويأس أجاب يوسف:

«للأسف صحيح مستر آدم، اتهموني بقتل نادر.. أقرب أصدقائي، لم أتحمل أن أجلس أمام مجموعة من المغفلين يشغلون أنفسهم بإتهامي عوضاً عن البحث عن القاتل الحقيقي. لم أقتله ولن أقتل أي شخص مهما حدث.. مستر آدم أنت تعرفني جيداً»

«بالتأكيد يا بني، لن أدعهم يمسونك بسوء، سيقوم الفندق بتعيين محامي للدفاع عنك. المهم أن تعود الآن حتى لا يقوموا بإتهامك بالهرب أيضاً، ووقتها سيصبح موقفنا ضعيفاً»

«معك حق مستر آدم. سأعود فوراً»

«لا تتأخر، صاحبتك السلامة»

ثم أغلق الخط.

الفصل الثامن عشر

مرت السيارة على الكمين الأول، جميع من فيها كتم أنفاسه من الخوف. أمسك الضابط رخصة قيادة وحيد الكومي ورخصة السيارة، طالعها لبضع ثواني، ثم نظر داخل السيارة، وجد زينة تجلس في المقعد المجاور للسائق، تبتسم له بوجه رائق، فأعاد الرخص لوحيد وأشار له أن ينطلق.

تنفس الجميع الصعداء، وأولهم يوسف، كان يجلس في المقعد الخلفي، لم يكن يدري هل قام القسم بإبلاغ نقاط الشرطة بنبأ هروبه وتوزيع صورته أم ليس بعد، لهذا أخبر مستر آدم أنه سيعود إلى القسم وسيقوم بتسليم نفسه، حتى يتسنى له الوقت للهروب خارج المدينة.. من دون أن يقوموا بتبليغ نقاط الشرطة والكمائن عنه.

رغم أنه ليس واثقاً بالعنوان الذي يزعم وحيد الكومي أنه عثر عليه، إلا أنه كان يريد البعد عن كل ما يذكره بنادر، خصوصاً إذا كان تحقيقاً يقوم بإتهامه بقتله، لا يهتم بما يمكن أن يتورط فيه بسبب هروبه، موت نادر أفقده آخر ذرات العقل السليم في رأسه. لذا قرر

أنه سيسافر معهم إلى القاهرة، ليشاركهم البحث عن الفيلا، خصوصاً بعدما أصرت زينة على السفر، وتحاملت على إصابة ساقها، واكتفت بشراء معدات إسعافات أولية من صيدلية على الطريق.

استغرق طريق السفر ست ساعات متقطعة، توقفوا خلالها مرتين، مرة لتناول الغداء في استراحة على جانب الطريق، ومرة أخرى في أحد المقاهي لشرب فنجان من القهوة يعيد إليهم نشاطهم. في المرتين قام يوسف بدفع الحساب، اعترضت زينة قليلاً، ثم وافقت في حياء عندما أصر، أما وحيد الكومي فلم ينبس ببنت شفة، رغم أنه أكثر من أكل وأكثر من شرب.

وصلوا إلى القاهرة في حوالي الخامسة مساءً، اتجهوا مباشرةً إلى المعادي، وظلوا يسألون المارة عن شارع الشريفة دينا، إلى أن دلهم بائع عجوز في أحد الأكشاك على كيفية الوصول إليه.

عندما وصلوا إلى الشارع المطلوب، قاموا بركن السيارة في أوله وقرروا المشي، أولاً لإراحة أرجلهم من ساعات السفر الطويلة، وثانياً للبحث عن الفيلا بتأني وهدوء.

ساروا لمدة خمس دقائق، بعدها وقعت أنظارهم على قصر يبلغ حجمه ضعف حجم الفلل الموجودة في المنطقة، له حديقة واسعة لا تقل مساحتها عن بضعة آلاف من الكيلومترات، تبدأ ببوابة حديدية ضخمة، ثم صفين من أشجار النخيل الأبيض الذي يطلق عليه «ملوكي»، بعدها يمكنك رؤية باب القصر العالي والعريض. وبعد أن شعروا أنه القصر المطلوب، قطعوا الشك باليقين عن طريق سؤال حارس أحد البنايات المجاورة.

سمي القصر بـ«الشريفة دينا» على اسم مالكته الأولى، وكذلك الشارع كله أيضاً، وهي الأميرة دينا بنت عبد الحميد، ابنة عم والزوجة الأولى للملك الحسين بن طلال، الملك السابق للمملكة الأردنية الهاشيمة، أنجبت منه الأميرة عالية بنت الحسين وانفصلا بذات السنة. ولدت الأميرة دينا في مصر، تخرجت من جامعة كامبريدج، وعملت لفترة في تدريس الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة.

منذ أن تركت الأميرة دينا القصر، لم يسكنه أحد ولم يظهر له مالك جديد، ولا أحد يعلم لماذا ما زالوا يهتمون به ويجعلونه جاهزاً على الدوام لإستقبال زوار. ولهذا أحاطت بالقصر الكثير من الشائعات، بداية من العفاريت التي تلهوا بداخله، مروراً بالعصابات التي اتخذته مقراً لمزاولة نشاطها في تجارة المخدرات، وصولاً إلى استحواذ المخابرات العامة عليه، وجعله أحد مقراتها.

وقف الثلاثة أمام القصر، ثم بدأ وحيد الكومي في الطرق على البوابة، مضت بضع ثواني ثم ظهر رجل أمن شاب قوي البنية، سألهم بلهجة عدائية ماذا تريدون، قال له وحيد الكومي أننا نريد مشاهدة القصر من الداخل، ونود مقابلة مالك القصر. من دون تفكير طلب منهم رجل الأمن أن ينصرفوا، بدأ وحيد الكومي يجادل معه ويرجوه أن يسمح لهم بالدخول، فإذا بالرجل يضع يده خلف ظهره.. ثم يخرج مسدساً أسود ويوجهه ناحيتهم، ارتبك الثلاثة وملأهم الرعب، وفي أقل من ثانية اعتذروا وابتعدوا عن المكان. لم يتكلم

أحدهم حتى وصلوا إلى السيارة، ركبوا في سرعة وأغلقوا الأبواب خلفهم، وكأنهم بذلك يحتمون من الخارج.

بعد دقيقة من الصمت، كانت زينة أول من تكلمت قائلة:

«ما الذي يحدث؟ أكاد أجزم أن هذا القصر تابع للجيش أو المخابرات أو جهة أمنية عليا، ولهذا تصرف حارس الأمن بهذه الطريقة العنيفة. بالتأكيد لن يكتب وائل عنواناً لمكان تقليدي»

قال وحيد الكومي في حماسة نادراً ما يتخلى عنها مهما حدث:

«بالتأكيد، يظنون أنهم طردونا، لن نتركهم، سنقفز من فوق أحد أسوار القصر ونكتشف ما يخفونه بالداخل»

قبل أن يتحدث يوسف تلقى هاتفه المحمول رسالة، قام بفتحها، وجدها من مستر آدم، بعد أن امتنع عن اجابة مكالماته قرر أن يبعث برسالة، كانت تقول: «تمت تبرئتك من تهمة قتل نادر، وتم القبض على عاطف بعد أن ثبت بالأدلة شروعه في قتل صديقكم»

ذهل يوسف وشعر بالضياع، ما الذي يحدث، هناك رائحة تزكم الأنوف تحيط بما يجري حوله، هناك جيفة تفوح رائحتها النتنة في محيط حياته ولا يمكنه اكتشاف مكانها حتى يتخلص منها. قال لوحيد وزينة في صوت يائس:

«سأعود إلى العلمين، تمت تبرئتي من تهمة قتل نادر، وتم اتهام عاطف صديقي، يجب أن أعود لمساعدته، لديه عائلة كبيرة تعتمد عليه»

صاح وحيد الكومي قائلاً:

«ليس هذا وقت الشهامة، نحن على أعتاب كشف الستار عن أحد أكثر الألغاز غموضاً، سيتحدث الجميع عما نفعله حالياً، سندخل التاريخ من أوسع أبوابه»

رد عليه يوسف في غيظ:

«أنت حتى لا تعرف عن ماذا تبحث، من الممكن أن يكون سراباً في النهاية، سأعود فوراً إلى العلمين»

ثم فتح باب السيارة قائلاً لهم إلى اللقاء.

فما كان من زينة إلا أن خرجت خلفه، وأخبرته أنها تود العودة معه إلى هناك، وسيعودون بسيارتها، فعاد متردداً إلى الداخل. سمعهم وحيد الكومي، فأخبرهم على مضض أنه سيعود معهم، وذلك للرجوع إلى الكهف مرة أخرى والدخول إلى باقي البوابات.

طلب يوسف منهم أن يتولى القيادة، فأعطته زينة في سرعة المفاتيح، واتخذت الكرسي المجاور للسائق مقعداً لها، وجلس وحيد الكومي على الأريكة الخلفية.

كان يوسف يقود السيارة في سرعة، وأحست زينة بالتوتر الذي يشعر به، فقامت بوضع يدها بتلقائية على كتفه وربتت عليه، في محاولة لمساعدته على الإسترخاء. لا تعلم لماذا شعرت بالإنجذاب نحوه، لم يكن للأمر علاقة بوسامته أو طريقة ملابسه.. التي توحي بأصول أرستقراطية، أو الإنحدار من عائلة ذات مستوى اجتماعي

مرتفع، ولكنها أحست أنه قريب منها، روح هائمة فقدت شخص عزيز عليها، ورفضت أن تتعايش مع الوضع، فظلت تدور في دوائر مغلقة، وتفاجأ في كل مرة بنفس النهاية السابقة، فلا تصدق وتبدأ من جديد.

استغرق الطريق هذه المرة خمس ساعات فقط، لم يتوقفوا خلالها غير مرة واحدة بعد إلحاح وحيد الكومي الشديد، ابتاعوا بعض الطعام وأكواب من القهوة سريعة التحضير.

خلال الطريق قامت زينة بتشغيل الكثير من الأغاني على الكاسيت، بدأت بأغاني هادئة لمطربات أمريكيات في محاولة لتخفيف التوتر عن يوسف، ثم انتقلت إلى أغاني مطربة أسترالية سطع نجمها في العام الماضي، كانت تعتبرها زينة أكثر من يعبر عنها، لذا بدأت تدندن مع الكلمات برقة: «من الممكن أن أبكي.. وأن ينتزع مكياجي.. ولكنني لا أهتم إذا لم أبدو جميلة.. فالفتيات الكبار يبكين عندما تحطم قلوبهم»

اختلس يوسف النظر إليها وهي تدندن مع الأغنية، وجهها جميل مع خلوه من أي مكياج، شفتيها صغيرتين تتحركان برقة، كتفيها يهتزان قليلاً مع اللحن. للمرة الأولى منذ أن افترق عن داليدا، يشعر بوقع أنثوي رقيق محبب للنفس قريباً منه، والأكثر من هذا، أن عينيها تدل على أنها حطام إنسان يمزقه الماضي، مثله تماماً.

بعد أن انتهت الأغنية، طلب منها يوسف أن يقوم بتوصيل هاتفه المحمول بكاسيت السيارة، ليسمعها بعضاً من أغانيه. انصاعت

له على الفور، فأمسك الهاتف واختار إحدى أغاني الفرقة التاريخية بينك فلويد، انساب صوت المغني الرئيسي رخيماً في البداية، ثم بدأ في الغناء بصوت يائس يغلب عليه الحسرة: «كان العشب أكثر اخضراراً.. وكان الضوء أكثر سطوعاً.. وكان المذاق أكثر حلاوة.. ليالي التساؤل.. ومحيط الأصدقاء.. ضباب الفجر المتوهج.. المياه المنسابة.. البحيرة اللانهائية.. إلى الأبد»

انتهت الأغنية، وأثناء اختيار يوسف لمقطوعة أخرى، وصلوا إلى بداية المدينة، وأوقفتهم نقطة شرطة لرؤية الرخص. أعطى يوسف الرخص للضابط، نظر فيها قليلاً، ثم ضيق عينيه، ونظر داخل السيارة، مرت بضع ثواني، وكأنه يتأكد من شيء ما، ثم طلب من ثلاثتهم أن يترجلوا، بعدما غادروا السيارة، أمر الضابط بعض أمناء الشرطة أن يضعوا يوسف ووحيد الكومي وزينة في سيارة البوكس، ولا يسمحون لهم بالمغادرة.

بدا الذعر على وجه وحيد الكومي وزينة، وغريزياً أمسكت بذراع يوسف، ولكن أمين الشرطة فرق بينهم بعنف، ودفعهم بحدة في اتجاه عربة البوكس.

قال يوسف للضابط وهو يقاومهم:

«مهلاً، أنا ذاهب إلى العقيد حسن صفوت ومستر آدم، مدير الفندق الشهير الذي يقع في شمال المدينة»

ابتسم الضابط بتهكم، ثم قال:

«أنا أعرف حسن بيه جيداً وأعتبره صديقاً لي، وأعرف مستر آدم أيضاً، ولكن في حالتكم، من الصعب التعويل على الصداقات»

«لماذا؟ ما الذي فعلناه؟»

أدار الضابط وجهه ناحية الشارع لمتابعة اللجنة وإيقاف المزيد من السيارات، ثم أمر أمناء الشرطة بصوت عالٍ أن يدخلوهم إلى سيارة البوكس.

الفصل التاسع عشر

قبع ثلاثتهم، يوسف ووحيد الكومي وزينة، في سيارة البوكس محشورين بأحد جوانبها، يضربون أخماساً في أسداس، يحاولون تخمين سبب القبض عليهم بهذه الطريقة وكأنهم سرقوا إحدى السيارات، أو تم العثور على مخدرات في حوزتهم.

بدأت زينة في البكاء، وطلبت من أحد أمناء الشرطة الجالسين معهم أن تهاتف أسرتها لتعلمهم بمكانها، ذهب الأمين إلى الضابط، ثم عاد وأخبرها أنه غير مسموح لهم بإستخدام هواتفهم. ازداد بكائها وبدأ جسدها يهتز من النشيج، توتر يوسف، وطلب بكياسة أن يسمحوا له بالحديث مع الضابط مرة أخرى، لأمر هام، قد يتعلق بسبب القبض عليهم.

قطب الأمين وبدا عليه التفكير، ثم اتخذ قراره وذهب إلى الضابط.. الذي عاد برفقته، ونفاذ الصبر بادٍ على وجهه. قال له يوسف:

«يجب أن أهاتف العقيد حسن صفوت أو مستر آدم، أقسم أن

الوضـع خطير وغـير طبيعي، ألقـوا القبض على عاطـف صديقي.. متهمينـه بقتل صديقنا نادر، وقد اتهمـوني بقتله من قبل، يوجد شيء غريب يدور»

رد الضابط في لهجة حذرة:

«أكنت متهماً بجريمة قتل؟»

«أ.. أجل، ولكن تمت تبرئتي»

استدار الضابط منصرفاً، وترك يوسف يتلعثم وهو يحاول أن يستبقيه، ثم أخرج من جيبه هاتفاً محمولاً قديماً إلى حد ما، طلب أحد الأرقام ووضعه على أذنه، ثم انتظر بضع ثواني، وتناهى إلى سمع يوسف الجملة الأولى التي تفوه بها، «حسن بيه، ازي معاليك»، ثم ابتعد الضابط فلم يستطع سماع باقي المكالمة.

مرت ثلاث دقائق، عاد بعدها الضابط إلى يوسف، وقال له:

«هاتفت حسن بيه، وأخبرني عنك كل شيء. ولكن صدقني، كل ما حدث لك، هو لعب أطفال أمام ما ستواجهه»

فقد يوسف أعصابه وانفلت منه الكلام بحدة:

«ما الذي يحدث؟؟ أخبرني.. الآن»

قال له الضابط بصرامة:

«اصمت»

ثم استدار منصرفاً، وتركه يغرق في تساؤلاته. استدار يوسف في حنق، فوجد زينة ووحيد الكومي يتطلعون نحوه، وكأنهم كانوا في انتظار أن ينقذهم من هذا المأزق. كان وجه زينة شاحباً، وعينيها حمراوين من البكاء، أما وحيد الكومي فكانت تعابير وجهه أقرب إلى اللامبالاة، فخمن يوسف أنه تعرض لمثل هذا الموقف من قبل، ومن غير المستبعد، بهذه العقلية الغير سوية، أن يكون قد سجن في يوم ما. بعد أن ثقل الصمت بين ثلاثتهم، إلا من نشيج زينة كل بضع دقائق، قال وحيد الكومي في ثقة:

«كنت أعلم أنهم لن يتركونا، اقتربنا من الحقيقة، ومن يقترب من الحقيقة يتم تصفيته، كم من زعيم أوشك على إزاحة الستار، وتنوير العامة، ولكنهم كانوا له بالمرصاد. جون كينيدي، أبراهام لينكن، ليون تروتسكي، أنور السادات، كلهم تم اغتيالهم، أعلم أن دوري قادم، فهذه هي الضريبة التي يدفعها الكبار عن طيب خاطر»

رغم غضب يوسف وسخطه على موقفه الحالي، وجدت البسمة طريقها إلى شفتيه، كلام وحيد الكومي دائماً ما يدعو إلى السخرية، رغم لهجته الأكثر من جادة، ورغم صحة الكثير من المعلومات التي يذكرها، ولكن طريقة تناوله للموضوع، والحديث عن نفسه دائماً، مثيرة للضحك. قال له يوسف:

«رفقاً بنفسك دان براون، الماسونيين قادمون»

عقد وحيد الكومي حاجبيه في غضب حقيقي، وقال في لهجة حادة:

«أتشبهني بهذا البهلوان العميل الخائن للبشرية؟ الذي استخدمته المنظمات العالمية، حتى ينشر بين الناس شائعات الماسونيين والطبقة المستنيرة.. وكيف يسيطرون على العالم منذ بضعة قرون، في حين تفعل المنظمات الحقيقية ما يحلو لها، متحكمةً في الثروات والسياسات والحروب، وحتى اختيار رؤساء دول العالم الثالث.. هؤلاء الدمى المضحكين»

أنهى كلامه وقال مغيراً الحديث.. موجهاً كلامه إلى أحد أمناء الشرطة الجالسين أمام السيارة:

«أريد استخدام دورة المياه، دفعة.. دفعة.. أين الحمام»

نظر إليه الأمناء، وانفجروا في الضحك، قائلين من بين ضحكاتهم أن كل هذه الأرض وما عليها دورة المياه الخاصة بهم. بعد أن هدئوا، قاده أحدهم إلى ما خلف إحدى الكتل الرملية، حتى يفرغ مثانته في الرمل.

بعد أن انصرف وحيد الكومي، مال يوسف على أذن زينة، وقال بصوت منخفض حتى لا يسمعهم أي من أمناء الشرطة:

«أعتذر، أعتذر من كل قلبي على اضطرارك المكوث في هذه السيارة القذرة، في انتظار ما لا نعلمه»

نظرت إليه في دهشة وقالت:

«لماذا تعتذر ليس خطؤك»

«لست واثقاً إن كان خطئي أم لا، ولكن فتاة مثلك، لا ينبغي لها أن تكون هنا. لا يهم خطأ من، لذلك، أعتذر نيابة عن أياً كان المسئول. وأعدك أنني سأخرجك من هنا»

ابتسمت، ثم التصقت بجسده أكثر، مستمدة منه بعض الشجاعة. تأبطت ذراعه، ثم ضغطت عليه بشدة، لإفراغ جزءًا من توترها.

بعد بضع دقائق عاد وحيد الكومي، وجد يوسف يتحدث في أذن زينة، نظر كلاهما إليه إثر دخوله، وقبل أن يفتح فمه ليسألهم عن ماذا يتحدثون، سمعوا صوت إطلاق نيران، وصراخ بعض الجنود الذي يبدوا أنهم أصيبوا. انبطح ثلاثتهم، ووضع يوسف إحدى يديه فوق رأسه، والأخرى فوق رأس زينة، في محاولة يائسة لحمايتها.

لم تمر غير دقيقة واحدة، مرت كدهر من الزمان بالنسبة لهم، وجدوا بعدها بعض الملثمين يقتحمون السيارة، ويأمرونهم أن يتبعوهم، قفزوا في رعب، وذهبوا مع الملثمين إلى سيارة سوداء رباعية الدفع، تم تقييدهم ووضع عصابات على أعينهم في سرعة، ثم قاموا بحشرهم في حقيبة السيارة، وانطلقوا مبتعدين عن اللجنة.

الفصل العشرون

أحمد، العلمين

أصبح أحمد زعيماً للبدو في هذه المنطقة، منذ عشر سنوات تقريباً. رغم صغر سنه الذي لم يتجاوز الأربعين، ورغم أنه ليس أكبر إخوته الرجال، إلا أن قسوته.. التي امتزجت بذكاء وفطنة وانتهاز الكثير من فرص الكسب المادي، أهلوه لأن يتقلد الزعامة.

حدث التحول في حياة أحمد عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، الجميع يعلم ما حدث، ولكن لا أحد يجرؤ على التحدث أو السؤال عنه.

كان مع زوجته وابنته ذات الثلاثة أعوام في زيارة للقاهرة، وكان عائداً في الواحدة صباحاً، عندما فقدت سيارة تبعد عنه بضعة أمتار توازنها وانقلبت بضع مرات، إلى أن استقرت على جانب الطريق. قام أحمد بإيقاف سيارته، وذهب للمساعدة.

بعد أن قام بإخراج سائق السيارة والرجل الجالس بجانبه، وهاتف

الإسعاف واطمأن عليهم، نظر خلفه.. فلم يجد سيارته، بتوتر مسح بنظره كل الجهات، ولكن لا أثر لها، بيد مرتعشة أخرج هاتفه المحمول وهاتف زوجته، وكان هاتفها مغلقاً.

بعد هذه الواقعة، قام جميع بدو المنطقة بعمل تمشيط شامل للمكان الذي اختفت فيه السيارة، أو المكان الذي تمت فيه سرقة السيارة وبداخلها زوجة أحمد وابنته. ولكن النتائج جاءت مخيبة للآمال، وكأن الأرض انشقت وابتلعتهم. طوال ثلاثة أشهر كاملة، كان لدى أحمد أملاً في العثور عليهم والثأر من السارقون، ولكن مع مرور الأيام، بدأ الأمل يخبو، وبدأت شخصية أحمد الجديدة في التشكل، هذه الشخصية التي استحقت زعامة البدو صعبي المراس عن جدارة.

لسنوات طويلة، حتى بعد أن تقلد أحمد الزعامة، ظلت الكوابيس تهاجمه ليلاً، وتجعله يستيقظ لاهثاً وغارقاً في العرق. كان يرى في منامه زوجته، وقد تم إجبارها على العمل كخادمة لمجموعة لصوص، تمضي صباحها في الطبخ لهم وتنظيف أوساخهم، وفي الليل تصبح زوجة لمن يريدها منهم، هذا إن لم يقوموا بمضاجعتها كجماعة في نفس الوقت. وسيقومون بتربية ابنته حتى تبلغ سن الرشد، وبعد ذلك سيقومون بتشغيلها في الدعارة، ومن غير المستبعد أن يقوموا ببيعها لأحد الأثرياء المخابيل.. الذين يدفعون الكثير من الأموال في سبيل النوم مع فتاة عذراء. وكانت أسوأ هذه الكوابيس وأكثرها ظلاماً، أن يعثر على ابنته بعد الكثير من السنوات، فيجدها في مكان غير لائق، كبيت دعارة أو كباريه تلاحق الرجال للحصول على حفنة من الجنيهات، أو ينتهي بها الأمر للعمل كخادمة في البيوت، هي

حفيدة زعيم البدو.. الذي يمتلك ملايين الجنيهات ومئات الرجال الذين ينتظرون إشارة من يده.

ظلت هذه الكوابيس تجلده من دون هوادة، إلى أن بدأ عقله الباطن في تكوين دفاع ضد هذه الأفكار، حتى لا ينتهي به الأمر إلى فقدان عقله تماماً أو الإنتحار. فأصبح يحتقر هذه الحياة، ويرى أنها لا تستحق ما يقوم الناس ببذله لأجلها، وأنه لا وجود للسعادة، ما هو إلا وهم وجدنا آبائنا يعرفونه على أنه من مسببات السعادة، فأصبحنا نكرر الأمر بطريقة آلية مع تحريك عضلات الفك للإبتسام، كما أخبرونا من قبل على أنه علامة للسعادة.

اعتناق هذه الفلسفة، أدى إلى تحويل أحمد لآلة لا هم لها سوى جمع المال والسيطرة على الناس، فكان يقوم بإنتهاز أي فرصة ولو كانت ضئيلة، لتحقيق ربح مادي لأهله وعشيرته. وإذا واجهوا أي مشاكل أو حدث أي نزاع بينهم وبين الشرطة أو مع بدو آخرين أو تجار، يقوم أحمد بالرد بطرق مبتكرة ومميتة، تجبر الخصم على الإنسحاب أو طلب الصلح. ومع زيادة دخلهم، والأمان الذي يشعرون به في وجود أحمد بينهم، قاموا بترشيحه ثم اختياره زعيماً لمجموعتهم، متغاضين عن صغر سنه.

في هذا اليوم، دخل أحد الرجال على أحمد في ما يسمونه بالمقر. قام بتحيته بإحترام، ثم قال:

«سيدي الزعيم، حدث إطلاق نار وهجوم على اللجنة التي تقع عند مدخل المدينة»

نظر إليه أحمد لبضع ثواني، ثم في هدوء وبصوت أجش قال:

«هل تقصد، أن هناك من يمتلك سلاحاً في هذه المنطقة، بل، وقام بإستخدامه أيضاً، ونحن لا نعرف عنه شيئاً، وقد سمعنا صوت إطلاق النيران مثلنا مثل الحريم التي لا تغادر منازلها»

ارتبك الرجل الماثل أمامه، وكان يعلم أن هذا الهدوء لن يلبث إلا أن تليه عاصفة من الغضب. بحذر قال:

«سنبدأ العمل على الفور لتقصي حقيقة ما حدث، على الأغلب هم مجرد لصوص مبتدئين ليس لديهم خبرة. أو مجموعة من الأشخاص الذين لديهم طاراً ضد الداخلية، لذلك قاموا بهذا الهجوم»

في حركة سريعة وعنيفة قام أحمد بقلب الطاولة التي أمامه.. وصاح منفعلاً:

«أيها المخابيل المعاتيه.. لصوص؟ يريدون سرقة لجنة؟ طار؟ أين صلاح، أين هذا القزم»

مرت ربع ساعة، ظل الرجال يبحثون عن صلاح خلالها، حتى عثروا عليه. كان صلاح عجوزاً قصير القامة تخطى السبعين من العمر، ولكن صحته في أتم حال، يمتلك ذكاء فوق الطبيعي، يحفظ كل ركن من هذه المنطقة، ولا يوجد ما يخفى عليه مهما صغر، لذلك قام أحمد بجعله من المقرّبين إليه، وأغدق عليه من المال حتى يضمن ولائه، وفي أكثر من مرة، أثبت لأحمد أن قراره بجعله أحد السادة في هذه المجموعة، كان قراراً حكيماً ومثمراً.

دخل صلاح على أحمد مبتسماً، قال له أحمد بحدة:

«إن لم تكن وراء هذه الإبتسامة أخباراً ذات قيمة.. أقسم أن أجعلك تدفع ثمنها»

ازدادت ابتسامة صلاح، وقال في ثقة:

«وهل خذلت سيدي الزعيم من قبل. منذ أن سمعنا إطلاق النار، حتى قبل أن نسمعه، وقد علمت كل شيء، اختفيت لبعض الوقت، لأتأكد من ما ترامى إلي قبل أن أعرضه عليك»

ثم أكمل وقد تلاشت ابتسامته:

«هل تذكر العام الماضي، عندما جن جنون الشرطة، وأصبح هدفهم الوحيد العثور على شيء لم يجدوه مطلقاً؟»

«أجل بالتأكيد، كانوا وكأنهم يبحثون عن إبرة في كومة قش»

ابتسم صلاح مرة أخرى وقال:

«لقد عاد إلى الظهور مرة أخرى، وفي هذه المرة، يبدو أنهم مصممين أن يضعوا أيديهم عليه، لدرجة أنهم تخلوا عن حذرهم المعتاد»

الفصل الحادي والعشرون

لمدة لم يمكنهم تحديدها، ظل يوسف وزينة ووحيد الكومي مكومين في حقيبة السيارة. كان يوسف يسمع صوت بكاء زينة المختنق، وصوت وحيد الكومي وهو يتهم الكثير من الناس بالتآمر عليه للنيل منه.

فجأة توقفت السيارة، سمعوا صوت أحد الأبواب الأمامية وهو ينفتح، بضع ثواني ثم انفتح غطاء حقيبة السيارة، أيدي قوية أمسكت بزينة ووحيد الكومي، ورمتهما على الأرض، ثم غادرت السيارة ومعها يوسف.

حاول وحيد وزينة أن يتخلصوا من قيودهم، ولكنها كانت محكمة، بدؤوا في الصراخ بصوت عالٍ لعل أحد يسمعهم، ظلوا على هذه الحال لنصف ساعة، ثم استجاب الله لدعائهم، وسمع صراخهم أحد المارة، وقام بالإتصال بالشرطة.

في قسم الشرطة تم فك قيودهم، وإزالة العصابات عن أعينهم. طلب لهم العقيد حسن ماءً وكوباً من الشاي الثقيل مع سكر زيادة،

لكي يستعيدوا نشاطهم ويجيبوا عن استفساراته.. التي لن يغادر أي منهم إلا بعد أن يعطيه كل الإجابات التي يريدها.

بصوت غاضب يغلب عليه التوتر.. قال العقيد حسن:

«ما الذي فعلتوه لكي تحتجزكم اللجنة التي على مدخل المدينة؟»

نظر كلاهما إليه بإندهاش، فزاد غضبه وعلا صوته قائلاً:

«لا تعطوني هذه النظرات البلهاء، أقسم برحمة أمي.. أنني لن أترككم إلا بعد معرفة ما اقترفتموه. قال لي الضابط في اللجنة أنكم مطلوبون من جهة لا يتم رفض لها طلب، ورغم زمالتنا رفض أن يعطيني مزيداً من التفاصيل. لن أكرر السؤال مرة أخرى.. ما الذي فعلتوه؟»

زاد بكاء زينة، بعد أن كان نحيباً صامتاً أصبح صوت نشيجها واهتزاز جسدها واضحاً، فزاد توتر العقيد حسن، ولسبب يجهلوه فقد أعصابه وكأن حياته معتمدة على إجابتهم.. وصاح بهستيريا:

«الإشاعات التي تسمعونها عن تعذيب الناس في الأقسام.. سأجعلها واقعاً تختبرونه إن لم تتحدثوا فوراً»

قال وحيد الكومي في حذر والخوف بادٍ في صوته:

«يمكنني توقع السبب، ولكن أقسم لك أننا لسنا واثقين من شيء، سأخبرك بكل ما حدث»

بحدة قال العقيد حسن:

«تفضل.. كلي آذان صاغية»

«منذ فترة، عثر يوسف.. الشاب الذي اتهمتوه بقتل صديقه، على كهف في الصحراء، وقد تم نقش أحرف أجنبية على جدرانه، هذا النقش من المفترض أن يكون منقرضاً منذ سنوات، والعثور عليه أمر شديد الغرابة والندرة، واليوم صباحاً..»

تم قطع كلامه بعد أن اقتحم شاب غاضب الغرفة، كان طويلاً ذو جسد ممشوق، حليق الوجه قصير الشعر، يرتدي بدلة سوداء مع رابطة عنق حمراء، ملامح وجهه توحي بغضب هائل. دخل في إثره أمين الشرطة، وفي خوف قال للعقيد حسن أن هذا الشاب رفض أن ينتظر ودخل عنوة من دون إذنهم. تطلع العقيد حسن إلى الشاب الغاضب، وبخبرته، أدرك أنه فعل ما فعل لأنه مسنود، لا يوجد من يقتحم قسم شرطة بهذه الطريقة إلا عندما يكون لديه ظهر يحميه. حاول السيطرة على أعصابه وقال موجهاً حديثه للشاب:

«كيف يمكننا خدمتك»

نقل الشاب نظره إلى زينة ووحيد الكومي، فتطلعت إليه زينة، قامت بتضييق عينيها للحظة، ثم تذكرت أين قابلت هذا الشاب من قبل، إنه سامر، الضابط الذي هاتفها وطلب مقابلتها مدعياً أنه صديق زوجها الراحل. قبل أن تسأله ما الذي يفعله هنا، قال سامر للعقيد حسن:

«أريد التحدث معك»

فهم العقيد حسن أنه يريد الكلام معه على انفراد، فأشار إلى غرفة مجاورة، دخلوا إليها، ومرت بضع دقائق، ثم خرجوا. كان وجه العقيد حسن بعدها ممتقعاً، ولاحظت زينة رعشة خفيفة في يده. طلب سامر من أمين الشرطة والضابط أن يغادروا الغرفة ويتركوه وحيداً مع زينة ووحيد الكومي، وبعد أن انصرفوا قال موجهاً حديثه لزينة:

«ما الذي كنتم تفعلونه في المعادي عند فيلا الشريفة دينا؟ وكيف حصلتم على هذا العنوان؟»

أجابت زينة بصوت هادىء إلى حد ما.. فمنذ أن رأت سامر وقد هدأت قليلاً وشعرت ببعض الإطمئنان:

«وجدنا العنوان في رواية قديمة كانت لوائل، وقد تم كتابته عن طريق شفرة سرية، استطاع وحيد الكومي حلها، ثم توجهنا إلى هناك»

نظر سامر إلى وحيد، ثم قال لزينة:

«وأين هذه الرواية؟»

«في سيارتي، تركناها في اللجنة على مدخل المدينة عندما تم اختطافنا»

نادى سامر بصوت مرتفع قائلاً: «حسن.. حسن.. حضرة الضابط»

دخل العقيد حسن إلى الغرفة في سرعة، الرعب يملأ ملامحه، ويبدو من وقفته أمام سامر كخادم يطلب رضا سيده. قال له سامر:

«أريد أن تأتوني بسيارة زينة المركونة عند اللجنة في مدخل المدينة، لا تلمسوا أي شيء داخل السيارة»

نقل نظره إلى زينة وطلب منها مفتاح السيارة، أخرجته من جيبها وأعطته للعقيد حسن، الذي تناوله منها ثم انصرف من الغرفة على الفور. قال سامر:

«لماذا لم تخبريني عن الرواية عند لقائنا في المرة السابقة؟ وهل هناك شيئاً آخر كتبه وائل غير العنوان؟»

ردت زينة على الفور:

«لم أكن قد قرأت الرواية عندما التقيتك، وبالتالي لم أدرك أن هناك رسالة مرفقة داخلها. نعم، هناك أشياء أخرى كتبها وائل بجانب رسالة العنوان، ولكن كلها غير مفهومة»

«ما الذي كتبه أيضاً؟»

صمتت زينة بضع ثواني وهي تحاول أن تتذكر وتشرح الرموز المكتوبة بالألمانية، ولكن قبل أن تبدأ بالحديث، سبقها وحيد الكومي الذي لا يستطيع أن يبقي فمه مغلقاً عندما يتعلق الأمر بالرسائل الخفية والرموز، قال موجهاً حديثه لسامر:

«ما تمت كتابته في الرواية هي كلمات ألمانية، كانت تستخدم في..»

لم يكمل جملته إذ قاطعه سامر وقد ظهر التوتر في صوته واضحاً جلياً:

«كلمات ألمانية؟؟ هل أنت واثق؟»

«تمام الثقة»

هم سامر أن يقول شيئاً ولكنه صمت برهة، ثم قال:

«أين الشاب الثالث الذي كان معكم؟»

أجابه وحيد الكومي:

«قام المختطفون برمينا في منتصف الطريق، ولكنهم أخذوه معهم»

بعد أن أنهى وحيد الكومي جملته، قال سامر بصوت خافت وكأنه يكلم نفسه «أخذوه؟ لماذا أخذوه؟ بالتأكيد له علاقة بـ..»، ثم نظر إلى وحيد وزينة وقال:

«وهل لديكم فكرة عن المكان الذي من الممكن أن يكون المختطفون قد أخذوه إليه؟»

قال وحيد الكومي:

«أعتقد أنني أعلم مكانهم. عند كهف تم اكتشافه منذ فترة ليست بالبعيدة، وقد تم نقش رمزاً أسوداً على جداره، نفس الرمز الذي كتبه صديقكم وائل في الرواية، في نفس صفحة العنوان»

فور أن أنهى وحيد الكومي جملته أمسكه سامر من كتفه وقال وهو يدفعه ناحية الباب:

«هيا ستقودني إليه حالاً»

قبل أن يخرجوا من الغرفة التفت إلى زينة، وقال لها أن تنتظره في القسم ولا تتحرك، حاولت أن تقنعه بالسماح لها بمرافقتهم ولكنه رفض رفضاً قاطعاً.

خرجوا من الغرفة، ووجدوا العقيد حسن جالساً مع أمين الشرطة في انتظارهم، أخبره سامر أنه سيذهب مع وحيد الكومي لإستطلاع أحد المواقع، وستبقى زينة معهم في القسم. وقال له بلهجة آمرة، أن يبقي سيارة زينة في حوزته عندما يأتون بها، ولا يأخذ منها أي شيء، وأن يقوم برعاية زينة ومعاملتها كأفضل ما يكون.

ركب سامر في سيارته، وبجانبه جلس وحيد الكومي.. الذي بدأ يعطيه التعليمات للوصول إلى الكهف.

نشأ سامر في أسرة جميع أفرادها ضباط في القوات المسلحة، لذلك كان قرار الإلتحاق بالكلية العسكرية شبه مفروغ من أمره. تخرج منها بتقدير مرتفع، وسرعان ما بدأ بالتدرج في الرتب مظهراً كفاءة وتفانياً في العمل، حتى تم اختياره في أحد الإدارات الغير معروفة لعامة الناس وحتى لكثير من الضباط، إدارة تدعى «المكتب الدولي». تتلخص مهام هذه الإدارة في التعامل مع جميع الشركات والمنظمات الأجنبية التي تدور حولها الشكوك أو الشائعات أن لها أهدافاً سياسية. أنشأ هذه الإدارة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر شخصياً وأولاها الكثير من الإهتمام والمتابعة، فبعد ثورة ١٩٥٢، وبعد أن بدأت الهجرة الجماعية للأجانب خارج مصر، وبدأ الخوف من عبد الناصر يجتاح قلوب الأوروبيين، بدأت المؤامرات تحاك ضده في الخفاء، وبدؤوا

بدس جواسيسهم عن طريق منظمات تدعي الإهتمام بحقوق الإنسان والحيوان وشركات ذات نشاط تجاري ظاهري.

فكان إنشاء إدارة «المكتب الدولي» خطوة مهمة لمحاربة الجواسيس الأجانب والمصريين الذين يمدون لهم يد المساعدة، وتم اختيار أعضاء الإدارة من القوات المسلحة والشرطة والمخابرات وبعض رجال الأعمال الموثوق بهم وأحياناً بعض الفنانين، وحتى يومنا هذا تعمل هذه الإدارة على مراقبة جميع الأجانب الذين يعيشون بمصر وتم الإشتباه في أمرهم، أو الذين قاموا بإستثمارات في مصر، وحتى الذين قاموا بزيارات عابرة ظاهرها السياحة وباطنها غير معلوم.

أدمن سامر عمله، وكرس له عن رضا تام ساعات عديدة بعد انتهاء الدوام، وأصبح بالنسبة له عشقاً وليس مجرد مهنة. كلفه هذا الإخلاص التام لعمله زيجتين انتهتا بالطلاق، يرى أولاده مرة واحدة كل أسبوع، يشتاق إليهم أحياناً، ولكن المزيد من الإنغماس في العمل ينسيه أي شيء آخر. لذلك، عندما علم أن زينة زوجة الراحل وائل كانت مع رجلين آخرين يطرقون على أبواب إحدى فروع المكتب الدولي، وعندما تم العثور على سيارتهم على أبواب مدينة العلمين، لم ينتظر الدعم للذهاب إلى هناك، وقرر الذهاب منفرداً حتى يتابع الموقف، وأوكل موضوع البحث عن أي أمر طارق أو غريب حدث بالعلمين في خلال الشهور الماضية لأحد مرؤسيه.. وأكد عليه أن يتتبع أحوال المنظمة ومدى استقرارها في الفترة الماضية.

بعد حوالي ربع ساعة من القيادة، أوقف سامر السيارة بناءً على تعليمات وحيد الكومي أمام هضبة متوسطة الإرتفاع. ترجلوا من السيارة، ووقفوا أمام بوابة الكهف.. التي نقش فوقها العبارة الألمانية Meine Ehre Heist Treue.

«هذه العبارة تعني..»

قاطعه سامر قائلاً:

«اصمت، أعرف تماماً معنى العبارة.. وأعرف المصيبة التي تقع خلفها. هل يمكنك فتح البوابة؟»

«بالتأكيد»

اتجه وحيد الكومي ناحية النقش، وبدأ بالضغط على الحروف بالترتيب الذي جربه مع يوسف وزينة في المرة السابقة، وببطء بدأت البوابة تنزاح ناحية اليمين، وظهر أمامهم ممر مظلم.

الفصل الثاني والعشرون

تم نزع العصابة من على عين يوسف. كان يجلس على مقعد غير مريح، ويديه ما زالتا مقيدتين خلف ظهره. فتح عينيه ببطء، طالعه في البداية وجهاً مألوفاً، أغمض عينيه لبضع ثواني، ثم فتحهما مجدداً، ووجد أمامه مستر آدم وهو ينظر إليه، وبجانبه وقف بيتر مدير الأمن، وخلفه أحد رجال الأمن مفتولي العضلات. قبل أن يفيق من المفاجأة قال له مستر آدم.. بصوت مختلف عن صوت الرجل العجوز الطيب الذي يحبه الجميع:

«مرحباً، لا وقت لهذه النظرات المندهشة، يكفي ما تسببت فيه من فوضى، أين الكتاب؟»

ظلت الدهشة تعلو وجه يوسف، وسرعان ما بدأ عقله بوضع المزيد من قطع الأحجية في أماكنها الصحيحة، فكان أول ما خرج من فمه هو:

«أين داليدا؟»

بنفاذ صبر أجاب مستر آدم:

«بيتر على حق، كان يجب التخلص منك منذ البداية، ولكنني لم أتخيل أن تظل تبحث وتثير الفوضى لأجل فتاة تركتك كخيل سبق أصبح عجوزاً وقاموا بقتله. ليس لدينا الكثير من الوقت، وحقاً لا نريد المزيد من الدماء، البساط الذي نمشي عليه لا يحتمل إخفاء المزيد من الجثث أسفله، لذلك أرجو منك التعاون، أين الكتاب؟»

بطريقة آلية أجاب يوسف في سرعة:

«أين داليدا أولاً»

زفر مستر آدم، وقال:

«هل تظن أننا في أحد أفلام جيمس بوند وسنقوم بالإحتفاظ بها مقيدة فوق بحيرة مليئة بأسماك القرش.. حتى تأتي وتنقذها؟ تخلصنا منها منذ أن حاولت ابتزازنا واتهامنا بإفساد حياتها، هكذا أنتم العرب، تختارون الطريق المرضي لشهواتكم، ثم تلقون باللوم على الحياة الغير منصفة»

لاخظ مستر آدم الدهشة التي علت وجه يوسف إثر قوله «هكذا أنتم العرب»، فقال:

«أجل، هكذا أنتم العرب، اسمي آدم ماكلاين، تعلمت العربية وأتقنتها، وعشت في مصر طوال عمري، وأوحيت لجميع من حولي أنني مصري. وهذا لأنكم شعب لا يثق بالأجانب بطبيعته، تحبون

الأجانب وتحترمونهم، ولكن لا تثقون بهم مهما أبدوا من احترام وولاء»

«من أنتم؟ وماذا تريدون؟»

«لا نريد غير الكتاب الذي سرقته صديقتك منا. أما من نحن، فهذا سؤال تطول إجابته. ما الذي تعرفه عن الـ«أوديسا ODESSA»، ولا أتحدث هنا عن ملحمة هوميروس الإغريقية الشهيرة، ولا عن المدن والبلدان الكثيرة التي أطلق عليها هذا الإسم، أتحدث عن الأوديسا الأقوى على مر التاريخ»

الفصل الثالث والعشرون

يونيو ١٩٤٤، برلين، ألمانيا

في منتصف شهر يونيو من العام ١٩٤٤، اجتمع أدولف هتلر زعيم الحزب النازي ورئيس الحكومة الألمانية في هذا الوقت، بقادة جيشه المتواجدون في ألمانيا ووزرائه ومستشاريه وأعضاء الحزب المشاركين في اتخاذ القرارات العليا، وذلك بعد سلسلة من الهزائم التي لحقت بالجيش النازي وتابعيه لمدة عامين متتاليين، كان آخرها معركة نورماندي أو هبوط قوات الحلفاء في نورماندي في السادس من هذا الشهر. وأسفر هذا الإجتماع في نهايته، عن اتخاذ بضعة قرارات، قامت بتغيير جذري في تشكيل مستقبل البشرية.

أجمع الكثير من المؤرخين أن هزيمة ألمانيا وقوات المحور في الحرب العالمية الثانية، بدأت في ديسمبر ١٩٤١، عندما قامت القوات اليابانية بالإعتداء المفاجيء على ميناء «بيرل هربور Pearl Harbor» في الولايات المتحدة الأمريكية، أتبع هذا الإعتداء تصريح من ألمانيا بإعلان الحرب على أمريكا، فقررت الولايات المتحدة الأمريكية

الدخول في الحرب بكل ثقلها بجانب إنجلترا وفرنسا والصين وبولندا والإتحاد السوفيتي المعروفين بقوات الحلفاء. فأصبحت الجبهات التي يتوجب على ألمانيا وقوات المحور مواجهتها أكثر من قوة تحمل جيشها ومعداتها.

كانت الخسارة الأولى المباشرة لقوات المحور، في معركة العلمين الثانية بشمال أفريقيا في نوفمبر ١٩٤٢، عندما انتصرت القوات البريطانية بقيادة برنارد مونتغمري على القوات الألمانية والإيطالية بقيادة إرفين روملِ، وأجبروهم على التراجع خارج مصر وصولاً إلى ليبيا ثم الخروج من كل شمال أفريقيا إلى مالطا.

توالت بعد هذه المعركة الهزائم على قوات المحور، وكان أهمهم عملية يورانوس، وهي اسم شفرة استخدمها الجيش السوفيتي نجح من خلالها في محاصرة الجيش الألماني السادس وأجزاء من الجيش الرابع حول مدينة ستالينجراد السوفيتية، التي تسمى مدينة فولجوجراد في يومنا هذا، استمرت المعركة لمدة ستة أشهر حتى فبراير ١٩٤٣، وتم تطويق ما يقرب من ٢٥٠٠٠٠ جندي ألماني بعد عجز القوات الرومانية المسئولة عن حماية الجناحين الأيمن والأيسر للجيش السادس الألماني في صد هجوم السوفيت، ومع دخول الشتاء ومواصلة الحصار، وبسبب البرد والجوع الذي هاجم الجنود الألمان، وتعطل الآليات والمضرعات لنقص الوقود.. زادت ديكتاتورية أدولف هتلر الطين بلة، حيث رفض رجاء قائد الجيش السادس في كسر الحصار ومغادرة ستالينجراد، وأمرهم بالبقاء مهما كلفهم

الأمـر، اتباعاً لسياسـته التي تنص على «عدم الإستسـلام مهما كلف الأمـر.. والقتال حتى الموت»، ووعد بإرسـال إمـدادات عن طريق جسر جوي، هذه الإمدادات التي لم تنجح في الوصول مطلقاً، بسبب احتلال جيش السـوفيت للمطارات التي تستعملها القوات الألمانية سـواء داخل المدينة أو خارجها. قاد كل ذلك الجيش الألماني للإنهيار التـام، وقامـت بعض قـوات الجيش بالتسـليم في ٢ فبرايـر ١٩٤٣، وواصل الآخرون القتال إلى أن تمت تصفيتهم جميعاً حتى آخر جندي.

توالت الهزائم في العام التالي على الجيش الألماني وتابعيه في الكثير من الجبهات، حتى السادس من يونيو ١٩٤٤، حين تم دق المسمار الأخير في نعش ألمانيا النازية، إثر هبوط قوات الحلفاء في نورماندي، ويعد أكبر هبوط بري خلال يوم واحد في التاريخ، حيث هبط حوالي ١٦٠٠٠٠ مقاتل بالإضافة لأكثر من ١٩٥٠٠٠ ملاح بحري وتجاري على متن أكثر من ٥٠٠٠ سفينة، وكانت تبعات هذا الهبوط تحرير مدينة باريس من أيدي الألمان، وبدء تراجعهم من بلدان أوروبا إنتهاءً إلى سقوط برلين في يد الإتحاد السوفيتي في ٢ مايو ١٩٤٥، وانتهاء ألمانيا النازية والرايخ الثالث.

بدأ الإجتماع في التاسعة صباحاً، جلس أدولف هتلر على رأس المائدة المستطيلة، وبدأ في الحديث، مستخدماً نبرته الحماسية، وقدراته في الإلقاء والخطابة، هذه الموهبة التي قامت بتوجيه الشعب والجيش الألماني إلى حتفه.

بدأ حديثه بالكلام عن مستقبل ألمانيا بعد السيطرة على أوروبا

وإخضاع الإتحاد السوفيتي ثم العالم بأجمعه بعدهما، اعترف أن قواتهم تواجه بعض الصعوبات في معاركها، ولكن كل شيء يهون أمام عظمة ألمانيا والرايخ الثالث وحقه في حكم العالم لعلو مقامه عن بقية البشر، صاح قائلاً:

«الجنس الآري لن يخضع.. لن يخضع.. وسيتبوأ مكانه كسيد البشر.. و..»

وفي سابقة هي الأولى من نوعها، قام أحد الحضور بمقاطعة الفوهرر، كان هذا الرجل «هاينريخ هملر Heinrich Himmler»، الرجل الثاني بعد أدولف هتلر في ألمانيا النازية، قائد فرقة القوات الخاصة الألمانية وزعيم المخابرات الألمانية المعروفة وقتها بالجستابو، والمسئول الأول عن قرار إبادة الكثير من المدنيين في معسكرات الموت، هذا غير الكثير مما لم يعرف عنه أو يتم التأكد منه كمحاولة عمل دين جديد خاص بالرايخ الثالث. قال هملر أشرس رجال ألمانيا النازية وأكثر المؤمنين بها:

«أيها الفوهرر، أنا أكثر المؤيدين لك وأكثر المؤمنين بك، والجميع يعلم مقدار إيماني بألمانيا ورؤيتي لها على قمة العالم. أرواحنا فداء الوطن وفداء حلمنا بالسيادة، ولكن ما لن أسمح به.. هو أن تذهب أرواحنا سدىً.. لن نموت.. ونحن نعلم أن أبنائنا وأحفادنا سيصبحون عبيداً يدفعون ثمن حلمنا»

ساد الهرج الإجتماع وألجمت المفاجأة لسان الفوهرر، صاح هملر بصوت غاضب أسكت الجميع:

«سياسة عدم الإستسلام والقتال حتى الموت ستجهز على آخر ألماني على قيد الحياة، إذا استمر الوضع على ما هو عليه.. ستصل قوات الحلفاء إلى برلين، سيصبح جنودنا جثثاً تطأها الأقدام وستصير نساؤنا عبيداً وسبايا لجنود الجيش الأحمر (السوفييت)»

استجمع هتلر شتات نفسه بعد هذه المفاجأة، وقال:

«هل جننت؟ لا يوجد من لديه مثل هذه المخيلة الخصبة حتى يحلم بقدوم مثل هذا اليوم»

«هذا اليوم قادم لا محالة، جميع التقارير القادمة من الخارج تؤكد ما أقوله»

كاد هتلر أن ينهره ولكن قام أحد الحضور بتأييد ما قاله هملر، وقام شخص ثالث بالموافقة أيضاً، وفي خلال ثلاثين ثانية كان معظم الحضور يؤيدون رأي هملر.

بثقة اكتسبها من تأييد معظم الحضور له.. قال هاينريخ هملر:

«لحسن الحظ، لن تسقط ألمانيا ولا زال هناك نفس يتردد في صدري. لقد أعددت خطة، تضمن سيطرة ألمانيا على العالم، حتى إن خسرنا الحرب، ووصلت قوات الحلفاء إلى برلين»

مال جميع الحضور إلى أمام وكلهم آذان صاغية، بما فيهم أدولف هتلر، الذي تخلى عن زعامته مؤقتاً، ورضخ فيما يبدو لرأي الأغلبية. جزء مما دفعه للرضوخ هو فضوله في سماع خطة هملر، عن كيفية السيطرة على العالم.. حتى مع خسارة الحرب.

استمر الإجتماع إثنتي عشرة ساعة كاملة، لم يتفرق الجمع إلا في التاسعة مساءً، ومع كل منهم أوامر ومهام جديدة يجب عليه البدء فيها وتنفيذها بأقصى سرعة.

كانت خطة هملر تتوقع خسارة ألمانيا في الحرب، وتتعامل مع هذا المنطلق، وبعدما عرض عليهم جميع التقارير وقام بربطها مع المعارك التي هزموا فيها، خصوصاً بعد هبوط نورماندي، أيقن الجميع أن الخسارة وشيكة.

تنص الخطة على أن يبدأ جميع أعضاء الحزب النازي البارزين ورجال الأعمال وقادة الجيش والمسئولين وكل من له صلة بصنع القرار.. في مغادرة ألمانيا، والإنتشار في أنحاء مختلفة من العالم، خصوصاً في دول العالم الثالث، البلاد التي يمكن شراء القوانين فيها بالرشاوى، وفرص الإستثمار فيها واعدة، كبلدان أمريكا الجنوبية وشمال وجنوب أفريقيا وبعض بلدان آسيا، وسيتم تهريب جميع الثروات التي بإمكانهم تهريبها معهم، لكي تكون نواة لعمل إمبراطورية اقتصادية في جميع أنحاء العالم، تساند ألمانيا الأم في نهوضها بعد الحرب، وفي عودتها إلى مكانها الطبيعي بين الدول العظمى.

قال هملر في وسط الإجتماع:

«في السنين القادمة، لن تكون الغلبة لمن يملك السلاح، ستكون القيادة لمن يتحكم في الإقتصاد والأموال، لن يتم حكم الناس بالحديد والنار، سيصبحون عبيداً بإرادتهم، عبيداً لمأكلهم وملبسهم ومسكنهم، وعند صنع هذا النوع من العبيد، ستضمن عدم تمردهم، بل سيكونون جنودك في محاربة المتمرد قبل حتى أن تحرك ساكناً»

ثم أضاف بلهجة حالمة:

«ربما نخسر الحرب، وربما نقتل، ولكن أفكارنا لن تموت، وتبوئنا لسيادة العالم أمر مفروغ منه، ذلك لأن قلوبنا مضادة للرصاص»

وعلى إثر هذه النظرية، بدأ رجال الرايخ الثالث في مغادرة ألمانيا تباعاً، وقد قاموا بتحديد البلدان التي سيتمركزون فيها تحت هويات مستعارة. ومن ضمن البلدان التي وقع اختيارهم عليها، مصر، خصوصاً منطقة العلمين، لما لهم فيها من خبرة ومعرفة بالأماكن بعد أن دخلها الجيش الألماني وتمركز فيها لبعض الوقت بقيادة إرفين رومل، ولسهولة الوصول إليها عبر البحر، ولما لهم فيها من علاقات وجواسيس في أماكن بارزة بإمكانهم تقديم المساعدة ويد العون.

بعد النجاح المقبول للجزء الأول من خطة الداهية هاينريخ هملر، فأصبح للكثير من مسئولي ألمانيا النازية أرجل في البلدان المتفق عليها، وبعد تهريب كل الثروات القابلة للإنتقال عبر البحر والمحيطات، بدأ الجزء الثالث ثم الرابع من الخطة.

الجزء الثالث هو بناء كيانات وإمبراطوريات إقتصادية، ونجح الألمان في هذا الجزء نجاح منقطع النظير، فقاموا بالإستثمار في الفنادق والخمور والأطعمة والعقارات ومشاريع إعادة البناء بعد الحرب، هذا غير السيارات والصناعات الثقيلة.

أما الجزء الرابع فكان شديد الحساسية والخطورة، إذ كان ينص على مساعدة البلدان التي تقع تحت الحكم البريطاني في التمرد ونيل حريتها، حتى يتم إضعاف شوكة المملكة البريطانية، وتخف قبضة

جنودها وضباطها في البحث عن رجال الحزب النازي السابقين. وقام بالمشاركة في هذا الجزء عدد قليل من ضباط الرايخ الثالث، هؤلاء المشهود لهم بالذكاء والحنكة والقسوة الشديدة وقت اللزوم.

بدأ ضباط الحزب النازي في محاربة المملكة البريطانية في مصر، عن طريق التواصل مع أحد ضباط الجيش المصري، كانوا قد تواصلوا معه منذ بضع سنوات في خضم الحرب، وذلك لمحاربة الإنجليز على أرضه المحتلة، كان ضابطاً شاباً وقتها يدعى محمد أنور السادات، وقد قال جملته الشهيرة بعد سنوات، عندما سئل عن سبب تعاونه مع الألمان، فقال «عدو عدوي صديقي»، ولأن مصر كانت ترزح تحت الإحتلال البريطاني، وكان الألمان أعدائهم اللدودين، وجدها الضابط الشاب فرصة لضرب الإنجليز، وقام بالتواصل ثم التعاون مع الألمان.

وصل التعاون بين ضباط الجيش المصري والألمان مداه في أواخر العام ١٩٥١، وبدؤوا للتخطيط معاً في الإطاحة بالملك، ثم طرد الإنجليز من الأراضي المصرية فيما بعد، وقد نجحت خطتهم في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وأسقطت مصر نظام الملكية الداعم لوجود الإنجليز.

لبضع سنوات أخرى، ظل التعاون بين الألمان والضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر قائماً، إلى أن تم جلاء الإنجليز نهائياً عن الأراضي المصرية. ولكن بعدها، بدأ الزعيم جمال عبد الناصر بالتململ من طلباتهم، خصوصاً عندما طلبوا منه إرسال عمال مصريين للمساعدة في بناء ألمانيا، رفض رفضاً قاطعاً، وقال لهم أن الأوروبيين كانوا يأتون إلى مصر للعمل وتكوين ثروات بها، والمصريين أحق بهذه الثروات الآن.

بعد هذه الواقعة بعام واحد، انقطع التواصل والتعاون مع الألمان، احتفظ كلاً من الطرفين بشراكتهم السابقة سراً، وفي المقابل، تركهم جمال عبد الناصر يعملون على الأراضي المصرية ولم يمسس استثماراتهم بسوء، خوفاً من حديثهم عما تم بينهم في الماضي. وحتى يومنا هذ، لا يزال الألمان يملكون استثمارات ضخمة، في الكثير من بلدان العالم الثالث ومن ضمنهم مصر، هذه الإستثمارات التي كانت نواة لألمانيا الجديدة.. التي تحكم أوروبا اليوم من دون أن تملك جيش أو معدات حربية.

في عصرنا هذا، يوجد الكثير من المؤرخين والمهتمين بالتاريخ، خصوصاً تاريخ أوروبا وألمانيا النازية، يؤيدون هروب هتلر ومعاونيه قبل سقوط برلين في يد السوفييت. ويستندون في نظريتهم هذه على عدة حقائق، أولاً ما ظل يردده الرئيس الروسي جوزيف ستالين زعيم الإتحاد السوفيتي وقت الحرب، فقد ظل يردد حتى آخر يوم في عمره، أن أدولف هتلر فر من ألمانيا قبل اجتياحها، والجثة التي وجدوها ونسجوا حولها قصة انتحاره لا تعود له، وإنما قامت بنسجها المخابرات البريطانية، حتى لا يصاب الناس بالذعر من هذا الخبر، وتبدأ الإشاعات تدور حول إعادة تشكيل الحزب النازي في مكان آخر.

ثانياً تكليف ألبرت شبير، أحد وزراء الرايخ الثالث البارزين والمسئول عن الأعمال الهندسية، بإعادة بناء وتقسيم برلين وقت الحرب. الكثير من الناس يتسائلون عن هذا الأمر ويعتقدون أنه في

غير محله، لماذا يقوم هتلر ببذل الجهد في إعادة تشكيل وبناء عاصمته.. في الوقت الذي يحتاج فيه إلى كل رجل وكل قرش للفوز في الحرب الشعواء التي شنها. انقسمت الآراء، ولكن الكثير من المؤرخين يرجح أن إعادة البناء تضمنت إنشاء سراديب أتاحت للضباط الهروب وقت سقوط برلين.

ثالثاً، في يوم اجتياح الجيش الأحمر لبرلين، قام بعض الألمان بتحويل إحدى طرق برلين الرئيسية إلى مهبط للطائرات، وقامت طائرة ألمانية بالإقلاع من هناك في ساعات الهجوم الأولى، ولم يفلح الجنود السوفيت في إيقاعها. وحتى يومنا هذا، لا أحد يعرف أين ذهبت هذه الطائرة ومن الذي كان على متنها.

رابعاً، وصلت غواصة ألمانية إلى الأرجنتين بعد انتهاء الحرب، ومن وقت وصولها يمكن التنبأ أنها أقلعت من ألمانيا يوم اختفاء هتلر، وعند العثور عليها كانت فارغة، قام من عثروا عليها بتسليمها إلى السلطات الأمريكية، وأيضاً، لم يتم التعرف على من كان على متنها.

خامساً وأخيراً، كان فرانشيسكو فرانكو القائد العسكري ورئيس أسبانيا وقتها.. أحد الفاشين في أوروبا، وكان مؤيداً متعصباً لهتلر وألمانيا النازية، وبعد انتهاء الحرب، لم يقدم أي مساعدة في البحث عن ضباط الحزب النازي، والكثير من الذين عاصروا هذه الفترة، أجزموا أنه كان يخفي جنود وضباط سابقين في الحزب النازي، وساعد آخرين على الفرار.

بالإضافة لفرانشيسكو فرانكو، كان هناك رئيس الأرجنتين خوان بيرون ومن خلفه النظام الأرجنتيني بأكمله، فالكثير من المواطنين الأرجنتينيين ورجال الأعمال المتحكمين في الإقتصاد وقتها، أصلهم من أسبانيا وإيطاليا وألمانيا، وكانوا من المؤيدين لقوات المحور، وعندما سقطت ألمانيا ومعها حلفائها، بدأ النظام الأرجنتيني والكثير من رجال الأعمال، في مساعدة الضباط والجنود الألمان في الهرب إلى الأرجنتين، خصوصاً أن هؤلاء الضباط والجنود كانوا يملكون الكثير من النقود والثروات، التي استخدموها لتسهيل هربهم.

الكثير من النظريات المؤيدة لهروب هتلر ومسئولوا الحزب النازي، والكثير من النظريات الأخرى التي تجزم انتحار هتلر وإلقاء القبض على معظم معاونيه، ولكن في يومنا هذا، مع قوة اقتصاد ألمانيا، ودورها الزعامي في قيادة الإتحاد الأوروبي ومنعه من التفرقة رغم الأزمات التي يمر بها، يمكن التفكير أنه بعد سقوط الرايخ الثالث وتعرضه للهزيمة في الحرب.. هناك رايخ رابع يسعى لقيادة العالم كالسابق، مع اختلاف الطريقة.

الفصل الرابع والعشرون

وقف سامر ووحيد الكومي أمام الممر المظلم في الكهف، بعدما نجح وحيد في فتحه من المحاولة الأولى.

تقدم سامر للأمام، ولكن وحيد أمسك مرفقه، وقال له:

«انتظر، قمنا بمحاولة سابقة للدخول، ولكن هناك أسياخ من حديد اندفعت من الحوائط الجانبية وأصابت الفتاة التي كانت معنا، يجب علينا أخذ الحذر»

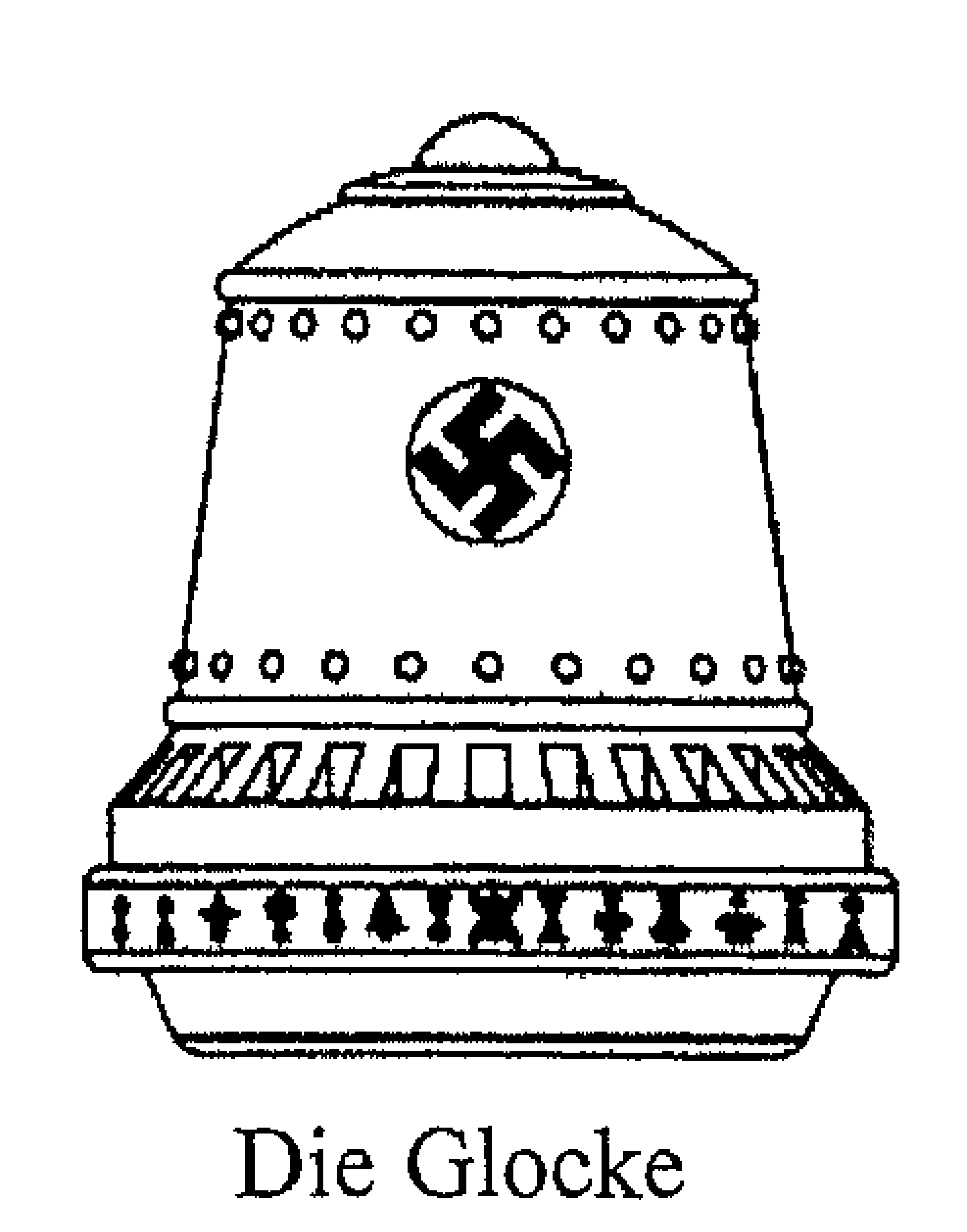
نظر إليه سامر، ثم أفلت يده وتقدمه في الدخول. ساروا بهدوء إلى الداخل، وبعد أقل من عشرون متراً، وجدوا الفتحات التي خرجت منها الأسياخ وضربت قدم زينة في المرة السابقة، قال وحيد الكومي لسامر:

«احترس، من هذه الفتحات خرجت أسياخ حديدية قامت بجرح قدم زينة»

ألقى سامر نظرة عليها، ثم بدأ بالركض والقفز من فوقها، ووصل

إلى الناحية الأخرى من دون أن يحدث شيء. حذا وحيد الكومي حذوه، ووقف كلاهما أمام البوابة الثانية.

كان على البوابة الثانية نقش أسود كبير، يمثل ما يبدو أنه جرس عملاق، أسود اللون مع علامة الصليب المعقوف في المنتصف بلون أبيض. قال وحيد الكومي:



Die Glocke

«هل تعرف ما هذا؟»

من دون أن ينظر إليه سامر أجاب وهو يتحسس النقش:

«بالتأكيد أعرف ما هذا، السؤال هو كيف يمكننا فتحه»

رد وحيد الكومي في ثقة:

«لا تقلق، فمثل هذه الأشياء هي الأسهل بالنسبة لشخص مثلي»

كان أمامهم يقبع نقش لما يسمى بجرس النازية Nazi-Bell،

وتحته نقشت أحرف ألمانية تقول Die Glocke، وتعني «الجرس» في اللغة الألمانية. يفترض المؤرخون والعلماء أن جرس النازية هو إحدى الآلات الحربية التي كان يعمل عليها العلماء الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، وكان هؤلاء العلماء هم صفوة العقول الألمانية، إذ هم الذين قاموا بإختراع الصاروخ V2، ويعتبر هذا الصاروخ هو أول جسم من اختراع البشر يغادر المجال الجوي ويصل إلى الفضاء. ولكن خسارة الحرب منعتهم من استكماله، ويفترض أنه كان السلاح المعجزة، الذي سيغير مجرى البشرية ويعطي السيادة المطلقة لألمانيا وحلفائها، ولكن مع انتهاء الحرب، ودخول قوات الحلفاء إلى ألمانيا، لم يتم العثور على أي أثر لهذا السلاح.

اقترب وحيد الكومي من النقش، وقال:

«جرس النازية، آلة الزمن التي سيعثر عليها يوماً ما»

قال سامر في دهشة:

«هل تصدق أن هذا السلاح.. الذي لا يوجد أي دليل حي على وجوده، غير بعض الإشاعات والأقاويل المأخوذة عن جواسيس سابقين، هو آلة للسفر عبر الزمن؟؟»

«هو بالتأكيد آلة للسفر عبر الزمن، وسيتم العثور عليها، لي بعض الأصدقاء الذين رأوها من قبل، ولكنها اختفت فجأة قبل أن يقوموا بتصويرها أو التبليغ عن مكانها. قام العلماء الألمان بإخفاء الجرس عن قادتهم، وذلك لأنه إن وقع في يد الجنرالات المجانين ستكون نهاية العالم»

توقع سامر وقتها أي نوع من الرجال هو وحيد الكومي، ولأنه يحتاج إليه حالياً، قرر أن يجاريه قليلاً. فقال له في لهجة رجاء أن يقوم بفتح البوابة، وسيتناقشون في هذا الموضوع لاحقاً.

«بالتأكيد»

هكذا قال وحيد الكومي في حماسة، هذه الحماسة التي تنتابه عندما يشعر أنه مطلوب.

وضع يديه على الحروف المنقوشة أسفل الجرس، Die Glocke، ثم قام بالضغط ثلاثة مرات على الحرف الأول في الكلمة الأولى «D». مرت بضع ثواني، ثم بدأت البوابة في التحرك ببطء ناحية اليمين، وأصبح المدخل أمامهم مفتوحاً.

«كيف علمت طريقة فتحها؟»

سأل سامر وحيد الكومي، فأجاب الأخير في فخر:

«أخبرتك من قبل، بالنسبة لشخص أمضى عمره في البحث عن الأشياء الغامضة والشائكة والتي تقوم الحكومات والمنظمات السرية بإخفائها، فتح بوابة قديمة هو أمر هين»

ابتسم سامر لثقة وحيد الكومي الشديدة في نفسه، وكان يعرف بحكم دراسته لعلم النفس في أحد فترات حياته، أن هذه الثقة الزائدة ما هي إلا غطاء لخوف شديد من الفشل، ومن النظر إلى ملابس وحيد الكومي الرثة وذقنه الغير حليقة، يمكنه أن يتوقع أن النجاح المادي لم يتحقق له بعد، لذلك عليه أن يعزز من ثقته بنفسه ويشد من أزره، حتى لا ييأس ويحيد عن الطريق الذي اختاره.

قام وحيد الكومي بالضغط على الحرف «D» ثلاثة مرات، وهو الحرف الأول في الجملة المكتوبة، وذلك لأنه عندما بدأ العلماء في تصنيع هذا السلاح المفترض أن يكون فتاكاً، قال رئيس العلماء لهتلر أنَ هذا السلاح سيضع ألمانيا على قمة العالم من دون أي جهد أو خسائر بشرية، قال له: «سنكون رقم واحد.. واحد.. واحد»، ولذلك ارتبط الرقم واحد بهذا السلاح.

سار سامر ووحيد الكومي ببطء وحذر شديدين جنباً إلى جنب، وبدؤوا بالدخول في الممر المظلم. بعد بضع خطوات، وقعت أنوار هواتفهم المحمولة على ما يبدو أنها فتحات مغلقة في الأرض، ثلاثة فتحات متتالية تم غلقها بدوائر حديدية فبدت كبلاعات في منتصف الطريق.

قال وحيد الكومي:

«كما أخبرتك من قبل، لن يكون المرور من دون عوائق، لابد أن هذه الفتحات تحتها شيئاً ما»

من دون أن يرد عليه سامر، أخذ خطوة إلى الوراء، ثم انطلق يجري إلى الأمام، وقفز من فوق الفتحة الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، من دون أن يحدث أي تغير في الفتحات. وقف على الناحية الأخرى ونظر إلى وحيد الكومي، الذي أومأ برأسه، ثم انطلق يجري.

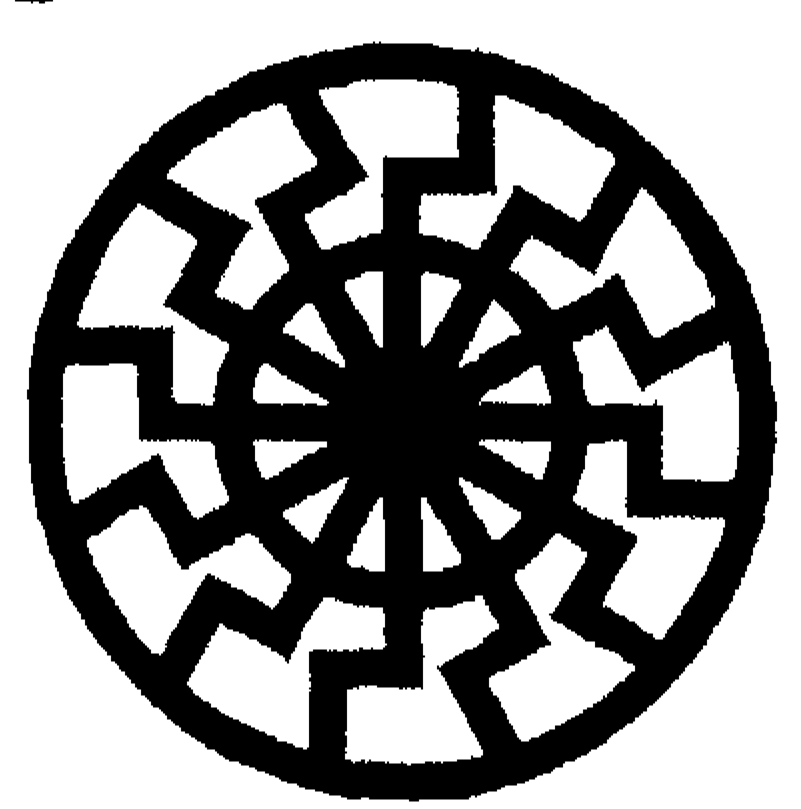
قفز فوق الفتحة الأولى، ثم الثانية، ثم وهو يقفز فوق الثالثة.. انطلقت نيران من دوائر صغيرة تقع على أطراف الفتحة، حرقت قدمه اليسرى، ولكنه كان قد أكمل قفزته وأصبح بجانب سامر.

وقع وحيد الكومي على الأرض، وأمسك بقدمه وهو يتألم، فمال عليه سامر، وقام بتمزيق سرواله كي لا يلتصق بالجرح، ثم أخرج من جيب سترته علبة صغيرة، بها أدوات إسعافات أولية، وبدأ بتطبيب جرح وحيد الكومي. سأله الأخير:

«لماذا تحتفظ بعلبة إسعافات أولية في جيبك؟؟»

نظر إليه سامر ولم يرد، وظل يواصل عمله حتى قام بلف الشاش على القدم، ثم ساعده في الوقوف، واستدار كلاهما لينظرا إلى البوابة الثالثة.

كان أمامهم نقش كبير، لدائرة سوداء تخرج منها أذرع ملتوية.



«الشمس السوداء»

قال سامر، ووقف ينظر إلى وحيد الكومي في انتظار أن يبدأ بفتح البوابة، ولكن الأخير قال في ارتباك:

«لا توجد أية أحرف تحت النقش»

«ألا تعرف ما هذه؟»

«أعرف تماماً ما هي الشمس السوداء، ولكن من المفترض أن يكون هناك أحرف تحتها حتى يمكنني فتح البوابة من خلالها»

تنهد سامر، وهو يعلم أن الأمور لا يمكن أن تمضي دائماً بسهولة.

الفصل الخامس والعشرون

ظل يوسف محملقاً في وجه مستر آدم وبيتر مدير الأمن في غير تصديق، وكأن الحقائق التي تتوالى على رأسه أكثر من أن يستوعبها، خصوصاً بعد علمه بموت داليدا على أيديهم.

حاول يوسف الحديث ولكن لسانه رفض مطاوعته، ابتلع ريقه ثم سمع مستر آدم وهو يقول:

«هل هناك صوت؟ وكأنني سمعت صوتاً آتٍ من الخارج»

أرهف بيتر ومن معه السمع، ثم أمسك بتلابيب يوسف وسأله:

«هل هناك من يعرف هذا المكان غيرك وصديقك نادر؟»

بصوت مبحوح أجاب يوسف:

«كلا.. كلا.. لم يأتي أحداً معنا من قبل»

«مصري غبي»

تمتم بيتر، فرد عليه يوسف قائلاً:

«لسنا أغبياء أيها السفاح»

نظر إليه بيتر في بطء، ثم قال:

«لستم أغبياء؟ صدقني من فداحة أفعالكم الحمقاء.. أحياناً أعتقد أن فقركم والحالة المزرية التي عليها بلد كانت في يوم من الأيام وجهة أغنياء أوروبا وإحدى أجمل عواصم العالم.. أنكم تبذلون مجهوداً حتى تظل البلد على هذه الحالة المروعة. مراراً حاولنا أن نمد لكم يد المساعدة، حتى لا تتفوق عليكم إسرائيل، عدوة الألمان الأولى، والتي لا يزال ضباط مخابراتها يحاولون ملاحقة أعضاء الحزب النازي السابقين كالكلاب البوليسية رديئة النوع، ولكنكم أغبى وأكثر غروراً من أن تتقبلوا مساعدتنا، تفضلون أن تسبحوا في الخراء على أن تتقبلوا المساعدة من الأجانب، النوع الوحيد من المساعدة الذي يلقى عندكم القبول هو المال، أما المنح الدراسية والمواد الأكاديمية والعلماء والأساتذة، فلا تعيروهم أدنى اهتمام»

سكت بيتر لبضع ثواني، ثم قال ليوسف:

«سأسألك سؤالاً، هل يعقل أن الزعيم العربي الوحيد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود الذي تصدى لإسرائيل تصدياً كاملاً لا رجوع ولا مفاوضات فيه، وقال لأمريكا «إن أي نقطة بترول ستذهب إلى إسرائيل، ستجعلني أقطع البترول عنكم».. قد قتله أحد أفراد عائلته؟ هل هي مصادفة أن يكون أحد أمراء العائلة المالكة مجنون وقام بقتل الملك أمام الجميع.. ولم تتكرر هذه الحادثة في أي من الممالك العربية الأخرى خلال عقود؟ هل يعقل أن تكون هناك

دولة معادية للعرب موقعها في منتصف الدول العربية؟ وتصبح هذه الدولة من ضمن دول العالم الأول ومعظم الدول العربية وأنتم أولهم بالتأكيد من ضمن دول العالم الثالث؟ كل هذه الموارد.. بحر أحمر وبحر متوسط وغاز طبيعي وقناة السويس والصحاري الخلابة والمزارات السياحية ونهر النيل وآثار لا تعد ولا تحصى.. والناتج دولة معظم سكانها تحت خط الفقر؟ هناك بعض الدول التي لا تملك عشر ما تملكونه من موارد كاليابان والسويد وسويسرا.. ومع ذلك نجحوا في أن يجعلوا نسبة المواطنين الفقراء أقل من واحد بالمائة وأحياناً تكون هذه النسبة صفر. صدقني عندما أقول لك.. أن غبائكم فاق كل الحدود، ستعيشون تحت حكم جيشكم إلى الأبد لأنكم لا تستحقون ما هو أفضل»

في صوت يائس قال يوسف:

«لماذا قتلتم داليدا؟»

«داليدا هي أول من وضع يده في عش الدبابير بسبب غبائها الأنثوي، وهي السبب في كل هذه الفوضى. تزوجها مستر جاك بسبب نزوة عابرة، حقاً لا أعلم ما أعجبه فيها، ولكن طلباته أوامر كماتقولون في مصر. وبعد مرور ثلاثة أسابيع، كان قد أفرغ شهوته خلالهم، وأصبحت داليدا بالنسبة له فتاة ككل الفتيات، تركها وعاد إلى ألمانيا. وفي يوم مغادرته الغرفة، اكتشف أن الكتاب الذي أتى من أجله قد اختفى، وأضحت الخزينة فارغة، بحثنا في كل أرجاء الغرفة،

راقبنا الكاميرات ولكن لم نجد من دخل أو خرج، راقبنا تحركات داليدا ولم نجد شيئاً مثيراً للإهتمام. توقعنا وقتها أن المخابرات المصرية عادت لمراقبتنا واستطاعت بطريقة ما الحصول على الكتاب. استجوبنا داليدا مراراً، باللين وبالقسوة، ولكنها نفت معرفتها بالكتاب، أو بدخول أي شخص غريب إلى الغرفة، بإستثناء عمال النظافة.

وفي أحد الأيام، بعد عام على سفر جاك وطلاقها منه، كانت بداية هذه الأحداث، عندما جاءت داليدا لرؤية مستر آدم بعد منتصف ليل إحدى الأيام، كانت مجنونة في هذا اليوم، عينها حمراء من كثرة البكاء، ويديها ترتعشان بعصبية، كإنسان فقد كل شيء، أو فقد أحب ما يملك إلى نفسه، صرخت وهي تطلب منه أن يقوم بالإتصال بطليقها، ويأمره بأن يعود إلى مصر، ليعتذر على ما سببه لها، ويقوم بتعويضها بمبلغ كبير من المال، على شيء غير قابل للتعويض. ظلت تقول لقد قمتم بإفساد أفضل ما يمكن أن يحدث لإنسان على وجه الأرض، وهددته أنها قرأت «أسرار العالم الجديد»، وإذا لم ينصاع لها ستقوم بتصوير جميع صفحاته ونشرها على الإنترنت. لم يكن أمامنا خيار، فلا يوجد مزاح أو مخاطرة في أمر كهذا، فقتلناها على الفور. توقعنا بعدها أن نجد الكتاب في غرفتها، ولكن لم نجد له أي أثر، بحثنا في كل مكان، وحاولنا توقع الأماكن التي من الممكن أن تخفي فيها الكتاب، ولكن لم نعثر عليه، وقتها ندمت على قتلها، كان من الأفضل لنا الإحتفاظ بها وتعذيبها، كانت هذه هي المرة الأولى التي أندم فيها على قرار اتخذته، ولكنها ستكون المرة الأخير»

صمت بيتر قليلاً حتى يرى تأثير كلماته على يوسف، ثم تابع قائلاً:

«عاد الأمر إلى الظهور عندما نشر صديقك صورة الرمز الأسود، عرفنا وقتها أن الأمور على وشك أن تأخذ منحنى خطر وغير مأمون العواقب، فقتلناه على الفور لمنع انتشار المزيد من الصور. كان من المفترض أن تتهم أنت بقتله، حتى نساومك على المعلومات التي في حوزتك مقابل براءتك، ولكنك كالأحمق قمت بالهرب إلى القاهرة، وعند عودتك، كان لا يوجد سبيل من الهجوم على اللجنة، وأخذك عنوة»

«ولكن كيف قمت بتلفيق مقتل نادر حتى أبدو وكأنني القاتل؟»

ابتسم بيتر، ثم أجاب:

«هذا تكملة لحديثي السابق معك، لأنكم مصريين، تقدسون المال، وتعتبرون الرشوى حق مكتسب، وضابط القسم ليس استثناءً. والآن، لا تضع المزيد من وقتنا، أين الكتاب؟»

«لن تأخذوه ولو على جثتي»

رفع بيتر مسدسه في وجه يوسف.. ولكن مستر آدم أمسك بساعده وقام بخفض يده إلى الأسفل. ثم قال موجهاً حديثه ليوسف:

«يوسف، يا بني، أقسم لك أنني أحببتك، ولا زلت أحبك. أنت مختلف عن جميع العاملين في الفندق، كلهم جاءوا إلى هنا لأجل النقود والهرب من الفقر في قراهم. أنت الوحيد الذي أتيت هرباً من شيء آخر غير الفقر، يمكنني رؤيته في عينيك والشعور به في تصرفاتك

المختلفة عنهم. الجميع يستحل لنفسه الأجنبيات وينهل منهم ما تطاله يداه.. وكأنهم يستحقون ذلك لفسوقهم وكفرهم، أنت الوحيد الذي لم تصادق أجنبية واحدة ولم تستفد من أجنبي واحد. الجميع يعتبر السرقة من الفندق وخاصة البار حلال، لأن الخمر محرمة في دينكم.. وكأن السرقة هي الحلال، ما عداك أنت، لذلك صدقني عندما أقول لك أنني أحببتك ولا أريد لك أي أذى»

حدق يوسف في عينيه وقال:

«اذهب إلى الجحيم»

نظر بيتر إلى مستر آدم وكأنه ينتظر منه الأوامر، أومأ مستر آدم برأسه، فقام بيتر برفع يده الممسكة بالمسدس، وجهه إلى يوسف.. وأطلق النار.

الفصل السادس والعشرون

سمع سامر ووحيد الكومي صوت إطلاق نيران، وقفوا متسمرين لبضع ثواني، ثم أخرج سامر مسدسه من جرابه، وقال لوحيد الكومي:

«كيف سنفتح البوابة؟»

تردد وحيد لبرهة بعد سماع صوت إطلاق النيران، ولكن فضوله غلبه، فذهب إلى نقش الشمس السوداء، وبدأ يتحسسه، ثم قال:

«لا توجد أحرف مكتوبة، عن طريق الأحرف استطعت فتح البوابتين السابقتين»

ثم أخرج هاتفه من جيبه، وبدأ بالضغط على أزراراه. مرت دقيقة ثقيلة، ثم قال وحيد:

«لا يوجد إنترنت هنا، منذ أن أصبحنا في عمق الكهف والشبكة انقطعت»

رغم أن رسم الشمس السوداء Schwarze Sonne موجود منذ قديم الأزل لدى قبائل الـ«Alemanni» التي كانت تعيش شمال

نهر الراين قبل الميلاد، إلا أن ذكرها أو رؤيتها يرتبط هذه الأيام بألمانيا النازية، وذلك لأنها موجودة على أرض قلعة فيفيلسبرج Wewelsburg، وتعتبر إحدى أقدم قلاع ألمانيا حيث شيدت عام ١٦٠٣، ولكن في العام ١٩٣٤، تم استخدامها لتكون مقر قيادة ال SS«فيلق الدفاع Schutzstaffel» تحت قيادة هاينريخ هملر، وفي العام ١٩٤١ وفي خضم الحرب، تم أخذ القرار بتحويلها لمقر أكبر من مجرد قيادة فيلق الدفاع، وأطلقوا عليها اسم مستقبلي هو «مركز العالم».

وما حاول هاينريخ هملر عمله، هو محاولة استبدال الديانة المسيحية في ألمانيا بديانة جديدة، تعتبر مزيج من التصوف والأساطير الألمانية القديمة والديانات الشمالية، فقد كانت هناك بعض الممارسات الوثنية والإحتفالات، كالإحتفال بالإنقلاب الشتوي قبل أيام قليلة من عيد الميلاد، عن طريق إشعال نيران مقدسة وإلقاء خطابات رنانة عن مدى قدسية هذه النيران التي ستعيش في صدور الجنود للأبد، لذلك، أصبحت الشمس السوداء إحدى أهم رموز هذه الديانة الجديدة. وكان هدف هاينريخ هملر من هذه الديانة الجديدة، هو خلق رابط سري في قلب جنود الإستخبارات، وتزويدهم فيما بعد بما أطلق عليه طقس الموت الخاص.

كان وحيد الكومي وسامر يعرفان هذه المعلومات، الأول بحكم هوسه بالتاريخ، والثاني بحكم عمله في المكتب الدولي، بدؤوا يتناقشون ويتبادلون الأفكار، عن سبل فتح هذه البوابة، ولكن بعد

عشر دقائق، وعندما أيقنوا أنهم وصلوا لطريق مسدود، قام سامر بإخراج علبة صغيرة من جيب سترته، قام بتعليقها في منتصف البوبة، ثم قام بالضغط على زر أحمر في منتصفها، وبدأ يتراجع للخلف وأمر وحيد الكومي أن يحذو حذوه.

قال وحيد بصوت مرتبك:

«ما الذي ستفعله؟»

لم يرد عليه سامر، وظل يتراجع إلى الخلف. فإنفجر وحيد الكومي صارخاً:

«هل ستقوم بتفجير البوابة؟ هذه بوابة تاريخية من الممكن أن تكون الأخيرة في العالم.. هذا جنون.. لن أسمح لك»

رد عليه سامر في صرامة:

«اصمت وابتعد عن البوابة، ستنفجر خلال ثلاثون ثانية. لا يهمني تاريخ الكرة الأرضية بأكمله إذا كان هناك خطر على وطني»

لم يجد وحيد الكومي مفر غير أن يبتعد صاغراً، وقف بجانب سامر وهو ينظر إليه بكراهية شديدة.

مضت الثواني الثلاثون، ودوى انفجار شديد أطاح بفتحة معقولة في البوابة، وانتشرت الرمال والصخور الصغيرة وغطت سامر ووحيد الكومي الذين قاموا بوضع سواعدهم على أعينهم.

بعد أن هدأ الجو قليلاً، قام سامر ودخل من الفتحة التي أحدثها الإنفجار في البوابة، وتبعه وحيد الكومي الذي يكاد يبكي حزناً على ما يسميه بتشويه التاريخ والآثار.

وقف كلاهما أمام بوابة جديدة، كان النقش الذي عليها من دون أي لون، مجرد حفرة غائرة في الصخر، وقد رسمت دائرة بداخلها صليب هتلر المعقوف. بدأ اليأس والإحباط يتسرب إلى داخل سامر، عندما أخبره وحيد الكومي أنه لا يملك أدنى فكرة عن كيفية فتح البوابة، ولم يكن يملك نوع آخر من المتفجرات يمكنه من إحداث فتحة كما فعل في البوابة السابقة.

الفصل السابع والعشرون

تنزل الدموع غزيرة من عين يوسف، وقد اختلطت بصوت نشيجه وهو يحاول كبت صرخات الألم.. بعد أن قام بيتر بإطلاق طلقة مسدسه على ركبته. كان يحاول تحريك يديه ليحيط بها قدمه.. لعله يستطيع منع الدم المتدفق من النزيف، ولكن يديه كانتا مربوطتان خلف ظهره. شعر بالألم وهو يضرب بعنف، لم يستطع رؤية مكان الطلقة بسبب جلوسه مقيداً، وكان كل ما رآه هو الدماء التي تنزف بغزارة من دون توقف.

بعد مرور بضع دقائق، وبعد أن تأكد مستر آدم أن يوسف بدأ يفيق من ألم الصدمة، قال له:

«أين الكتاب؟ طلقة صغيرة لا تتعدى ثلاثة سنتيمترات سببت لك كل هذا الألم، وفي جسدك عشرات الأماكن الأخرى التي تسمح بمرور المزيد من الطلقات، لا أريد لك هذا المصير، وبالتأكيد لا تريده لنفسك أيضاً، لذلك يجب أن تعلم أن مصالحنا مشتركة، أنت تخبرنا بمكان الكتاب، ونحن نوقف هذا الألم البشع ولا نسبب لك المزيد منه، وكلما أسرعت بالإجابة كلما زال الألم في وقت أسرع»

ثم اقترب منه إلى أن أصبح وجهه في مقابل وجه يوسف، وقال:

«فرصتك الأخيرة قبل أن تبدأ دورة الألم الثانية، وفي هذه المرة ستكون ثلاثة طلقات وليست واحدة.. أين الكتاب؟»

رفع يوسف رأسه والألم يطفح من عينيه الدامعة، وقال بصوت لاهث:

«في غرفتي»

أمسك مستر آدم هاتف لاسلكي كان على طاولة قريبة، وبدأ ينادي على شخص ما على الطرف الآخر، مرت عشر ثواني وأجابه رجل ذا صوت خشن، طلب منه مستر آدم أن يذهب إلى غرفة يوسف ويبحث عن كتاب «أسرار العالم الجديد»، ويخبره عندما يعثر عليه.

مرت خمسة دقائق، ثم اندلع صوت الرجل من داخل اللاسلكي منادياً على مستر آدم، قال له أنه قام بتفتيش كل شبر في الغرفة ولكن لا أثر للكتاب.

فور أن أنهى جملته قام مستر آدم بوضع اصبعه داخل جرح ركبة يوسف.. وقام بالضغط عليه بشدة وهو يقوم بتحريك الإصبع يميناً ويساراً. صرخ يوسف بهستيريا من الألم المفاجىء، وقال مستر آدم:

«هل تظننا مجموعة من المغفلين جئنا كي نضيع وقتنا معك؟»

قال يوسف بكلمات متقطعة لاهثة:

«أقسم لك.. الكتاب في الغرفة»

«أقسمت، إذن تعترف أنك كاذب، إذا أقسم المصري فهو يكذب، هذا من ضمن ما تعلمته عن شعبكم الكسول الذي يعتقد نفسه ذكياً»

عندما أنهى مستر آدم جملته، سمعوا صوت انفجار هز جدران الكهف قليلاً، تحفز بيتر ورجلين الأمن الآخرين وشهرا مسدساتهم، نظر إليهم مستر آدم بقلق، ثم قال:

«يبدو أننا لسنا وحدنا في الكهف»

رد بيتر:

«مستحيل، لا يوجد من يعرف هذا المكان، وحتى لو وجد فلن يستطيع أن يفتح البوابات»

قال مستر آدم بصوت غاضب:

«لا يوجد مستحيل، الصوت قريب للغاية لا يمكن أن يكون من الخارج، اخرجوا وألقوا نظرة»

تقدم بيتر رجلي الأمن، وكلاً منهم ممسكاً بمسدسه، قاموا بفتح البوابة التي في ظهرها نقش الصليب المعقوف.

تقدموا بضع خطوات، ثم سمع بيتر صوت طلقتين نيران من مسدس كاتم للصوت، نظر بجانبه فوجد رجلا الأمن وقد افترشا الأرض، وهناك ثقب أحمر في جبهة كل منهما.

تلفت حوله في خوف وارتباك، ولكن في أقل من ثانية كانت هناك طلقة ثالثة قد طارت من أحد أركان الكهف المظلم، واستقرت بجبهته، سقط بعدها جسده الضخم على الأرض مصدراً صوتاً مدوياً.

خرج سامر ووحيد الكومي من مخبأهم خلف أحد الصخور في ركن مظلم، وعندما رأى وحيد الكومي الجثث الثلاثة على الأرض، فقد صوابه وبدأ يصرخ:

«ما الذي فعلته هل جننت.. ليست هذه هي الطريقة التي..»

ولكن سامر وضع يده على فمه ليمنعه من الإسترسال، وقال له في صوت خافت:

«اصمت، لم ننتهي بعد، غالباً هناك آخرون بالداخل، هذه هي الطريقة الوحيدة، أنت لا تعرف شيء عن الحرب الباردة التي تدور منذ عشرات السنين ولا تخف وتيرتها، في كل عام تتصاعد وتضطرم فيها النيران أكثر من السابق»

وبدأ سامر يسير ببطء مخترقاً البوابة، بعد بضعة أمتار، وجد أمامه مستر آدم.. وهو يقف خلف يوسف المقيد على كرسي معدني.. ممسكاً بمسدس وقد وضع ماسورته خلف رأسه.

قال مستر آدم في صوت هادىء يخفي به الذعر الذي شعر به عند دخول سامر.. الذي يعني أن بيتر ورجاله لم يفلحوا في التصدي له:

«قف مكانك وضع مسدسك بهدوء على الأرض وإلا قتلته»

ظل سامر على وضعه، ممسكاً مسدسه بيده اليمنى وهي مفرودة أمامه وموجهة ناحية مستر آدم. دام هذا الوضع لعشر ثواني، زاد توتر مستر آدم خلالها، فقال بعصبية:

«إذا لم..»

ولكنه لم يكمل جملته، ففي اللحظة التي بدأ فيها الحديث، قام سامر بإطلاق النار من مسدسه، وانطلقت رصاصة استقرت في رقبة مستر آدم، سقط المسدس من يد هذا الأخير، وببطء وضع كفه اليسرى على مكان جرح رقبته وشعر بالدم اللزج بين أصابعه، ثم سقط جسده على الأرض. في آخر لحظاته قبل أن يذهب نور الحياة من عينيه للأبد، أخذ يفكر أنه سيموت بعد هذا العمر الطويل.. ولكن الأفكار لا تموت.. وكما قال بيتر.. قلوبنا مضادة للرصاص.. سيقوم آخرين بإكمال عملهم، كما أكملوا عمل من قبلهم.

أنزل سامر مسدسه وتوجه ناحية يوسف، قال الأخير بصوت ضعيف:

«من أنت؟ وهل.. كنت على يقين.. أنك ستقتله قبل أن يطلق النار على رأسي؟»

«لن يهمك معرفة من أنا. أما عن يقيني بقتله أولاً.. فلا أملك غير القول أن الحياة مقامرة كبيرة، وقد مال الحظ إلى جانبك هذه المرة»

قبل أن يبدأ سامر في فك قيود يوسف، قال له:

«معك الكتاب أليس كذلك؟»

الفصل الثامن والعشرون

بعدما قام سامر بتنظيف جرح يوسف، ولف قطعة من الشاش على ركبته، قام بوضع ذراعه حول كتفه، وساعده على الوقوف، ثم بدؤوا يسيرون بخطى بطيئة إلى الخارج.

مروا من البوابة، ووجدوا وحيد الكومي متكوماً في أحد أركانها، وجهه شاحب وجسده يرتجف من الخوف، عندما وقعت عيناه على سامر قام من مجلسه وبدأت الدماء تعود إلى وجهه، قال في لهجة طفولية:

«كدت أموت من الخوف عليك، فكرت في الهرب، ولكني أدركت أن مفتاح السيارة في حوزتك وأنني لن أستطيع الفرار، فإضطررت لإنتظارك، حمداً لله على سلامتك»

ابتسم سامر، وتابعوا السير معاً للخروج من الكهف. رغم الآلام التي يشعر بها يوسف، كان يتمزق من الداخل لفقدان داليدا، لن يرى الجسد الضئيل.. والبشرة البرونزية.. والشعر الأسود الهائش..

والبسمة الطفولية التي تجعله يعتقد أن العالم توقف لبضعة ثواني.. مرة أخرى.

أفاق من تأملاته على صوت وحيد الكومي الذي لا يستطيع تحمل الصمت:

«سامر، لقد قمت بمساعدتك، من دوني لم تكن لتستطيع أن تفتح بوابة واحدة وتواجه هؤلاء الرجال، اكتشاف هذا الكهف وهذه النقوش سوف يسجل في التاريخ، وأريدك أن تخبرهم عن دوري في اكتشافها وحل لغزها، أعلم أنك ذو مكانة عالية، قليلون هم من يبثون الرعب في نفوس ضباط الشرطة كما فعلت مع العقيد حسن، يجب أن..»

بتر وحيد الكومي بقية حديثه.. عندما خرجوا من الكهف، ووجدوا أمامهم حشد من الرجال المسلحين، كانوا العرب البدو، وفي مقدمتهم زعيمهم أحمد.

دام الصمت لنصف دقيقة، ثم قال أحمد بصوته الذي يحمل لمحة خفيفة من السخرية:

«لا نريد قتل أحد، ولكن ما تتقاتلون لأجله، وما كنتم تبحثون عنه منذ عام مضى، يلزمني»

رد سامر بصوت واثق ليس فيه أثر لخوف أو حذر:

«ابتعد من أمامنا فوراً، وإلا كانت العواقب وخيمة، لست مستعداً للعب الأطفال هذا»

صاح أحمد وقد تغيرت ملامحه في أقل من ثانية ولمعت عيناه كمجنون:

«أصمت.. أصمت.. لعب أطفال؟ سأريك كيف يلعب أطفالنا، ألم تسمع عن أحمد من قبل؟ أم أنك جديد في هذه المنطقة؟»

«كلا سمعت عنك من قبل وأعرفك جيداً، ولكن يجب عليك تصديقي عندما أخبرك أن هذا الأمر، أكبر منك بكثير، وإن كنت لا تريد الموت أنت ورجالك فإنصرفوا من هنا حالاً»

«أين الكتاب، وإلا سأريك من العذاب ألواناً، لم يتم اكتشافها من قبل»

سأله سامر في استغراب:

«وما دخلك أنت بالكتاب؟ لن تستطيع الإستفاده منه»

افتر ثغر أحمد عن بسمة غير مكتملة، وقال:

«كلا.. أعلم جيداً كيف أستفيد من الكتاب، الأجانب يريدونه بأي ثمن، وقد قلبوا الدنيا رأساً على عقب للعثور عليه، وسيدفعون فيه الكثير»

وضع سامر يده في جيبه، جن جنون أحمد ورجاله لهذه الحركة وتحفزت أيديهم على أسلحتهم، ولكنهم لم يطلقوا النار، عندما أخرج من جيبه جهاز صغير في حجم كف يده، نظر بداخله، وقال:

«ثلاثمائة متر»

عقد أحمد حاجبيه وقال:

«ماذا؟»

«كما سعمت ثلاثمائة متر، مائة وخمسون حالياً»

ومن بعيد سمعوا جميعاً صوتاً يقترب، التفتوا خلفهم، فوجدوا بضع سيارات رباعية الدفع، وثلاثة طيارات هليكوبتر، وصوتاً مرتفعاً يدوي من مكبر للصوت:

«ألقوا أسلحتكم وابتعدوا عنها، المكان محاصر، وأي حركة غير مسئولة سيكون جزائها إطلاق نيران على الجميع ولن ينجو أحد»

تكرر النداء ثلاثة مرات، فبدأ أحمد ورجاله بإلقاء أسلحتهم أرضاً، وأخذ كلاً منهم خطوة إلى الوراء، ثم رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم. في هذه الأثناء، أخذ سامر يوسف ووحيد الكومي ودخلوا إلى الكهف، ثم أمرهم أن يقفوا خلف أحد الصخور ويتخذوها كساتر لهم.

وفي أقل من دقيقة، سمعوا صوتاً مدوياً لإطلاق نيران كثيف ومتفجرات، وضعوا أصابعهم في آذانهم وأغمضوا أعينهم، وأصبحت قلوبهم تدق بعنف لا يقل عن عنف المتفجرات التي تدوي في الخارج.

عندما هدأ الصوت، واقتصر على رجال يصيحون وهدير الطيارات الهليكوبتر، وقف سامر، وخرج من الكهف، ولكن وحيد الكومي ويوسف تبعوه، وهذا الأخير يعرج من الألم، ولكنه تحامل على نفسه للخروج معهم ورؤية ما حدث.

وقعت أعين الثلاثة على منظر لا يقل بشاعة عن المجازر التي تحدث في الحروب، تم قتل أحمد ورجاله رمياً بالرصاص، الدماء تغطي الجثث وما حولها، حتى الرمال لم تتشرب كل الدماء من كثرتها، معظم الجثث في أوضاع من كان يحاول الهرب ولكن الطلقات أردته قتيلاً في منتصف الطريق.

هرع بضعة رجال نحو سامر للإطمئنان عليه، ولكنه أشار لهم أنه بخير، وطلب منهم الإهتمام بيوسف وقدمه المصابة، وأنه ووحيد الكومي سيرافقونهم، وممنوع السماح لهم بالإنصراف.

قبل أن يتم وضع يوسف ووحيد الكومي في أحد السيارات، قال يوسف مخاطباً سامر:

«ما الذي حدث.. لماذا قتلتوهم.. لقد تركوا أسلحتهم كما طلبتم منهم»

ولكن سامر لم ينظر إليه، وأمر رجاله أن يغلقوا باب السيارة، ويتجه الجميع إلى الوجهة المتفق عليها.

الفصل التاسع والعشرون

في أحد مقاهي وسط البلد، يجلس وحيد الكومي وحيداً كالعادة على طاولة في المنتصف، أمامه كوباً من الشاي الثقيل، ويمسك سيجارة في يده اليمنى.

ليس بإمكانه نسيان الأيام الماضية، الكهف الذي اكتشفه والرموز التي تعرف عليها والبوابات القديمة التي استطاع فتحها، وحلمه الذي شعر بإقترابه.. بأن تسجل إحدى الإكتشفات التاريخية بإسمه.

ولكن البارحة، بعد عودتهم من العلمين ووصولهم إلى القاهرة في سيارة تابعة لسامر، الذي لابد وأن يكون ضابطاً بالمخابرات أو الأمن الوطني، تم تركه في غرفة مغلقة نصف مضاءة، لمدة خمس ساعات، دخل بعدها عليه سامر، ومن دون أي كلام قام بإمساكه من تلابيبه ووضعه على الأرض، ثم قام بإخراج مسدسه من جرابه، وحشره في فم وحيد الكومي، ظل الأخير ينظر إليه في عدم تصديق ودهشة، ثم قال سامر:

«أعتقد أنك تعلم جيداً أن القتل بالنسبة لنا أمر مطروح وغير مستبعد، لذلك يمكنني الوثوق أنك لن تتفوه بحرف أو تنشر أي شيء عما حدث في الأيام الماضية. هل كلامي واضح؟»

بأعين باكية وجسد يرتجف من الخوف، هز وحيد الكومي رأسه بصعوبة، أخرج سامر بعدها المسدس وأعاده إلى جرابه، ثم طلب منه الإنصراف، وحذره مرة أخرى من تبعات تسريب أي أحداث.

«لقد عدت إلى نقطة الصفر»، هذا ما أخذ يدور بخلد وحيد الكومي وما أخذ يردده بخفوت، في كل مرة يظن أنه أمسك بأحد الخيوط، وأن حياته ستتغير وأن حلمه سيتحقق، ثم يفيق على السراب المعتاد. ربما هذه هي الحياة، تعطي ما تريد للبعض، وتتجاهل البعض الآخر مهما بذلوا من جهد وتعب، ربما.. ربما يجب عليه أن يفقد الأمل، ويتعامل مع قدره كإنسان نكرة، يعمل كي يأكل ويشرب مثله مثل الدواب، ويتوقف عن بحثه عن المجد.

* * *

بعدما أوصلت السيارة التي تقل زينة إلى منزلها، اتفقت مع سامر على اللقاء في اليوم التالي.

جاءت إلى الموعد مبكراً، جلست على طاولة منعزلة في ركن المقهى. كان تحت عينيها لون أسود من التعب وعدم القدرة على النوم ليلة البارحة، وكان جسدها متعباً ولا زال الشعور بالخوف والأعصاب المشدودة من وقت الإختطاف يلاحقها، ولكنها أصرت

على الحضور ومقابلة سامر، حاجتها في الحصول على أجوبة، كانت أكبر بكثير من حاجتها للراحة.

تأخر سامر عن الموعد، واضطرت إلى مهاتفته مرتان حتى تتأكد أنه قادم، وبعد الإنتظار الذي دام أكثر من ساعة، وصل مرتدياً كعادته بدلة سوداء، ورابطة عنق حمراء. قال فور وصوله:

«أعتذر على التأخير، لم أستطع ترك العمل مبكراً»

ثم جلس على الكرسي المقابل لها.

قالت له زينة:

«لا مشكلة»

ثم ظلت تحدق إلى عينيه، في انتظار أن يبدأ الحديث، ويحكي لها ما الذي يحدث، أو بالأخص ما الذي حدث لوائل، زوجها وحبيبها الراحل. قال لها بعد أن طلب من النادل أحد الكوكتيلات الغريبة:

«ما الذي تريدين معرفته تحديداً؟»

«كل شيء.. لماذا مات وائل، ومن الذي قتله، ومن هؤلاء الأشخاص الذين قاموا بإختطافنا، وما أهمية كتاب «أسرار العالم الجديد».. ولماذا يتقاتل عليه الجميع، وما هي الرسالة التي تركها وائل في رواية شفرة دافنشي. لكي أستطيع إكمال حياتي كشخص شبه طبيعي.. يجب أن أحصل على إجابات»

كان ما يدور في ذهن سامر، أنه يخرق القواعد الصارمة، كان يجب عليه أن يضع مسدساً في فمها، ويهددها بالقتل، إن باحت بأي شيء مما حدث أو حتى تحدثت عنه مع أي شخص، مثلما فعل مع وحيد الكومي ويوسف. ولكن وائل.. كان زميلاً وصديقاً وأخاً له، وكالكثير ممن يتصف عملهم بالخطورة، أصبحت بينهم رابطة قوية، يطلق عليها البعض رابطة الإقتراب من الموت، فعندما يتعرض بعض الأشخاص لموقف خطر، خصوصاً إذا أصبحوا على شرف حفرة من لقاء حتفهم، يصبح بينهم رابط مشترك، من الصعب خرقه أو نسيانه. لذلك، تلقت زينة معاملة مختلفة، وخرق القواعد من دون الشعور بالذنب من أجلها، فبالنسبة له، هي زوجة أخيه.. أخيه الشهيد.

قال سامر:

«بعض الأشياء فقط يمكنني الإجابة عنها»

قالت في إصرار:

«كلي آذان صاغية»

اعتدل سامر في جلسته، ثم قال:

«كنت أنا وسامر نعمل معاً، في أحد الأقسام التابعة للقوات المسلحة، ومهمتها هي مراقبة ومحاربة الأجانب الذين يعملون على الأراضي المصرية.. في حين أن لهم أهدافاً أخرى»

قاطعته زينة:

«وهل يعمل أحمد وزياد معكما؟ لأنني قابلتهما و..»

قاطعها سامر قائلاً:

«أحمد وزياد كانوا زملاء وائل عندما كان ضابطاً عادياً، من قبل أن يتم اختياره للعمل في مكافحة التجسس الأجنبي. كانوا أصدقاء مقربين له، ولكنهم لا يعلمون شيئاً عن عمله»

«من الذي قتله»

«إجابة هذا السؤال معقدة، لن تفهميها»

«أخبرني ما عندك واترك لي الأمر»

حدق في عينيها قليلاً، ثم حسم أمره قائلاً:

«حسناً. لن أؤكد عليكي أن كل ما أقوله هو سر، وإفشاؤه سيسبب لي ضرراً بالغاً قد يصل إلى إيقافي من الخدمة، لأنك بالتأكيد تعرفين ذلك»

أومأت برأسها مؤمنة على كلامه، فأكمل قائلاً:

«السبب الرئيسي في كل هذه الفوضى، وفي كل ما حدث، هو كتاب، يدعى كما تعرفين أسرار العالم الجديد»

أصبح الكتاب في قبضة سامر. عندما كان يوسف مع زينة موقوفين بداخل عربة البوكس في اللجنة التي تقع عند بداية مدينة العلمين، وفي الدقائق القليلة التي خرج فيها وحيد الكومي لإفراغ مثانته، أخبرها يوسف أن كتاباً هاماً يوجد في غرفته، وأن عليها إذا حدث له مكروه أن تأخذه وتحتفظ به، لكي لا يقع في أيدي أشخاص..

ربما كانوا السبب في اختفاء صديقته داليدا. لذلك، عندما أخذ سامر وحيد الكومي وانصرفوا للبحث عن يوسف، ذهبت زينة إلى غرفته، بعدما طلبت من العقيد حسن أن يصحبها إلى هناك، فإضطر أن ينفذ طلباتها اتباعاً لأوامر سامر، لعل خضوعه سوف يخفف من عقابه المنتظر. فأصبح الكتاب في حوزة زينة، وقامت بتسليمه ليوسف الذي أعطاه لسامر فور عودتهم من الكهف.

كان العقيد حسن يعلم أن هناك عقاباً في انتظاره، لأنه وطوال الفترة الماضية، كان متواطئاً لفترة كبيرة مع مستر آدم وفريقه الأجنبي، كان ينفذ لهم كل أوامرهم، في مقابل مادي محترم، وآخر طلباتهم، كانت اتهام يوسف بقتل نادر صديقه، وعندما هرب يوسف، أمروه أن يلقي القبض على صديقه الآخر عاطف، ويلقي عليه بتهمة قتل نادر، لعل يوسف يتوقف عن الهرب، ويعود لإنقاذ صديقه، فيلقون القبض عليه. لذلك، جن جنونه عندما تم إيقاف يوسف ومن معه في لجنة العلمين، وحاول بكل الطرق إقناع الضابط المسئول عن اللجنة أن يقوم بتسليمه يوسف، ولكن الضابط رفض رفضاً قاطعاً، وأخبره أن أوامر إيقافهم جاءت من جهة عليا لا يتم رفض أي طلب لها، فقد قام سامر بعدما شاهد زينة مع رجلين آخرين أمام أحد فروع المكتب الدولي.. بنشر أوصافهم وصوزهم على كل لجان مصر مع أوامر حازمة بإيقافهم. فما كان من العقيد حسن، إلا أن أخبر مستر آدم بما حدث، فتصرف الأخير على الفور، وأرسل بضعة رجال للهجوم على اللجنة والقبض على يوسف.

تابع سامر كلامه:

«يعتبر كتاب أسرار العالم الجديد من أهم الكتب بالنسبة إلى الألمان، إن لم يكن الأهم على الإطلاق. كتبه أحد المنشقين عن الحزب النازي، وقد ذكر في الكتاب كل خطط الحزب النازي المستقبلية، وما هي المنظمة التي كونوها للسيطرة على العالم بعد الحرب من دون معدات حربية، والأهم من كل ذلك، يوجد بداخل الكتاب أسماء جميع العائلات التي تم تهريبها خارج ألمانيا قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية، هذه العائلات التي بدأت تكوين منظمة.. هدفها إنشاء امبراطوريات اقتصادية، والتي تسيطر على اقتصاد العالم حتى يومنا هذا، ولأن الأمر مرتبط بعائلات، يقوم الأولاد بأخذ مكان الآباء، فإذا تم ذكر أسامي المؤسسين الأوائل، سيتم معرفة أفراد المنظمة الحاليين، بالإضافة لطرق عملهم وخططهم التي تمتد حتى العام ٢٠٥٠»

«كيف عرفت أن الكتاب بحوزة يوسف؟»

«خمنت ذلك، منذ بدأ الألمان في التوافد على مصر عام ١٩٤٤، وبدأت الإتفاقيات بينهم وبين ضباط الجيش المصري للإطاحة بالإنجليز، إلى أن تم إيقاف التعاون، منذ ذلك الوقت.. أي منذ أكثر من خمسون عاماً، والصراع الوحيد بيننا وبينهم هو الإستحواذ على هذا الكتاب، الذي استطاع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر انتزاعه من بين أيديهم، وظل في حوزتنا سنيناً طويلة، كضمان لنا لكي لا يحاولون التمرد. لذلك، منذ أن علمت أن هناك نزاعاً في منطقة

العلمين، وأن أحد أطراف هذا النزاع أعضاءً في المنظمة، كان من المنطقي أن يكون الكتاب الذي تمت سرقته منذ ثلاثة أعوام، قد عاد للظهور»

«وما دخل وائل بكل ذلك؟»

قال سامر بأسف:

«كان وائل سيء الحظ قليلاً، وبعض الآراء ترجح تعرضه للخيانة. كان الكتاب في حوزتنا لسنين طويلة، ولم يقم الألمان بأي محاولة منذ ما يزيد على العشرون عاماً للحصول عليه، وظل تعاملنا مع المنظمة مستقراً، إلى أن جاءت ثورة ٢٥ يناير، وتحديداً بعد واقعة انسحاب الشرطة من الشوارع، خافوا أن يتم سرقة الكتاب من مكانه في مقراتنا وبيعه لأحد أعدائهم، قمنا بطمأنتهم، ولكنهم لم يصدقوا أن هذه الحركة كانت مقصودة وبأوامر عليا، وبدؤوا بالتخطيط لسرقة الكتاب. توفي وائل في عام ٢٠١١، العام الأول لثورة يناير، بالتحديد في يوم ١٣ أبريل، اليوم الذي تقرر فيه حبس الرئيس السابق محمد حسني مبارك خمسة عشر يوماً على ذمة التحقيق، واليوم الذي قام فيه الجيش بإعتقاله من شرم الشيخ. تزامن هذا اليوم مع سفركم إلى هناك لقضاء شهر العسل، صدفة قبيحة كانت، لم يصدق أعضاء المنظمة أن أحد أهم ضباطنا سيتزوج في هذا الوقت الحرج، وحتى الآن لا نعلم ما الذي جعلهم يعتقدون أن الكتاب كان بحوزته.. وكان يقوم بنقله إلى مكان آخر، بعض الآراء ترجح أن في صفوفنا من أراد التخلص من وائل، فقام بإختلاق وبيع هذه المعلومة للمنظمة، لأنه في وقت الأزمات يبدأ ضعاف الإيمان بجمع أكبر قدر ممكن من النقود لتأمين مستقبلهم»

جاء النادل، ووضع أمام سامر كوباً من عصير الكوكتيل أزرق اللون، وأمام زينة كوباً من القهوة الأمريكية. ارتشف سامر من كوبه حتى وصل إلى منتصفه. ثم قالت زينة:

«ولكن إذا كان الكتاب يمثل للمنظمة كل هذه المشاكل، لماذا لم يقوموا بتمزيقه وقت الحصول عليه بدلاً من الإحتفاظ به، ولماذا لم تقوموا أنتم بنسخ الكتاب، حتى إذا ضاع أصبح عندكم نسختكم الخاصة»

«بالتأكيد لدينا أكثر من نسخة للكتاب على الورق وعلى الكمبيوتر، ولكن هذا الكتاب.. تمت كتابته بطريقة سرية ومعقدة، وحتى الآن لم يتم اكتشاف كل ما بداخله»

نظرت زينة إليه في استغراب، فتابع قائلاً:

«في هذا الكتاب، صفحات إذا لم تقرأها اختلف المعنى، مثلاً، اقرأ الصفحة الأولى ثم العاشرة ثم العشرون ثم الثلاثون، سيصبح لديك معنى جديد، اقرأ الأولى والثالثة والخامسة والسابعة، معنى ومعلومات مختلفة تماماً، وهكذا، بالتأكيد ليس بهذا الترتيب بالتحديد، ولكن هذه هي فكرة الكتاب. في البداية لم نكن نعلم ذلك، ولكن عندما وجدنا أن الألمان لم يقوموا بحرق وتدمير الكتاب وقت حصولهم عليه، شككنا في الأمر، وقام أحد خبرائنا بالعثور على هذا الإكتشاف، وحتى الآن، لا نعرف كل ما بداخل الكتاب، والمرجح أن المنظمة أيضاً لم تكتشف كل خباياه»

رشفت زينة من قهوتها، وذهنها لا يستطيع استيعاب هذا الكم من المعلومات والحقائق، ثم قالت:

«ما هي الرسالة التي تركها لي وائل في رواية شفرة دافنشي؟»

صمت سامر قليلاً، وكأنه يقلب الأمر في ذهنه، ثم رشف ما تبقى من الكوكتيل في كوبه، وقال:

«لم يترك وائل لك أي رسالة، هذه الرسالة كانت موجهة لنا، إذا تم اكتشافها في وقتها كانت لتكون مفيدة، ولكن الآن، بعد كل هذا الوقت، أصبحت عديمة القيمة. كان وائل يشعر أن هناك داخل صفوفنا وفي مقر المكتب بشارع الشريفة دينا تحديداً.. يوجد خائن»

ثم تابع قائلاً:

«كان من المفترض أن نقوم بالعثور عليه عند تفتيش سيارته، وقد قمنا بتفتيشها بالتأكيد، ولكن كما أخبرتني من قبل، قام صديقه بأخذ الرواية كتذكار لوائل»

ظل كلاهما صامتين بعد أن أنهى سامر جملته الأخيرة، رشفت زينة ما تبقى في قهوتها، وأخذت تفكر في أي شيء آخر تود معرفته، ولكن ذهنها كان مشوشاً، كانت تظن أنها ستشعر بتحسن إذا علمت ما الذي حدث لوائل، ولكن، بعد معرفتها، لم يتغير الأمر، ظل الحزن كما هو، وظل احتياجها إليه في ازدياد، وبدأت تفكر في تاريخ موت وائل، ربما.. ربما لو لم تلح عائلتها عليهم للزواج، لما حدث ما حدث،

ربما لو قاموا بتأجيل العرس قليلاً، وما تزوجوا يوم عيد ميلادها كما وعدها.. ربما. قالت لسامر وهي تستعد للإنصراف:

«أعتذر على تعطيلك، وأشكر لك مساعدتك»

«لا شكر على واجب، كان وائل أكثر من أخ لي»

غادرت كرسيها، ولوحت له بيدها قائلة «إلى اللقاء»، ثم استدارت منصرفة.

قبل أن تبتعد زينة عن سامر قال لها:

«زينة، تعرفين أنه يجب عليك الإتصال بي إذا احتجت لأي شيء.. أي شيء»

ابتسمت له وقالت:

«أعلم ذلك.. شكراً لك»

الفصل الثلاثون

رغم كل ما حدث، لم يكن يوسف يشعر بالندم، ربما بالحزن، ولكن ليس الندم.

لازال الطعم المعدني لمسدس سامر في فمه، والتهديد المباشر له بالقتل، إذا تفوه بأي كلمة عما حدث. عندما سأله يوسف عن سبب قتل الرجال البدو.. رغم أنهم قاموا بإلقاء أسلحتهم ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم، قال له سامر أنها كانت فرصة للتخلص من بعض العملاء، الذين يعملون مع من يدفع أكثر، وكان أحمد ورجاله، يعملون مع الألمان بصفة مستمرة، لذلك كانت فرصة لا تفوت لتصفيتهم.

بعد يومين، سيقرأ يوسف خبر في أكثر من جريدة، يذيع نبأ التخلص من أحد الخلايا الإرهابية بالعلمين، بعد أن حاصرتهم الشرطة وطلبت منهم التسليم، ولكنهم رفضوا وأطلقوا النار على الضباط والجنود، مما اضطرهم أن يردوا عليهم، وأدى ذلك إلى تصفية الكثير من رجال هذه الخلية.

في اليوم الذي عاد فيه يوسف إلى أسرته، تم استقباله بالأحضان، خصوصاً من والدته، وظلوا يسألونه عن سبب الجرح الغائر في قدمه، فأخبرهم أنها إصابة عمل أثناء إحدى رحلات السفاري. ولكن بعد بضعة أيام، عندما أصبح وجوده في المنزل أمراً عادياً، بدأت الأسرة والعائلة بأكملها، في تأنيبه عما فعل، وبدؤوا يتحدثون من وراء ظهره عن الجرح الذي في قدمه.. وأصبح هناك قصة مختلقة، عن مجموعة من البلطجية، كانوا في عراك مع زميله في الغرفة، فقاموا بالهجوم عليهما معاً، وهذه هي النهاية الطبيعية لكل من يبتعد عن دفء العائلة ويذهب للعيش وسط الرعاع.

كانت أخبار هذه القصص تصل ليوسف، ولكنه لم يهتم بنفيها، كان يبتسم في مرارة، ويقوم بتغيير الحديث. منذ أن عاد، أصبح يعيش كإنسان آلي، يعلم أن القدر لا مفر منه، ترك عائلته حتى يهرب، وقام بخلق عائلة أخرى في مكان آخر، فما كان من القدر إلا أن أخذ هذه العائلة الأخرى وقام بتفتيتها. ماتت داليدا القصيرة الفاتنة التي كان يعشق التراب الذي تمشي عليه، ومات نادر الصديق المخلص وهو يساعده في البحث، أو بالأحرى قتلا، وكأن القدر يقول له، لا مفر مني، حتى عاطف الذي لديه الإستعداد للإنحناء للشيطان نفسه إذا ضمن له سلامته، لفقت له قضية قتل، وكأن القدر يقول له، الساكت عن الظلم، لابد وأن يتذوقه. هل كل هذه الصدف كانت مقدرة لكي يذهب كل منهم إلى مكانه؟ يعود يوسف إلى عائلته، وعاطف كي يدفع ثمن سكوته وإيثاره السلامة، ونادر لكي يرتاح من كل ما يعتمل في نفسه عند الموت، وزينة كي تجد إجابات، وداليدا كي تحظى بنفس ميتة والديها اللذان توفيا ظلماً.

«لست أوركا.. لست أوركا.. أنا سمكة قرش.. القروش فقط هي التي تحيا وحيدة» هكذا ظل يردد لنفسه. كان أفضل ما يصف حالته، أبيات الشاعر الإنجليزي الذي قال:

في كل صبح ينقضي، أو ينقضي مساء،

يولد بعض الناس للشقاء،

كل مساء ينقضي، أو ينقضي صباح،

يولد بعض الناس للأفراح،

لكل ما لذ من الأفراح،

ويولد البعض لليل لا ينتهي.

هذا هو حال يوسف، لم يولد للأفراح بالتأكيد، ولا أيضاً للشقاء، فكثير من الناس تحسده على أسرته المستريحة مادياً، ولكنه ولد لليالٍ لا تنتهي، كل يوم، يحلم بمن فقدهم، وبعائلته التي لا يمكنه العيش وسطها، ويظل يفكر في ما يريد، إلى أن يدرك أن ما يريده مستحيل الحدوث، لأنه لا يرتبط به وحده، بل بملايين الناس، وبفتاة.. لم تعد ضمن الأحياء.

أول ما فعله عند عودته، هو تعيين محامي للدفاع عن عاطف في قضية اتهامه بقتل نادر، طلب معاونة سامر، وقال له الأخير ألا يقلق، فلا حاجة لهم بعاطف، ولكن لا يمكن إخراجه وكأن شيئاً لم يكن لكيلا تتلوث سمعة الشرطة، يجب أن تكون هناك قضية، لذلك تطوع يوسف بتعيين محام على حسابه الخاص. بعد شهر، سيعلم من

المحامي أن عاطف لديه حجة غياب عن غرفة نادر وقت مقتله، ولكنه لا يمكنه البوح بها، لأنه كان يقوم ببيع خمر مسروق لأحد المشترين، تناقش يوسف مع المحامي في جدوى استخدام هذه الحجة، ولكنهم أعرضوا عنها وقرروا استكمال القضية بالطرق التقليدية. وبعد ستة أشهر، سيتم إعلان براءة عاطف، بعدها سيقوم يوسف بكتابة شركة السفاري بإسمه، لتصبح مصدر رزقه بدلاً من بيع الخمر وسرقتها.

بعد أن أنهى اجراءات تعيين المحامي وتأكد أنه سافر إلى العلمين لمقابلة عاطف، أخرج رواية نادر الثانية التي لم يكملها بعد، كان قد أنهى خمسة وعشرون فصلاً من أصل خمسة وثلاثون، فأخذ يوسف عهداً على نفسه بإنهاء الرواية، ونشرها بإسم نادر، لكي يتحقق حلمه، حتى وإن لم يكن موجوداً ليشهده، ففي هذا العالم، وفي هذه البلد على وجه الخصوص، لا تعتبر الأحلام مطلباً ضرورياً للوصول إلى السلام النفسي، إنها رومانسية فارغة.

لم يكن يوسف كاتباً، ولم يجرب الكتابة من قبل، ولكنه كان عاشقاً للقراءة، وهذا ما ساعده. أول ما فعله هو قراءة ما كتبه نادر من الرواية، خمسة مرات، وقام بعمل ملف لكل شخصية في الرواية، وكتب الأحداث السابقة والأحداث المتوقعة، والهدف المطلوب من الرواية الذي يجب الوصول إليه، وكيفية الحفاظ على الأسلوب الشيق في الكتابة وفي الأحداث. ثم بدأ يقرأ كتباً تتحدث عن الكتابة والروائيين، وتأثر بشدة بنصائح ستيفن كينج العشرون في الكتابة، فقام بطباعتها ووضعها أعلى المكتب الذي يجلس عليه.

وأصبح يومه مقسماً بين الكتابة في الصباح، ثم الذهاب إلى النادي لممارسة الملاكمة.. الشيء الوحيد الذي يجعله ينسى كل ما مر به.. ويفرغ طاقته في كيس من الرمل، وفي المساء، يقرأ عن الكتابة وعن سير الروائيين والروايات العالمية.

وبعد ثمانية أشهر من العمل المتواصل، خرجت الرواية إلى النور، ولأن موضوع الرواية كان يتحدث عن الإختلاف بين انتماءات المصريين، هذا الإختلاف الذي خلقناه بأنفسنا، وكيفية تأثيره على حياتنا، كان يوسف يشعر كما لو أنه قد وضع جزءًا من روحه في الكتاب، ولم يجد عنواناً أفضل من «بلد القلوب المحطمة».

* * *

ذهب يوسف إلى المطعم المتفق عليه في الثامنة مساءً. اختار طاولة تقع في ركن هادىء، وتطل على حديقة صغيرة. بعد حوالي عشر دقائق، شاهد زينة وهي قادمة ناحية طاولته، كانت ترتدي فستان فيروزي طويل من دون أكمام، يصل إلى أسفل قدميها اللتلان اعتلتا حذاءً ذو كعباً عالياً، وعندها ندم يوسف على عدم تأنقه، فلم يرتدي غير سروال جينز غامق وتي شيرت كتب عليه Don't Quit (لا تترك أو لا تستسلم).

جلست على الكرسي المقابل له، وابتسمت.

سرت رعشة في جسده إثر هذه الإبتسامة العذبة. كانت زينة تضع قليلاً من الحمرة على خديها، وأحمر شفاه غامق اللون، وقامت بترك شعرها البني اللامع مسترسلاً على كتفيها وخلف ظهرها.

كان يوسف يعلم أن زينة عادةً لا تضع مكياجاً، ليس له معرفة سابقة بها قبل مغامرة العلمين، ولكن طريقتها في التعامل أوحت له بذلك، كانت جميلة، وأجمل ما فيها رقتها المتزايدة. بادلها الإبتسام، ورحب بها وسألها عن أحوالها، قالت له في صوت تشوبه نبرة حزن:

«بخير الحمد لله. أظن أن كل شيء انتهى الآن»

«لا شيء ينتهي، نحن فقط نقرر النسيان أو التغاضي عنه»

«ما هي خططك بعد الإستقرار في القاهرة؟»

«أنوي إكمال رواية صديقي المتوفي نادر، قام بكتابة حوالي سبعون بالمائة منها، وأريد حقاً إستكمالها ونشرها بإسمه»

«هذا لطف شديد منك، أخبرني إذا احتجت لأي مساعدة»

«سأفعل بالتأكيد»

نظر يوسف في عينيها، ثم قال:

«أعلم أنك لازلت حزينة رغم مرور سنين على موت زوجك، ولكن هذه هي الحال، الحزن سيظل مكانه لن يتزحزح، فقط يجب عليك وضعه في مكان مغلق حتى تستطيعي إكمال حياتك»

زفرت في ضيق، ثم قالت:

«حياتي انتهت، ما الذي يمكن أن تفعله أرملة في الحادية والثلاثين من عمرها.. لديها مشاكل صحية نتيجة الغيبوبة الطويلة»

«يمكنها فعل الكثير، يمكنها الرسم، والقراءة، والبحث عن عمل، ومقابلة أصدقاء جدد، والسفر، وعمل قائمة بالأماكن التي ينبغي لها زيارتها، والبحث عن الحب، والوقوع في غرام رجل يقدر رقتها، رجل سوف يرى العالم من خلال عينيها، وتكون له حياة»

صمت قليلاً ثم قال:

«تعلمين ماذا أيضاً، سيكون هذا الرجل هو الوغد الأشد حظاً على وجه الأرض، أنت جميلة يا زينة، والأفضل من ذلك أن لك قلباً يفيض بالطيبة، فقط لأنك إنسانة، تشعرين أن حياتك انتهت، وأنه لا يحق لك الإستمتاع بعد وفاة زوجك»

نزلت دمعة صغيرة على وجنتها، فمسحتها بطرف إصبعها، وظلت تحدق في يوسف بإمتنان.

جاء النادل، وطلب كلاً منهم طبقاً رئيسياً وعصير، ظلوا يتسامرون وقت الأكل، وعندما انتهوا طلبوا كعكة شوكولاتة واحدة وتقاسموها، بعدها شرب كلاً منهم كوباً من القهوة. وبعد ساعتان ونصف، طلب يوسف الحساب، وغادروا المطعم.

وقفوا أمام باب المطعم، زينة تنظر إلى يوسف، في انتظار أن يقول شيئاً. يوسف يبادلها النظر، يعلم جيداً ما تفكر فيه، يعلم أنها تميل إليه، وأنه يميل إليها، هذا الفستان والمكياج، ليس لأي أحد. ولكنه بعد فقد داليدا أصبح مكسوراً، وهي أيضاً مكسورة، ولا يعرف هل من الممكن أن تكتب لعلاقتهما النجاح أم لا، فلا يجب أن يجتمع اثنان يعانيان من الجروح، إذ سوف يدميان بعضهما البعض من دون قصد،

من الأفضل لكل منهم أن يبحث عن شريك يتحمل حزنه واكتئابه، شريك جديد بكامل صحته العاطفية، لديه استعداد للتضحية من أجلهم وتحملهم.

قال لها يوسف:

«هاتفيني إذا احتجت لأي شيء»

قالت في صوت شبه حزين:

«أنت أيضاً. وأخبرني كيف تسير كتابة الرواية»

«بالتأكيد، إلى اللقاء»

لوحت له بيدها، ثم انصرفت في اتجاه سيارتها.

عاد يوسف إلى منزله، دخل إلى غرفته، وجلس على السرير. من جيب حافظته أخرج صورة قديمة، كانت صورته هو وداليدا، وهو يضع ذراعه حول خصرها وهي تميل برأسها على كتفه، شعرها الهائش يغطي جزءًا من رقبته، كلاهما يبتسم بدفء، وكأن العالم والمستقبل ملكٌ لهما.

تمت بحمد الله

محمد مجدي

٢٠١٥/٨/٢٤

المراجع

الغيبوبة:

www.coma-support.com

Bilderberg:

The True Story of the Bilderberg Group by Daniel Estulin

The Guardian

BBC News

Bilderbergmeetings.org

Wikipedia

Skull and Bones:

Secrets of the Tomb: Skull and Bones, the Ivy League, and the Hidden Paths of Power by Alexandra Robbins

America's Secret Establishment: An Introduction to the Order of Skull & Bones by Antony C. Sutton

Wikipedia

المعلومات الخاصة بالنازية والأوديسا والرايخ الثالث:

The Rise and Fall of the Third Reich: A History of Nazi Germany by William L. Shirer

World WarII: A New History by Evan Mawdsley

The New Germany and the Old Nazis by T.H. Tetens

The Real Odessa: How Peron Brought the Nazi War Criminals to Argentina by Uki Goni

Nazi's On the Run: How Hitler's Henchmen Fled Justice by Gerald Steinacher

Hunting Evil: The Nazi War Criminals Who Escaped and the Quest to Bring Them to Justice by Guy Walters

Wikipedia

Inv:419

Date:16/2/2016

قلـوب
مضادة للرصاص

"شرفي هو ولائي" هذه ترجمة عبارة بالألمانية كتبت فوق كهف في مدينة العلمين، قرأها يوسف وهو يبحث عن شيء مقدس.. لكن ليست تلك المشكلة.. وزينة أصرت على اتهام البعض بقتل زوجها أثناء وجودها معه لعمل شيء مقدس.. لكن تلك أيضاً ليست المشكلة.. يوسف لا يعيش في العلمين ولا يعرف من سكن ذلك الكهف ولماذا كتب تلك الجملة.. وتلك ليست المشكلة.. زوج زينة لم يقتل وذلك مؤكد لكنها تصر على موته مقتولاً وهي صادقة في ذلك! وتلك التفصيلة الأخيرة أيضاً ليست المشكلة.. المشكلة هي كل ما سيحدث بعد ذلك.. تلك العاصفة من التفاصيل التي ستغير كل الحقائق وتقلب كل الأمور.. ولزيادة الأمور غرابة سأخبرك أن يوسف لا يعرف زينة ولم يقابلها سابقاً لكن كل شيء يجمعهم لا محالة..!

إنها الرواية الثالثة في عالم الجريمة والخيال العبقري الذي ينسجه كاتب متمكن صنع لنفسه طريقاً لامعاً في كتابة التشويق والإثارة.

الناشر

تصميم الغلاف كريم آدم



محمد مجدي

كاتب مصري من مواليد القاهرة عام 1988، تخرج في كلية الاقتصاد بالجامعة الألمانية عام 2009.

صدرت روايته الأولى "داخل الغرفة الزجاجية" عام 2013 في 6 طبعات حتى الآن ، وروايته الثانية "كل الأمور السيئة" عام 2014، في 4 طبعات حتى الآن.


ISBN 978-977-6426-86-3

